

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في اللغة العربية

الطالب: عبد الناصر مشري المشرف: أ. أحمد جلايلي

أعضاء لجنة المناقشة:

- أ. فرحات عياش / جامعة الحاج لخضر - باتنة رئيساً
- أ. أحمد جلايلي / المركز الجامعي - النعامة مقررأ
- أ. لخضر بلخير / جامعة الحاج لخضر - باتنة مناقشأ
- أ. بلقاسم دفة / جامعة الحاج لخضر - باتنة مناقشأ
- أ. أبو بكر حسيني / جامعة قاصدي مرباح - ورقلة مناقشأ
- د. يحي بوتردين / جامعة غرداية مناقشأ

السنة الجامعية : 2013 / 2014 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

"من أراد علم الأولين والآخريين فليثور القرآن"

الزركشي ؛ البرهان : 450/1.

إهداء

إلى روح والديّ الكريمين ، وفاءً وإحساناً ،

إلى النبيّ السّعيد السّفَر، ولأثر الأخرى أخي محمد، رحمةً وخفراً ،

إلى الزوجة الكريمة ، والولد العزيز ، أختي لارا وعرفانا ،

أهديّ قطاف سنواري فضيبتها في صحبة القراء ولغة القراء ، لأملاً

أنّ ينفعني الله ، ومن ذكرك ، ومن أحببني أو أحببته في الله ، بخير القراء

في هذه وثائق . والله يهدينا وإبائنا إلى سواء السبيل .

ورقلة في العاشر من صفر (نحر عام) 1435 هـ ، عبد الناصر منسري

شكر و عرفان

إني إذ أشكر الله تعالى أولاً وأخيراً أن وفقني بفضلته ومنه إلى إتمام هذا العمل أحبُّ أن أخصَّ بالذكر والشكر الأستاذ الدكتور أحمد جلايلي الذي يعود إليه الفضل كلُّ الفضل ؛ أولاً على قبوله تأطير هذا البحث والإشراف عليه ، وثانياً على ما قدّم من نصائح وتوجيهات علمية ومنهجية أفادتني كثيراً في إنجاز هذا البحث ، وثالثاً في إطلاقه يدي وعدم تكبيلها بما عُرِفَ عن بعض المشرفين من هيمنة تحدُّ من حرية الطالب ؛ ذلك أنني أحسب له تواضعه الجَمَّ وأخلاقه العالية ؛ إذ كانت بيني وبينه عشرةً علمية بدأت بمرحلة الماجستير تعليمًا وإشرافًا وأتمنى أن لا تنتهي بالدكتوراه، فله مني كلُّ التقدير والمحبة .

ومن بعد أستاذي المشرف أتوجّه صادقاً إلى الأساتذة الأفاضل الذين قبلوا القيام على تقويم هذا العمل بخالص الشكر والتقدير وأستسمحهم في ما أخذ من وقتهم الثمين ، وإني في الوقت الذي أعتذر لهم عمّا يمكن أن يكون في البحث من ضعف أسلوبٍ يؤذي أذواقهم الفنيّة ، أو تطاولٍ علميٍّ أو معرفيٍّ يُعزى إلى قلة التجربة أسألهم أن يُخلصوا في توجيه هذا العمل ويقوموا اعوجاجه بما حباهم الله من مُكنة علمية ومعرفية ولهم مني العهد بالسمع والالتزام ، والله يجزي المحسنين .

مقدمة

مقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ ،
وأصلي وأسلم على من أوتي جوامع الكلم ؛ فكان أفصح العرب والعجم ، وبعد ؛
فإنَّ البحث في كتاب الله لهوَّ مما يتشرَّف به كلُّ باحث ، ويتوقُّ إليه كلُّ طالب
علم ؛ إذ "أشرف أمّتي حملة القرآن " ؛ ولا حمل للقرآن كفهمة وإدراك مقاصده.
والحقيقة أنَّ معالجة النصِّ القرآني فيها من المتعة والفائدة بقدر ما فيها من
المطبّات والمحاذير ؛ أمّا المتعة والفائدة فتتجلى في الوقوف على إحكام النصِّ وما
فيه من بلاغة وإعجاز لا يتبدَّى للباحث إلا بعد طول النظر ومعاودة القراءة ؛
فيتساءل عن قيمة ما يفهم من القراءة العابرة إزاء ذلك ، ويتمنى لو صُرف في
فهم القرآن بعض ما صُرف في تلاوته واستظهاره لفعل التنزيل فعله في النفوس
، وأمّا المطبّات والمحاذير التي تحفُّ الخوض في النصِّ القرآني ففي مقدمتها
الخوف من الاجترار على كتاب الله والقول فيه بغير علم ، لأنَّ التصدي لفهم
القرآن يحتاج إلى جملة أدواتٍ وعلوم لا تكاد تجتمع إلا لقلّة قليلة ، وأين هي تلك
القلّة اليوم ؟ ومن منا يعدُّ نفسه من تلك القلّة ؟ ولكنَّ إبقاء النصِّ القرآني بعيدا
عن الدرس والتحليل بهذه الدعوى هو في ذاته مطبُّ آخر يطال القرآن نفسه
باستبعاده عن واقع الحياة الأدبية والعلمية ، ومن ثمَّ من مسرح الحياة كلّها ،
ويطال اللُّغة بشكل خاص ، لأنَّه يحرمها الإفادة من خصوبة لغة التنزيل وثرائها.
وبين إقدام محفوف بالمحاذير ، وإحجام أقلّ مساوئه الحرمان من معين القرآن
طال ترددي وانتظاري ، ولكن بعد طول تفكير ، وكثير استشارة استقرّ الرأي
على خوض هذه التجربة ، وأنا أدرك أنّي ارتقيتُ مرتقى صعبا عزمتُ على تذليله

بالاسترشاد بآراء المفسرين ؛ فلا أُصدر حكماً ، أو أرجح رأياً إلا وقد علمت فيه رأي المفسر قبل اللغوي .

وأنا لم أقدم على ما أقدمتُ عليه إلا لجملة أسباب أهمها :

- الميل الشخصي إلى الدراسات القرآنية ، وما أجده فيها من متعة لغوية وأدبية أعزوها إلى غياب العفوية في لغة التنزيل بما يضمن سلامة النتائج إن صحَّ المنهج ؛ حيث لا مكان للصدفة والاتفاق.

- حاجة المكتبة اللغوية ، في ما قرأت ، إلى مؤلف يجمع أشتات هذا الموضوع التي تناثرت بين كتب التفسير وعلوم القرآن ، و تصانيف الصِّرف والبلاغة ؛ إذ لم يُفرد بمؤلفٍ خاصٍ يُقدِّمه تقديمًا متكاملًا يجمع المعطيات اللسانية النظرية إلى واقع النصوص التفسيرية.

- طبيعة الموضوع " العدول الصرفي في القرآن " التي تفرض الاغتراف من علوم كثيرة ؛ كالتفسير ، والبلاغة ، والصوت ، والصرف ، وما جاءت به العلوم الحديثة كالأسلوبية ، والتداولية ، وغيرهما ، وقد رأيت في ذلك فرصةً عزيزةً لم أشأ تفويتها من أجل الاستفادة من هذه المشارب المختلفة ، ثم توظيفها في خدمة الموضوع.

- الرغبة في استكمال بحث الماجستير: "سورة الكهف - دراسة دلالية " الذي فتح لي شهيةً البحث في النص القرآني والدلالة بشكل عام ، فأحببت ، وقد أعطيتُ فرصةً أخرى ، أن أستغلَّ هذه السانحة في الإجابة عن بعض الأسئلة التي لم يُجب عنها بحث الماجستير (لأسباب موضوعية) وبقيت مطروحة عليَّ.

وقد انطلق البحث من الإشكالية التالية :

إذا كان المجاز ، بما هو تخطُّ لواقع المعجم ، وأصلِ الوضع ، هو العلامة الفارقة بين اللغة الفنية ولغة التواصل ، فهل يكون العدول الصرفيَّ - بوصفه واحداً من مظاهر حركية اللغة العائدة إلى اجتماعيتها - ترجمةً لطموح اللُّغة إلى كسر جمودِ الدلالة المائل في ارتهان المعنى بالقوالب الصرفية ، وفتحاً للبنية الواحدة على احتمالية المعنى بإيجاد هذه الحركية القائمة على تبادل الأدوار بين الصيغ الصرفية المختلفة للجذر الواحد ، وما يترتب عليه من خصوبة الدلالة وجمالية الإيقاع ، وتسويغ المعنى ؛ لذلك فإنَّ الدراسة تحاول محاكاة البلاغة ، في بحثها أسرار المجاز وأبعاده ، ببحث أسرار العدول الصرفي وغاياته متسائلين عن دوافع العدول في الأبنية الصرفية ، وعن آثاره المعنوية والجمالية ، وهل يقع هذا السلوك في اللغة لغاية بيانية فقط؟ ، أو لغاية فنية فقط؟ ، أم أنَّ وضع المتلقي وسياق الخطاب هما اللذان يفرضانه ؟ ، وكان واجبا أن نفرِّع عنها الإشكاليات الجزئية التالية:

ماهي أشكال العدول الصرفيِّ في الخطاب القرآني؟ ، وماهي غاياته الفنية والمعنوية؟ ، ثم ما هي أبعاده التداولية؟

فكانت الإجابة عن هذه الإشكاليات وفق الخطة التالية:

مقدمة : شرحتُ فيها وَجَاهَةً الموضوع وخطته ودوافع البحث فيه.

تمهيد : وضعت فيه "العدول الرفي" في مكانه من الدرس اللغوي بوصفه نوعاً من أنواع كثيرة للعدول تقع في جميع مستويات اللغة ، وفي مكانه من التواصل بشكل عام بوصفه دعوة للآخر وعلامة على التميّز.

مدخل : عرّفت فيه بالعدول الصرفي في اللغة والاصطلاح ، وعرضت جانباً من آراء القدامى والمحدثين فيه ، ثم ذكرت أهم غاياته وأبعاده.

الفصل الأول: عرضت فيه أنواع "العدول الصرفي" في ثلاثة مباحث ؛ تناول الأول العدول في الأبنية الاسميّة ، وتناول الثاني العدول في الأبنية الفعلية ، وبحث الثالث الحركة العدولية بين الأسماء والأفعال مكتفياً في كل ذلك بالذکر، أو الشرح الذي لا يتجاوز تبرير الحكم بوجود العدول تاركاً التحليل والتفصيل إلى الفصول اللاحقة .

الفصل الثاني: بحثت فيه الدلالة الإيقاعية للعدول الصرفي في ثلاثة مباحث ؛ خصّصتُ الأول للأثر الإيقاعي المحض ، والثاني للأثر الذي يجمع بين الإيقاع والمعنى ، والثالث لارتباط المعنى بإيقاع الفاصلة .

الفصل الثالث: جعلته للدلالة المعنوية للعدول الصرفي وعرضتها في ثلاثة مباحث ؛ تناول الأول الدلالة المعنوية للعدول في الأبنية الاسمية

، والثاني الدلالة المعنوية للعدول في الأبنية الفعلية ، والثالث
الدلالة المعنوية للعدول بين الأسماء والأفعال.

الفصل الرابع: رصدت فيه الأبعاد التداولية للظاهرة باعتبارها رافداً مكملاً
للأبعاد الدلالية ، وجعلته في ثلاثة مباحث بحسب طرفي
الخطاب وسياقه ؛ فخصّصتُ الأول للمخاطب ، والثاني للمتلقى
، والثالث لسياق الخطاب .

الخاتمة : لخصتُ فيها أهمّ الملاحظات و النتائج التي خلص إليها البحث
مرتبةً حسب الفصول والمباحث .

وقد اعتمدت في كل ذلك على المنهج الاستقرائي والمنهج المقارن
؛ الاستقراء بما قمتُ به من جهد شخصي في ملازمة المصحف
وتتبع مواطن العدول بما أسعفتني طاقتي المتواضعة وعلمي
المحدود ، وبما قمتُ به كذلك من استخراج أقوال المفسرين وعلماء
البلاغة من الكتب المتخصصة ، والمنهج المقارن بمقارنة اللفظ
الحاضر في النص ببدائه المفترضة ، والوقوف على ما بينهما من
مساحة دلالية ، أو فنيّة بالاستناد إلى أقوال المفسرين والبلاغيين ،
محاولاً في نهاية البحث تقديم مقارنة تداولية لآثار العدول الصرفي
التي تتجاوز دلالة العبارة إلى أطراف الخطاب وسياقه سعياً
لاستكمال أبعاد الظاهرة وتطوير امتداداتها وآثارها .

الدراسات السابقة :

أمّا القدامى فتناولوا الموضوع من زاوية المعنى في كتب التفسير على نحو ما نجد في "الكشاف" ، أو تفسير القرطبي، أو النسفي ، أو غير ذلك من التفاسير التي تستهدف المعنى أوّلاً وأخيراً ، وكذا في كتب البلاغة وعلوم القرآن ، كالذي في "دلائل الإعجاز" ، أو "البرهان" ، أو "الإتقان" ، أو غير ذلك من التآليف المتخصصة التي عرضت لبعض مباحث الموضوع كـ: "مشكل القرآن" ، و"مجاز القرآن" ، و"المذكر والمؤنث" للفراء ، ولابن التستري ...وكل ذلك من الوجهة المعنوية المحضة ، أمّا الوجهة الفنيّة فلا نكاد نقف لهم على كلام في الإيقاع أو المقطع ، أو غير ذلك من المفاهيم الصوتية ، أو تطبيقات لذلك على الخطاب القرآني إلا في القليل النادر ، أو هذه العبارة التي أطلقها السابق وكرّرها اللاحق ، وهي قولهم : "وقع كذا رعايةً للفاصلة" من غير شرح أو تفصيل.

وأما الدراسات الحديثة فقد عثرت بعد تسجيل الموضوع على رسالتين فيه ؛ الأولى بعنوان : "العدول الصرفي في القرآن الكريم - دراسة دلالية" للباحث هلال علي محمود الجحيشي ، وهي رسالة دكتوراه من جامعة الموصل بالعراق نوقشت سنة 2005م ، والثانية بعنوان: "العدول عن الأصول في الصرف العربي" للباحث مقلب عايد السالم وهي كذلك رسالة دكتوراه من جامعة اليرموك بالأردن نوقشت سنة 2006م ، ولكن عند تصفح الرسالتين وقراءتهما تبين لي أنّهما تناولتا الدلالة المعنوية فقط ، ولم تعرضا - لا من قريب ولا من بعيد - للأبعاد الفنيّة للظاهرة ، ولذلك فإنّ في هذه الدراسة ما ليس في الدراستين المذكورتين لاقتصارهما على الجانب المعنوي: في الظاهرة ، وتناولها للبعدين ؛ الإيقاعي والتداولي ، دون أن ننفي استفادتنا من الدراستين منهجياً ومعرفياً ، وقد أثبتنا ذلك في مكانه من البحث ، وكذلك رسالة ماجستير من جامعة اليرموك

للباحث رائد طافش بعنوان : "العدول الصرفيَّ السياقيَّ في القرآن الكريم" تناول فيها الباحث نوعين من العدول فقط هما العدول في الجنس والعدول في العدد .

أما البحوث المنشورة فقد أفدت كثيرا من مؤلَّف الأستاذ عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي " الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم " ، ومؤلَّف الأستاذ أحمد حسن طبل " أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية " ، وكذا " الإشارة النفسية في الخطاب القرآني " للأستاذ صالح ملاً عزيز ؛ وهي كتب صميمة في الموضوع إلا أنَّ كلاً منها تناول جانبا واحدا من الموضوع لم يجاوزه إلى غيره .

وقد جعلت تفسيري "الكشَّاف" ، و"التحرير و التتوير" - لما يمتازان به من تفصيل ومنحى لغويّ - عمادا للبحث في ما أصدرتُ من أحكام أو رجَّحتُ من آراء ، دون أنْ أغفل الإفادة من تفاسير أخرى ؛ كتفسير الطبري ، أو تفسير القرطبي ، أو النسفي ، أو الألويسي ، أو غير ذلك ممَّا تيسر لي الاطِّلاع عليه واستعنت به في فهم كثير من النماذج .

ولست أزعم لهذا العمل تماما أو براءة من النَّقص ، بل هو على العكس من ذلك تماما أفقرُ ما يكون بحثٌ إلى الإتمام و التصحيح ؛ إنَّه جُهد المقلِّ بين يدي الله أوَّلاً ، ثم بين يدي القارئ ثانيا ، وإذْ أسأل الله الكريم العارف بالنوايا والمقاصد المغفرة عمَّا فيه من زلل أو اجترأء - هو وحده العارف أني أبعدُ ما أكون عنه - أسأل القارئ المحترم التماس الأعذار والتغاضي عن الهنات حيث لا أمل عندي إلا أنْ يستغفرَ هذا البحثُ بحثا أخرى توفيَّ الموضوع حقَّه وتستدرك ما قصرتُ ؛ وما أكثر ما قصرتُ !!؟؟

تمهيد

ليس "العدول الصرفي" إلا نوعاً من أنواع العدول في اللغة ، وليس العدول في اللغة إلا مظهراً من مظاهر العدول في الحياة الإنسانية بشكل عام ؛ ذلك أن لكل سمّتٍ عدولاً ، لا يتخلف عن هذه القاعدة منحىً من مناحي الحياة ، ولا يشذ عنها مسارٌ من مساراتها ، سواءً أتعلق الأمر بأحد جوانب الحياة البشرية العامة؛ كالهئية واللباس ، والمأكل والمشرب ، والهندسة وال عمران ، وكل ما يتصل اتصالاً مباشراً ببيوميات الإنسان ، أم تعلق بقاعدة من قواعد العلاقات الإنسانية والاجتماعية في تعامل الإنسان مع غيره ؛ بيعاً وشراءً ، مصاهرة وزواجا ، تساكناً وجواراً ، أو غير ذلك ممّا يسمُّ حياة الإنسان بما هو كائن اجتماعي ؛ وليست اللغة إلا إحدى الظواهر الاجتماعية .

و العدول عن القاعدة بشكل عام ، سواء أكانت لغوية أم غير لغوية ، لا يكون إلا لطلب التميّزِ أملاً في الاستحواذ على قبول الآخر ورضاه ؛ ذلك أن الذي يعدل عمّا عليه الناس يقدّم في عدوله دعوةً ضمنيةً إلى الآخر مؤدّهاً أن الذي عندي يُغيّر ما عند الناس فهلاًّ أقبلت عليه ؟

وليست اجتماعية الإنسان إلا قبوله الآخر وقبول الآخر له ، لذلك فإنّ قبول الآخر هي الغاية التي يتسابق إليها الناس ، وتصطرع في سبيل إدراكها قواهم ، ويحشدون لها كل أسلحتهم ، ومنها - بل أوّلها - سلاح اللغة ، ولا رهان أشدّ على الإنسان من هذا الرّهان .

وإذا كان العدول في مُطْلَقِهِ سمةَ العمل المتميّزِ ، وكانت اللُّغةُ ترجمانَ الفكرِ
فإنَّ العدولَ في اللُّغةِ لا يكونُ إلا في النصوصِ المتميزةِ بلهَ النَّصِّ المعجزِ .

ثم إذا كان علم الصرف مقدّمًا على علوم اللغة الأخرى باعتباره يبحث في ذات
الكلمة التي تُعد محور الدلالة كُلِّها من حيث إنَّ الدَّلالةَ في مجملها تقوم على
الدَّليل اللساني - أي الكلمة - سواء في معناه المفرد ، أم في علاقاته الداخلية
ببأقي الأدلة التي تجاوره في السلسلة الكلامية ، أم في علاقاته الخارجية المتصلة
بمستعملي اللغة ، والسياقات المختلفة التي تنتظمهم ، فإنَّه من مجموع ذلك يستمدُّ
" العدول الصرفي " أهميَّتهُ ويُقدِّمُ موضوعاً ثرّاً للبحث الدلالي بما هو الوجه الآخر
للنصوص البليغة .

مدخل

ينطلق البحث في "العدول" من كونه معيار الفنية وميسم الإبداع في اللغة ،
وَالأَّ إبداع في اللغة ما لم يُعدل بها عن مستواها التواصلي إذ إنَّ أدبيَّتها في إطلاق
إسارها من القوالب الجاهزة ، وفنَّيتها في بينونتها من الثابت المألوف بالمغامرة في
أفق الجديد الذي يأبى الثبات على حال ، والنَّفْسُ >> شيمتُها الضجرُ ممَّا يتردد
والولع بما يتجدد <<¹ .

ثم إنَّ الجديد في بادئ أمره يسمُّه الغموض الَّذي فضلا عن كونه مَلَمحا فنِّيًّا في
ذاته فإنَّه ممَّا يُسهِم في تثبيت الرسالة في ذهن المتلقي لأنَّه >> من المركز في
الطبع أنَّ الشَّيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان
نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلَّ وأطفَّ وكانت به أضن
وأشغف <<² ، و فنِّيَّة اللغة الأدبية ليست في عدولها عن مستوى التواصل حسب
، ولكن في عدولها عن ذاتها لأنَّ تفرُّد النص لا يتأتَّى إلا بتجاوز نص آخر ، ومن
ثمَّ فإنَّ فنِّيَّته إنَّما تكون بإلغاء فنِّيَّة نص آخر بعد الإفادة منها ، الأمر الذي يجعل
اللغة في حركية دائبة وتخلُّق مستمرٍّ، وما كان التاريخ ليخلد النصوص التي

¹ - حازم القرطاجني؛ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح محمد الحبيب بن الخوجة دار الكتب الشرقية ،
تونس ، 1966 ، ص 61 .

² - عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ، تح محمد رشيد رضا ، مطبعة محمد علي ، ط6،
مصر، 1959، ص138 .

حفظها لو كانت نُسَخًا متشابهة ، وما كانت الجماهير لتعجب بالشاعر أو الخطيب لو لم يأت في كلامه بـ " مَا لَمْ تَقْلُهُ الْأَوَائِلُ".

والعربي الذي كتب المعلقات بماء الذهب وعلقها في جوف الكعبة إعجابا بها وإعلاءً لشأنها هو نفسه الذي قال حين سمع القرآن يُتلى >> والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يُعلَى عليه <<¹.

وإذا كان قد صدر في فعله بالمعلقات عن الإعجاب الشديد الذي مأتاه تميز هذه النصوص بعدولها عن مألوف الشعر بشكلٍ ما فإنه قد صدر في حكمه عن القرآن كذلك عن الإعجاب الذي بلغ حدَّ الإعجاز والتبكييت ؛ ذلك أنه موغلٌ في العدول شكلاً ومضموناً ، بل إنه عدول مطلق عن كل الأشكال التي عرفوها والأنماط التي ألفوها ، وفي المحصلة هو عدول عن مألوف لغتهم ومتعارف آدابهم على الرغم من أنه بالمفردات التي يعرفون ، وإذا كانوا يُعجبون بالبديع من أقوال الشعراء والخطباء لما فيه من جمالٍ أساسه العدول عن مألوف اللغة أفلاً يأسرهم هذا العدول المزدوج في لغة القرآن التي لم تتجاوز مستوى التواصل حسب ، بل عدلت عن لغة الشعر نفسه لتستقر في المستوى الإعجازي ؟ ومن ثمَّ فإنه >> إذا جاز اعتبار الشعر في عمومهِ انزياحاً عن لغة الحديث فإنَّ القرآن انزياح عن الانزياح <<².

¹ - أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ؛ المستدرک علی الصحیحین تح عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة ، بیروت ، ط1 ، 1411هـ - 1990م ، ص 550/2 ، وينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ،

تفسير القرطبي، تح أحمد عبد العليم اليردوني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط2، 1372هـ - 151/17 .

² - محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقدي والبلاغي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2002، ص 69.

وإذ تبيّن أنّ العدول هو معيار فنية اللغة فإنّ السؤال المنطقي هو عمّ يكون العدول؟ لأنه >> كما لا نتصور الكبير إلا في طباق مع الصغير فكذلك لا نتصور انزياحا إلا عن شيء ما ، وهذا المسبار الأصلي الذي يقع عنه الخروج وإليه يُنسب الانزياح هو في ذاته متصور نسبيّ تذبذب الفكر اللساني في تحديده وبلورة مصطلحه ، فكلّ يسميه من ركن منظور خاص به وقد اصطالحنا عليه بالاستعمال النفعي للظاهرة اللسانية>>¹.

وليس "الاستعمال النفعي" باصطلاح المسديّ إلاّ تلك الصورة النمطية لفنّ القول التي كان على المتحدث أن يُخرج خطابه وفقها أو ما يُعرف عند القدامى بالأصل >> الذي يتعرّف بأنه المعنى الأول الذي تؤول إليه كل صورة >>² .

أمّا >> الأصل الصرفي فهو المعنى الأوّل الذي تحمله الصيغة الصرفية على نحو كون صيغة اسم الفاعل الدالة على من قام بالفعل أصل صيغ المبالغة فتكون صيغ المبالغة معدولة عن اسم الفاعل>>³

والأصلُ ألاّ يُخبر بالماضي عن المستقبل ، ولا يسند المذكر إلى المؤنث ، ولا المؤنث إلى المذكر ، ولا يوصف المفرد بالجمع ، ولا غير ذلك من أشكال العدول التي سنتبينها لاحقا لأنّ المطابقة بين عناصر الجملة شرط في تأدية الكلام⁴.

¹ - عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ودار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ط5 ، 2006 ص78.

² - منى إلياس ؛ القياس في النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ط1 ، 1985 ، ص 32.

³ - هلال علي محمود الجحيشي ؛ العدول الصرفي في القرآن الكريم - دراسة دلالية - ، رسالة دكتوراه جامعة الموصل العراق ، 2005 ، ص: 16 .

⁴ - ينظر: تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط2 ، 2000م ، 1/235.

وقد اعتنى النحاة والبلاغيون في القرون الأولى للثقافة العربية بتحديد الصور النمطية المفترضة لفنّ القول¹ ، وحدّدوا الأصول فـ >> سمّوا أصلَ الحرف ، وأصلَ الكلمة ، وأصلَ الجملة باسم واحد هو أصل الوضع <<² ؛ فالاسم أصله أن يكون مفرداً مذكراً نكرة ، والأصل في الفعل أن يكون ثلاثياً مجرداً صحيحاً مبنياً متصرفاً³ .

وإذا كان الأصل في المتحدّث أن يبني خطابه وفق نواميس اللغة وقواعدها فإنّ الحاجة البيانية ، أو الفنية تلجّؤه إلى التخلي عن النمط وترك السنن ؛ فيجد في الفروع مندوحته ومنتهى غايته ، وهي - أيّ الفروع - وإن كانت تنحط دائماً عن درجة الأصول⁴ فإنّ هذا الانحطاط معتبرٌ بالقياس إلى الأصول التي يعاد إليها ويشق منها لا باعتبار الفنية والبيان ، لأنّه لا يُعدل عن الأصل إلى الفرع إلاّ عند أمن اللبس⁵ ، والفنيّة إنّما تكون في الفروع لأنها تعكس قدرة المتكلم على التصرف في اللغة و تطويعها إلى حاجته البيانية والفنية.

وعلى الرّغم من أنّ البيان هو الغاية الأولى للغة فإنّه مرهون بفنيّتها لما لمفهوم الفنية من تأثير على المتلقي إذ >> الانحراف حيلة مقصودة لجذب القارئ <<⁶ ، كما أنّ >> الأسلوب سهم يرافق الفكرة ويخز متقبلها <<⁷ ، و النصّ القرآني

¹ - ينظر: سيد خضر؛ فواصل الآيات القرآنية - دراسة بلاغية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 2 ص110.

² - تمام حسان ؛ الأصول - دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب - ، عالم الكتب ، القاهرة ،

2000م ، ص 108.

³ - نفسه : ص 119.

⁴ - نفسه : ص 137.

⁵ - نفسه : ص 122.

⁶ - عياد شكري ؛ اللغة والإبداع - مبادئ علم الأسلوب العربي - ، ط انترناشيونال ، القاهرة ، 1988 م ،

ص 79.

⁷ - عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية و الأسلوب ، ص 65.

مدخل

طافح بالشواهد على هذه الفكرة و ما ذاك - في تقديرنا - إلا لاختلاف المتلقين وما بينهم من فروق توجب اعتماد الجوانب الفنية - ومنها العدول - مداخل متنوعة لتقديم الحقائق الكونية والعقدية .

فالناظر في النص القرآني يُمكنه أن يدرك في سهولة فائقة ما بين الخطاب المكي والخطاب المدني - مثلاً - من فوارق أسلوبية أوجبها الاختلاف بين المجتمعين ؛ ذلك أن المدنية التي كان عليها ساكن المدينة أوجدت في لغته قدرًا من الرقة والتعطف لم يغفل الخطاب القرآني مراعتها ، بل وظفها في تبليغ مضامين الرسالة ، وبالمقابل كان من الحكمة أن يكون في خطاب أهل مكة بعض ما في طباعهم من غلظة وشدة كانت مثار اعتراضهم ومناط فخارهم ، فضلا عن الاعتبار الزمني لنزول القرآن ، ذلك أن القرآن المكي وبخاصة في بداية البعثة كان يهدف إلى اجتثاث العقيدة الفاسدة وتوجيه الناس إلى دين التوحيد ؛ وهي قضية لا تحتل الوساطية والمداراة ، أو الملاطفة و الممالة ، فكانت اللغة في حاجة إلى شدة وصرامة ، أما القرآن المدني الذي اهتم بالتشريع لمن صحّت عقيدتهم فإن لغته كان فيها من اللين والرفق ما في التشريع من سماحة وسعة تراعي ظروف الناس وأحوالهم ؛ إذ الطهارة منها المائية والترابية ، والصلاة لها أوجه وكيفيات تراعي حال المسافر والمريض ، والحج على من استطاع ، و الزكاة في ما جاوز النصاب ، والحال كذلك في المعاملات من بيع وشراء وعقود...إلخ .

كل ذلك وسعته اللغة فكانت لينة مطواعة بعدما كانت بالحدة التي كانت عليها، ولا نحسب أن ناقدا فقه لسان العرب يخذله ذوقه في التمييز بين ما في الشعر الجاهلي من جساءة وشدة ، وما طرأ عليه في صدر الإسلام من مرونة ورقة ،

وما ذلك إلا لما طرأ على المجتمع من تغيّر وتمدّن ؛ وهل اللغة إلا ترجمان الفكر؟

وإذا كنا لا نتفق تماماً مع من عدّ الجانب الفنيّ هو المقصد الأول للقرآن الكريم¹ فإننا لا نختلف في أنّ >> إدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني <<² ومن ثم كان بحث الجوانب الفنية في القرآن غايةً علميةً ودينيةً في آن.

ولمّا كانت الجوانب الفنية في اللغة بشكل عام ، وفي القرآن بشكل خاص متعددة لا تقع تحت حصر ، وكان موضوع العدول كذلك شاملاً لكلّ مستويات اللغة فإنّ البحث يستهدف دراسة نوع واحد هو **العدول الصرفي** من حيث أنماطه المتعددة وغاياته المختلفة ، وتوطئةً لذلك هذا تعريف بالمفاهيم الأساسية في البحث.

أولاً / مفهوم العدول:

لغة: عدل عن الشيء يعدل عدلاً وعدُولاً : حاد ، و عن الطريق جارٍ ، و عدل إليه عدولاً : رجع ، وفي الحديث : "لا تعدل سارحتكم" أي لا تصرف ماشيتكم ، والعدل أن تعدل الشيء عن وجهه ، و عدل عنه يعدل عدولاً إذا مال كأنه يميل عن الواحد إلى الآخر، قال المرار: فلماً أن صُدمت وكان أمري قويمًا لا يميل به العدول³ .

ونقرأ في استعمال العربيّ لفظ "العدول" حركةً ذهنيةً بين معنى معدولٍ عنه ، وآخر معدولٍ إليه تتحدد بقريظة حرف الجر الذي يميّز المتروك بالحرف "عن" والمطلوب بالحرف "إلى" ، وقبل المفاضلة بين المتروك والمطلوب - التي هي

¹ - ينظر: نصر حامد أبو زيد ؛ مفهوم النص _ دراسة في علوم القرآن - ، المركز الثقافي العربي ، 1987، ص10.

² - سيد قطب ؛ التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، د.ت ، ص 117 ، 118.

³ - ابن منظور؛ لسان العرب: ع. د. ل ، والفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط: ع. د. ل.

عماد البحث - نحبُّ الإلماعَ - ابتداءً - إلى أن هذه الحركة نفسها هي دليل على حيرة المتكلم في أيِّ اللفظين يفِي بحاجة الخطاب ، وأنَّ إخراج المعنى في صورة العدول هي المرحلة الأخيرة من مخاضٍ عسير ينتهي به اصطراع الأصل والفرع في ذهن الذات المبدعة ، لتكون الغلبة للمتغيّر الفني (مُمثلاً في الفرع المعدول إليه) على الثابت (مُمثلاً في الأصل المعدول عنه) بما يُبين عن جرأة المبدع وعدم ركونه للجاهز المألوف ، كلُّ ذلك إشراكاً للمتلقّي كي يكون فاعلاً في حلقة الخطاب من خلال ردّه كلّ فرعٍ إلى صورته النمطية التي كان يجب أن يكون عليها ، ومن ثم فإنَّ فنيّة العدول تتحدّد تداولياً كما تتحدّد بلاغياً.

اصطلاحاً:

ابتداءً تجدر الإشارة إلى أنّ العدول الذي نقصده ليس هو "العدل" عند اللغويين القدامي الذي عرفه الجرجاني بقوله: >> العدل في اصطلاح النحويين خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى <<¹ ، لأنّ العدول الذي نبحثه هنا أعمُّ من ذلك وأشمل ؛ لأنّه يتجاوز البحث في صيغة اللفظ إلى العدد ، والجنس ، والزمن ، والاسمية والفعلية ، وغير ذلك ممّا سنذكر في الفصل الموالي .

وقد حظي مفهوم العدول عن الأصل باهتمام كبيرٍ جدًّا لدى البلاغيين والنقاد ويكاد إجماعهم ينعقد على محوريته في العمل الإبداعي مطلقاً إلى الحد الذي يجعل >> الانزياح فيصل ما بين الكلام الفني وغير الفني <<².

¹ - الشريف الجرجاني ؛ التعريفات ، تح ، إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العلمي ، بيروت ، ط1 ، 1405 هـ ، 191/1 .

² - محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقد البلاغي ، ص 5.

وقبل المضي في بسط الكلام عن مفهوم "العدول" تجدر الإشارة إلى أنّ مصطلح "العدول" هو اختيار ارتضاه الباحث بديلاً عن الانزياح أو الانحراف أشهر المصطلحات الدالة على هذا المفهوم¹.

و >> قد ترجم المسدي المصطلح الغربي: (ECART) بالانزياح أو التجاوز الذي يعني الخروج عن الأصل ، ثم قال مستدركا يمكن أن نحیی له لفظة عربية هي العدول <<² ؛ و من ثمّ كان الرأی - والبحث في القرآن كتاب العربية الأوّل - أن نستعمل المصطلح العربي "العدول" خصوصاً و أنه >> أقوى المصطلحات القديمة تعبيراً عن مفهوم الانزياح <<³.

ثم إنّ الاختيار يستند إلى الدلالة الصرفية ذاتها ذلك أنّ صيغة "انفعل" التي عليها مصطلح "الانزياح" ، أو "الانحراف" ، أو "الانكسار" بدلالاتها على المطاوعة ترهن اختيار المبدع بقابلية البناء اللغوي للعدول به أو إزاحته ، وهو قيد يسعى مستعمل اللغة إلى التخلص منه ، شأنه شأن كل قيود اللغة التي لا يكون المبدع مبدعاً إلا بترويضه كل شكل من أشكال سلطتها ، كما أنّ الفاعل في "انزاح" هو النصّ نفسه أمّا في "عدّل" فإنّه المتكلم أي أنّ الفاعل في مصطلح "العدول" هو المتكلم لا النصّ فيكون الأبلغ والأدقّ لتضمّنه دلالة القصدية .

¹ - من المصطلحات التي تعبّر عن مفهوم العدول : الانزياح ، التجاوز ، الانحراف ، الاختلال ، الإطاحة ، المخالفة ، الشناعة ، الانتهاك ، خرق السنن ، العصيان ، التحريف ، الانكسار ، الإزاحة ، الانزلاق ، الاختراق ، التناقض ، المفارقة ، التنافر ، مزج الأضداد ، الاختلال ، الانحناء ، التغريب ، الاستطراد ، الاختلاف ، فجوة التوتر ، الجسارة اللغوية ، الغرابة ، الابتكار ، الخلق ، ينظر: عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب ، ص:80 ، وأحمد محمد ويس ؛ الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، ص 32 ، 33 .

² - هلال علي محمود الجحيشي ، العدول الصرفي في القرآن الكريم - دراسة دلالية ، ص 11 .

³ - أحمد محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقدي و البلاغي ، ص 38 ، وينظر : صلاح فضل ؛ بلاغة الخطاب و علم النص ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 ص 63 ، وينظر : حسن منديل حسن العكيلي ؛ الإعجاز القرآني في أسلوب العدول ، دار الكتب العلمية ط1 ، بيروت ، 2009م ، ص 09 .

و قد اختار المسدّي مصطلح الانزياح فيما اختار صلاح فضل في أغلب كتاباته مصطلح الانحراف¹ ، وسمّى سيد خضر في كتابه " فواصل الآيات القرآنية" العدول "إحلالاً" وعقد لذلك مبحثاً سماه "الإحلال في الفواصل"² .

وإذا كانت العرب تعتبر تعدد الأسماء دليلاً على شرف المسمّى فإنّ هذا مما يؤكد أصالة العدول في أدبية اللغة ويؤسّس للبحث فيه.

وانطلاقاً من أنّ هذه المصطلحات تقع موقع الترادف من مصطلح "العدول" وأنّه لا مشاحة في المصطلح فإنّ تعريف أيّ منها هو تعريف له.

يرى الدكتور تمام حسّان أنّ العدول هو >> خروج عن أصل أو مخالفة لقاعدة ولكن هذا الخروج وتلك المخالفة اكتسبا في الاستعمال الأسلوبي قدرّاً من الاطراد رقى بهما إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليها <<³ .

وعرّفه تودوروف بأنّه: >> لحنٌ مبرّرٌ ما كان ليوجد لو أنّ اللغة الأدبية كانت تطبيقاً كلياً للأشكال النحوية الأولى<<⁴ ، وكيف تكون كذلك وأدبيّتها في انحرافها عن قانون اللغة المعيارية وخرقها له⁵ ، واعتبره ريفاتير انزياحاً عن النمط

1- ينظر أحمد محمد ويس ؛ الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ط1 2005 ، ص 33 .

2- ينظر: سيد خضر؛ فواصل الآيات القرآنية ، دراسة بلاغية دلالية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ط 2 ، 2009 م ، ص 110.

3- تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، 77/2.

4 - عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب : ص 82.

5 - ينظر: موكاروفسكي ؛ اللغة المعيارية واللغة الشعرية ، تر إفت كمال الروبي ، مجلة فصول ، مج 5 ، ع 1985م ، ص 41.

التعبيري المتواضع عليه ؛ تارة بخرق القاعدة ، وأخرى باللجوء إلى النادر من الصيغ¹.

ونجد للعدول في الموروث البلاغي مرادفات أخرى كـ: "الصرف" و"الالتفات" ؛ قال ابن المعتز في "الصرف" : هو >> انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك <<² ، وأمّا الالتفات >> فمعناه في مصطلح علماء البلاغة العدول عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول وهو أحسن من قولنا هو العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة لأنّ الأول يعمُّ سائر الالتفاتات ، والحد الثاني إنّما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير ، ولاشك أنّ الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع وقد يكون عكس ذلك <<³ .

وفي قوله: "معناه في مصطلح علماء البلاغة هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر" إصرach بالترادف بين "الالتفات" و"العدول" ، ومن ثمّ فإنّ مسوغات الالتفات هي نفسها مسوغات العدول وهو ما يعلل حديث ابن الأثير عن العدول تحت مصطلح الالتفات⁴ .

هذا عن العدول بشكل عام أما العدول الصرفي فإنّه يتحدد أولاً بتعريف الصرف الذي هو >> علم بأصول تُعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست

¹ - ينظر: عبد السلام المسدي؛ الأسلوبية والأسلوب ، ص 82.

² - ابن المعتز، البديع، دار الحكمة، دمشق، د.ط. ، د.ت ، ص58.

³ - يحيى بن حمزة العلوي ؛ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، تح محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1995 ص118 .

⁴ - ينظر: ابن الأثير؛ المثل السائر، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ط.

، 1995 م ، 3/2.

بإعراب ولا بناء <<¹ ، أو >> تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلاّ بها <<²، وفائدته >> حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى واحد ؛ فالعلم به أهمّ من معرفة النحو في تعرف اللغة لأنّ التصريف نظر في ذات الكلمة والنحو نظر في عوارضها <<³ ، وهو من الأهمية بحيث إنّ >> من فاته علمه فاته المعظم <<⁴.

ولأهمية التصريف أفرد له الأوائل مصنفات كثيرة منها:

كتاب التصريف لابن كيسان (ت 120 هـ) ، وكتاب التصريف للمكتملي (ت 125 هـ) ، وكتاب التصريف للمازني (ت 248 هـ) وهو أول كتاب في الصرف البحث ، وكتاب التصريف لعلي بن الأحمر الكوفي (ت 194 هـ) ، والمنصف ، والملوكي في التصريف لابن جني (ت 392 هـ) ، والممتع في التصريف لابن عصفور الاشبيلي (629 هـ) ، وتصريف العزّي لعزالدين أبي المعالي الخزرجي الزنجاني (ت 655 هـ)...

ولمّا كان موضوع علم الصرف هو المفردات ، وبالذات الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة فإنّ مفهوم "العدول الصرفي" يتحدد بغياب التطابق بين هذه المفردات في الخطاب: كالاختلاف في الجنس ، أو العدد ، أو الزمن ؛ ومنه فإنّ كلّ ما يبدو من مفارقة بين أجزاء الكلام ؛ كإسناد الفعل المؤنث إلى الفاعل

1- جمال الدين أبو عثمان الدويني؛ الشافية، تح حسن أحمد العثمان، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1، 1995، 6/1.

2 - عز الدين أبو المعالي الخزرجي الزنجاني ؛ شرح مختصر التصريف العزّي في فن الصرف للتفتزاني ، تح عبد العال سالم مكرم ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط8 ، 1417هـ - 1997 م ، ص25 .

3- أبو البقاء محب الدين عبد الله ؛ اللباب في علل البناء والإعراب ، تح غازي مختار طليمات ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1995 ، 219/2.

4- جلال الدين السيوطي؛ المزهري، تح فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، 260/1.

المذكّر، أو الإخبار عن المستقبل بالماضي ، أو خطاب الواحد بلفظ الجماعة ، أو الجماعة بلفظ الواحد ، أو نحو ذلك ممّا سنفصّل فيه يدخل تحت مفهوم العدول الصرفي.

وحتى نُمكّن لفكرة العدول نرى أنّه من المنهجية أن نُوصّلها أوّلاً في التراث العربي نقداً وبلاغةً ، ثم نعرض لها عند المحدثين من العرب والغربيين.

أوّلاً / العدول عند القدامى:

حظي مفهوم العدول باهتمام كبير عند كل من البلاغيين والنقاد وتناولوه تحت مصطلحات كثيرة¹ ؛ قال ابن الأثير: >> اعلم أيها المتوسّح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه في كلامه إلاّ العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما وفتّش عن دخائلهما ، ولا تجد ذلك في كلّ كلام فإنّه من أشكال ضروب علم البيان وأدقّها فهماً ، وأغمضها طريقاً <<² ، وهو كلام فيه أكثر من فكرة ؛ أمّا الأولى فإنّها الإشارة إلى أنّ موضوع العدول الصرفي تتعاوره أربعة علوم على الأقل هي: علم الصرف ؛ لأنّ العدول يكون بين المفردات ، وهي موضوع علم الصرف ، وعلم البلاغة لصريح قوله بأنّه "من أشكال ضروب علم البيان" ، والأسلوبية وهو ما يفهم من قوله "لا يتوخاه في كلامه

¹ - ينظر: سيبويه ؛ الكتاب، تح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1408 هـ ، 110/1 ، ابن يعيش ؛ شرح المفصل ، عالم الكتب ، بيروت ومكتبة المتنبّي ، القاهرة ، 55/5 ، الأستريادي ؛ شرح الشافية ، تح ، محمد الحسن ورفاقه ، دار الكتب العلمية بيروت 1395 هـ - 1975م ، 176/1 ، أبو هلال العسكري؛ الفروق ، تح لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة بيروت ، ص 190 ، الخطيب القزويني ؛ الإيضاح في علوم البلاغة ، تح محمد عبد المنعم خفاجي ، ط3 ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، 1391 هـ - 1971م ، ص 159 ، ابن الأثير، المثل السائر، 274/1.

2 - ابن الأثير ؛ المثل السائر ، 12/2.

إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما" لأن المعرفة برموز الفصاحة والبلاغة والاطلاع على أسرارهما مما يتفاضل فيه الناس فيتصف كل كلام بما ليس في الآخر من خصائص أسلوبية ، والتداولية ؛ لأن العدول ارتباطا بما يخدم التواصل كحفظ مقامات المخاطبين ، أو تحديد عتبة الخطاب ، أو نحو ذلك مما يتصل بالجوانب التداولية للغة ، وأما الثانية فتظهر في تبرير العدول الذي "لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك" أي أنه ليس أمرا عفويا بل فيه من القصدية ما يوجب البحث في غاياته ومراميه المتنوعة ؛ وهي القضية التي حمل البحث همها واستهدف بيانها ، وأما الثالثة فهي اعتراف ابن الأثير بأن العدول "من أشكل المسائل وأدقها وأعمقها" ، وهو كلام يوثق الصلة بين موضوع العدول وطبيعة اللغة الإبداعية التي تتأبى على الانقياد وتستعصي على الاطراد مما يُغري بالبحث في ظاهرة العدول التي تغدو أبرز معالم الفنية والجمال في اللغة.

ونكره الزمخشري عند حديثه عن الكناية فقال: >> والذي دعاهم إلى الكناية الإجلال عن التصريح بالاسم ونظيره العدول عن فعل إلى فعل في مثل قوله تعالى: " وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ " <<¹ .

وممن تحدث عن العدول وإن لم يسمه باسمه ابن قتيبة في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه إذ قال: >> ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على

¹ - السيوطي؛ المزهر ، 1/273.

لفظ الغائب كقوله تعالى "حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَّبَنَ بِهِمْ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ
وَفَرِحُوا بِهَا" <<¹.

وإدراج ابن قتيبة فكرة العدول تحت موضوع مخالفة ظاهر اللفظ معناه يتوافق تماماً مع مكنم الفنية في العدول لأنّ الدلالة في خطاب المفارقة تتبني على علاقة التضاد بين الدلالة الحرفية الأولى للمنطوق والدلالة المحوَّلة² وذلك من خلال مفاجأة المتلقي بالتناقض البادي في البنية السطحية للخطاب وهو أمرٌ يوقظ فيه الانتباه فيجعله ينتقى المعنى وهو في كامل الاستعداد.

واستعمل أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) مصطلح العدول في كلامه عن الفرق بين صيغتي "رحيم" و"رَحْمَن" فقال: >> إنَّ "الرحيم" مبالغة لعدوله وإنَّ "الرحمن" أشد مبالغة لأنه أشد عدولاً <<³.

ونرى أنّ أبا هلال قد أثار قضية أخرى هي نسبيّة العدول وتفاضله ، وهي فكرة يؤكدها أحدُ المحدثين بقوله: >> كلما كان الانزياح أو الانحراف بعيداً كان أعلى بلاغة وأكثر عاطفة وإثارة وإبداعاً فنياً <<⁴ ، لأنّ الإغراب في العدول يعكس مستوى عالياً يتوقعه المتكلم في المتلقي ، وهو تناسب يطرد بين طرفي الخطاب إذ إنّ إيغال المتكلم في العدول يوجب مكنةً أكبر في فكّ دلالة الخطاب ، وتجاوز الرماني إلى الغاية من العدول فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ

¹ - ابن قتيبة ؛ تأويل مشكل القرآن، تح أحمد صقر، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1954 ، ص 175 .

² - ينظر: محمد العبد؛ المفارقة القرآنية ، مكتبة الآداب ، القاهرة، 2006، ص 55.

³ - أبو هلال العسكري؛ الفروق، تح أحمد سليم الحمصي، جروس برس، لبنان ط1 ، 1994، ص 215 .

⁴ - حسن منديل العكيلي؛ الإعجاز القرآني في أسلوب العدول ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 2009، ص 158.

لَمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ طه 82 >> "غفار" معدول
عن "غافر" للمبالغة >>¹.

ورأى الزمخشري أنّ >> الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن
تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد >>² .
كلُّ هذه النصوص تؤكد أصالة موضوع "العدول الصرفي" ، وأنّه معروف
لدى القدماء إلاّ أنهم لم يفرده بالدراسة ، وإنّما تناولوه تارة تحت المباحث
الصرفية ، وأخرى في ثنايا علوم البلاغة ، ممّا جعل الحاجة تمسُّ إلى جمع
مباحثه في مؤلّف واحد يمكن من الوقوف على أهمّ دلالته ، وذلك بالإفادة من
معطيات العلوم الحديثة ؛ كالأسلوبية ، والتداولية.

ثانياً/العدول الصرفي عند المحدثين:

يستمدّ العدول الصرفي أهميته عند المحدثين من أهمية علم الأسلوب الذي يُعدّ
امتداداً لعلم البلاغة - على اختلافهما المنهجيّ - ؛ ذلك أنّ المحدثين - عرباً
وغربيين - تناولوا العدول بشكل عام ، والعدول الصرفي بشكل خاص في مباحث
علم الأسلوب وذلك باعتبار العدول خصيصة أسلوبية تميز نصّاً عن آخر ، وكاتباً
عن كاتب ، ولا أدلّ على عظيم اهتمامهم بالعدول من تعدد المصطلحات الدالّة
عليه³.

¹- الرماني؛ النكت في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، ط 3، دار المعارف،
مصر، 1976 ، ص104.

²-الزمخشري؛ الكشاف 19/1 -20 .

³- ينظر: ص 07 من هذا البحث.

ولمّا كانت الأشكال اللغوية صوراً للفكر¹ وكان الفكر متعددًا متنوعًا كان من الطبيعي أن تتعدد صور العدول ومن ثم تتباين الأساليب والنصوص على الرغم من اتحادها في كونها معدولا بها عن الأصل.

يرى موكاروفسكي أنّ السمة التي تميز اللغة الشعرية من اللغة المعيارية هي << انحرافها عن قانون اللغة المعيارية وخرقها له >>² إذ إنّ << انتهاك قانون اللغة المعيارية الانتهاك المنتظم هو الذي يجعل الاستخدام الشعري للغة ممكنًا ، ومن دون هذا الإمكان لا يوجد الشعر، وكلما كان قانون اللغة المعيارية أكثر ثباتًا في لغة ما كان انتهاكه أكثر تنوعًا ، ومن ثم كثرت إمكانات الشعر في تلك اللغة >>³ .

ونحن إذا عدنا إلى واقع اللغة العربية وبخاصة مرحلة الجمع والرواية واستحضرنا الشروط التي اشترطها اللغويون في النصوص المحتجّ بها ؛ من تحديد تاريخي ، وجغرافي ، ونصّ على القبائل التي تؤخذ عنها اللغة والتي لا تؤخذ عنها ، ثم استحضرنا المنهج المعياري الذي كتبت وفقه كل علوم اللغة العربية ، وليس المنهج المعياري إلا امتدادًا للنقد الشفوي الانطباعي السابق لمرحلة الجمع والتدوين ، أدركنا سبب الغناء الشعري في اللغة العربية.

ويرى تودوروف أنّ << الانزياح لحن مبرر ما كان ليوجد لو أنّ اللغة الإبداعية كانت تطبيقًا كليًا للأشكال النحوية الأولى >>⁴.

¹ - ينظر: شكري محمد عياد؛ اللغة والإبداع ، ص8.

² - اللغة المعيارية واللغة الشعرية ، ترجمة إفت كمال الروبي، مجلة فصول مج 5، 1985 ص 41، 42.

³ - نفسه : ص42.

⁴ - عبد السلام المسدي ، الأسلوبية والأسلوب ، ص 82

أمّا رأيُ ريفاتير بأنَّ << الانحراف حيلة مقصودة لجذب القارئ >>¹ فهو كلام يتصل بالتداولية بسبب ، وبعلم الأسلوب بسبب آخر؛ يعضده تعريف فلوبر للأسلوب بأنه : << سهم يرافق الفكرة ويخزُّ متقبلها >>² ، وهذا يعني أنّ العدول أداة بيانية وآلية تواصلية غايتها حفز المتلقي وتهيئته لتلقي الفكرة ، وهو توصيف يجعلنا نصنّفه ضمن الأدوات التي تحقق الوظيفة الانتباهية للغة.

ومن اللغويين العرب يُعدُّ << الدكتور تمام حسّان أكثر المعاصرين عناية بظاهرة العدول >>³ ؛ حيث اعتبر العدول الأسلوبي << خروجًا عن أصل ، أو مخالفة لقاعدة ، ولكن هذا الخروج وتلك المخالفة اكتسبا في الاستعمال الأسلوبي قدرًا من الاطراد رقى بهما إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليها >>⁴ ؛ إلا أنّ

ثمة من لا يرى في العدول الاطراد الذي تحدث عنه تمام حسان بل هو في نظره << ضرب من الاصطلاح يقوم بين الباثِّ والمتقبل ولكنه لا يطرد...وبذلك يتميز من اصطلاح المواصفات اللغوية الأولى ؛ فهو إذن تواضع جديد لا يفضي إلى عقد بين المتخاطبين >>⁵ .

فالعدول - إذن - وبوصفه تواضعًا جديدًا هو دعوة المتلقي إلى مسايرة المتكلم في تجاوزه الثابت اللغوي الذي استنفذ طاقته التعبيرية ولم يعد قادرًا على الوفاء بالحاجة البيانية أو الفنية التي تعتمل في ذهن منشئ الخطاب ؛ ذلك أنّ << الدرجة الصفر بتعبير رولان بارث يفنقر فيها الكلام إلى القدرة على التأثير بسبب من

¹ - محمد شكري عياد؛ اللغة والإبداع ، ص 79.

² - Wartburg et ulman, problèmes et méthodes de la linguistique, paris.p.u.f, 3ed -
، 1969, p 293

³ - حسن مندبل حسن العكلي ؛ الإعجاز القرآني في أسلوب العدول ، ص 52.

⁴ - تمام حسان؛ البيان في روائع القرآن ، 77/2 .

⁵ - عبد السلام المسدي؛ الأسلوبية والأسلوب، ص 83.

افتقاره إلى الجدة والإثارة >>¹ ، ولا سبيل إلى الجدة ما لم تتجاوز المواضع الشائعة والاصطلاحات المألوفة لأن >> التنوع في الأسلوب ذو أثر بالغ في مستوى التلقي >>² ، وله كبير الأثر في دفع الملل وتهيئة المتلقي لاستقبال المعنى بما يُلبس العبارة من مسوغات أسلوبية ؛ ولولا ذلك لما سمى المعاصرون الالتفات منبّهات أسلوبية³ .

ذلك كله يكشف القيمة التداولية والأهمية البيانية للعدول بوصفه مهاداً يقدّمه المتكلم بين يدي فكرته ودعوة منه لاستمالة فكر المتلقي بل إنه >> يسلّط مع ذلك على المتقبل تأثيراً ضاعطاً به لينفعل للرسالة المبلغة انفعالاً ما >>⁴ .

وإذا كانت الرسالة مهمّة باعتبارها الغاية الأولى للحدث الكلامي فإنّ العدول لا يقلُّ عنها أهمية باعتباره وسيلة ضامنة لتهيئة ذهن المتلقي وجعله أكثر قابلية لما يُلقى إليه لأنّ >> الأسلوب بهذا التقدير هو حكم القيادة في مركب الإبلاغ لأنه تجسيد لعزيمة المتكلم في أن يكسوَ السامع ثوب رسالته في محتواها من خلال صياغتها >>⁵ .

هذا عن العدول بشكل عام ، أمّا في النصّ القرآني فإنّ >> الانزياح في كافة صورته ؛ تقديماً وتأخيراً، التفاتاً وحذفاً مبدأً جمالي اعتمده الخطاب القرآني من أجل التعبير عن المعاني الإضافية التي تبقى محجوبة عن الأنظار فيما لو بقي

¹ - محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، ص13.

² - صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، دار الزمان، دمشق ط1، 2010، ص334.

³ - ينظر: هنريش بليش ، البلاغة والأسلوبية ، تر محمد العمري ، دراسات سال،الدار البيضاء ، 1989، ص206 نقلا عن المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب .

⁴ - عبد السلام المسدي؛ الأسلوبية والأسلوب، ص33.

⁵ - نفسه : ص 64.

التركيب على أصله المفترض، أو إذا لم يُكسر السياق بعنصر لغوي غير متوقع»¹.

وليس يعني هذا أن كسر السياق هو غاية في حد ذاته ، أو أن العدول رسالة مقصود تبليغها إلى المخاطب ؛ إذ لولا أن تلك المعاني التي يفيدها العدول تتقاصر دونها التواضعات اللغوية الأصلية لانفتحت الحاجة إليه ، بيد أن المقصود و المستهدف هو انتباه المتلقي الذي كثيرا ما يصرفه ما في الأصل من إلف ورتابة ؛ ذلك أن >> الذوق العربي يكره توالي الأمثال ، وتوالي الأضداد ، ويألف توالي الأشتات <<².

لذلك فإن >> التعبير القرآني قد يعمد إلى إجراءات أسلوبية في مبنى الفواصل من قبيل الحذف ، والخطف ، والزيادة ، واستبدال الصيغ من أجل الحفاظ على الشحنة الصوتية من غير أن يضحى بالملحظ البياني <<³.

ولكن هل العدول في القرآن مقصور على الفواصل؟ وهل غايته صوتية صرفة؟ ، أو بيانية صرفة؟ أو أنها تجمع بين الاثنين؟

أنف الكلام في المقدمة أن شرارة هذا البحث كانت قد انقذت من اختلاف في الرأي مع الأستاذ خليل عميرة حين عزا العدول في رتب الكلام - لدى حديثه عن التقديم والتأخير في فواصل الآيات في كتابه: " في نحو اللغة العربية وتراكيبها " - إلى الغرض المعنوي دون الإيقاع وذلك في معرض ردّه على الأستاذ إبراهيم أنيس الذي رأى أن الغاية إيقاعية صرفة ؛ قال الدكتور خليل عميرة : >> فالتقديم يكون دائما لغرض يتعلّق بالمعنى ، وليس لغرض يتعلّق

¹ - صالح ملاً عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص373.

² - تمام حسان ؛ الأصول ، ص9.

³ - صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص375

مدخل

بالبنية الشكلية أو موسيقى الكلام ، ولا هو تارة لمعنى وأخرى لموسيقى الكلام الأمر الذي ذهب إليه إبراهيم أنيس <<¹، ممّا أثار الفضولَ العلميَّ لدى الباحث وجعله يستهدف غايات العدول الصرفي ومراميه في القرآن الكريم (وذلك باعتبار العدول الصرفي شكلاً من أشكال خرق القاعدة كما الحال في خرق قاعدة الرتبة) ، وهل يكون الغرض دائماً هو المعنى كما رأى خليل عميرة؟.

¹ - خليل أحمد عميرة ؛ في نحو اللغة وتراكيبها ، - منهج وتطبيق ، عالم المعرفة ، جدة ، السعودية ، ط1 ، 1404 هـ .

غايات العدول

لم يختلف اللغويون والبلاغيون قديما ولا علماء الأسلوب حديثا في اعتبار العدول قوام اللغة الفنيّة وقطب رحاها ، وأنّه صميم في المباحث البلاغية والأسلوبية ، كما أنّهم أجمعوا على أنّ العدول لا يكون إلاّ لغاية بيانية أو فنية يستهدفها مستعمل اللغة لأنّ >> الدراسة البيانية ترفض أن يكون هناك تغيير في نظم الكلام تستبدل معه كلمة بأخرى لا يتبعه تغيير في المقاصد و الأغراض <<¹ ، كما أنّ >> العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلاّ لنوع خصوصية اقتضت ذلك <<² ، إلاّ أنّ الخصوصية التي ذكرها ابن الأثير ليست من جنس واحد ، ولا هي باعتبار واحد ؛ كأن يراعى فيها الجانب البياني وحده ، أو الجانب الإيقاعي وحده ، ولا هي من الوضوح بحيث يمكن الوقوف على معالمها بسهولة ، وهذا ما جعل ابن جني يعيب على البلاغيين وقوفهم في تحديدها عند مفهوم الاتّساع ؛ إذ >> ليس ينبغي أن يُقتصر في ذكره [الالتفات] ... بما ألف أصحاب البلاغة أن يردّدوه وهو قولهم : إنّ فيه ضربا من الاتّساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ ، و هذا ينبغي أن يُقال إذا عرّيّ الموضوع من غرض متعمّدٍ وسرّاً على مثله تتعدّد اليد <<³.

ومما يؤكد دقّة العلة في العدول و خفاءها اضطراب واحد من كبار البلاغيين والمفسرين هو الزمخشري في تعليها ؛ إذ نراه يعلّلها مرّة بالمبالغة فيقول: >> فإن

¹ - محمد أمين الخضري ؛ من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، مطبعة الأمانة، القاهرة د.ت ، ص13.

² - ابن الأثير؛ المثل لسائر : ص12 .

³ - ابن جني؛ المحتسب ، تح علي النجدي ناصف و رفيقه ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة

1386 هـ / 145.

مدخل

قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة قلت المبالغة <<¹ ، ويردُّها في أخرى إلى تنبيه السامع وإيقاظ إصغائه حين يقول: >> الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع و إيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد <<².

والواقع أنَّ المتتبع لمواطن العدول في اللغة بشكلٍ عام وفي النص القرآني على التخصيص وما ذكره المفسرون وأهل اللغة لدى تناولهم هذا الدرسَ يجد أنَّ العدول الصرفي ينتهي إلى غايات ثلاث هي:

- الغاية المعنوية المتمثلة في طلب المبالغة وتدقيق الدلالة.

- الغاية الفنية التي تظهر في رعاية الإيقاع وضبطه ، أو إضفاء الغموض الفني على العبارة.

- الغاية التداولية ؛ و يكشف عنها اعتبار حال المتلقي ، أو المخاطب أو السياق الناظم للتواصل.

وهذا بيان ذلك :

أولاً/ البعد المعنوي:

إنَّ المتكلم حينما يضرب صفحا عن صيغة و يطلب أخرى لا يفعل ذلك إلاَّ عندما يظهر له أنَّ في الثانية فائدةً تفتقر إليها الأولى ، وإلاَّ لما عدل إليها ؛ وأولى الفوائد التي يتوخاها المتكلم هي فائدة المعنى الذي من أجله كان الخطاب أصلا ، بدليل أنه لو كان في العدول ما يخلُّ بالمعنى لما جاز، و قد حدد الزمخشري في

¹ - الزمخشري ؛ الكشف: 12/1 .

² - نفسه : 19/1-20.

مدخل

الشاهد المتقدمّ الغاية من العدول بالمبالغة ، وليست المبالغة إلا شحنة دلالية إضافية توفرها الصيغة المعدول إليها ، قال الطاهر بن عاشور في العدول عن اسم الفاعل إلى المصدر في قوله تعالى: قُلْ ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ الملك الآية 30: >> الإخبار به [المصدر] عن الماء من باب الوصف بالمصدر للمبالغة مثل عدل ورضى<<¹ ، ذلك لأنّ الدلالة المتضمنة في لفظ "غائر" (البديل المفترض) دون المعنى المطلوب وهو الغور نفسه الذي لا تنهض به إلا صيغة المصدر المعدول إليها.

ومثل هذا المعنى نجده في واحد من أسماء الله الحسنى هو "العدل" الذي تتجاوز دلالته مجرد اتصاف عارض بالعدل - كما في اسم الفاعل "عادل" ، أو مبالغة مخصوصة كما في صيغ المبالغة المختلفة - إلى جوهر العدل ومطلقه.

وفي تعليل بناء الفعل للمفعول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ الليل الآية 19 برده إلى رعاية الفاصلة تقول بنت الشاطي: >> هذا ملحظ شكلي من الزخرف البديعي لا نقول بمثله في البيان الأعلى ... وإنما جاء البناء للمجهول لمقتضى معنوي وهو أنّ البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحد أو من أحد على الإطلاق ، وإنما هو خالص لوجه الله <<².

واستخفاف بنت الشاطي بالتعليل الشكلي بالإيقاع ورعاية الفاصلة بادٍ في قولها "لا نقول بمثله في البيان الأعلى" ؛ فهي تنأى بالنص القرآني عن استهداف الجانب الشكلي المتمثل في رعاية الفاصلة حفظا لموسيقى الكلام.

¹ - الطاهر بن عاشور؛ التحرير و التتوير، دار سحنون للنشر و التوزيع، تونس، 56/29.

² - عائشة بنت الشاطي؛ التفسير البياني للقرآن الكريم ، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1990، 177/2.

وإذا كان >> الالتفات بين الصيغ لا يكون لمجرد التوسع في اللغة أو يُحمل على أنه من أساليب العرب وعاداتهم في الكلام وإنما يكون ذلك لأجل دلالة بلاغية وخصوصية أسلوبية>>¹ فإنَّ عزَّ الدين إسماعيل يرى أنَّ في الالتفات >> معاني على قدر كبير من الرهافة والخفاء لا يلفت المتلقي إليها أو البحث عنها إلا إدراكه للتغير الحاصل في النسق اللغوي للخطاب >>² ، ونرى أنَّ الناقد عزَّ الدين إسماعيل قد وضع يده على قضية بالغة الدقة والأهمية في علاقة العدول بالتلقي وهي كسر الرتبة التي تجعل المتلقي يستكين إلى المعاني الأولية للألفاظ ولا يلتفت إلى الدلالات المستكنة في ثنايا الملفوظ ، فيكون في العدول عمَّا يتوقعه تنبيه ودعوة إلى المعنى المستتر الذي يحول دون إدراكه اتصافه بالرهافة والخفاء ، ممَّا يجعل الصيغ الأصلية عاجزة عن تعيينه ؛ ويفرض بالتالي معاودة التنبيه عليه من خلال أدوات أسلوبية في مقدمتها العدول ، فيكون العدول بذلك أداة لبلوغ المعنى.

ويعلِّله الدكتور صلاح فضل العدول بـ >> وجود صيغ و مشتقات صرفية شفافة ذات أثرٍ أسلوبِيٍّ وبخاصة تلك التي تتصل بالمجال العاطفي مثل صيغ التصغير والتحقير والهزل والسخرية وغيرها من الصيغ التي قد تكتسب دلالة أسلوبية جديدة في سياقٍ تفسيريٍّ يُبرز شفافتها ويخفف من عتمتها >>³ ؛ بمعنى أنَّ في الألفاظ صيغا شفافة تُطلب ويعدل إليها ، وأخرى عاتمة تُجتنب ويُعدل عنها ، وهي نفسها التي تتضمن المعاني التي وصفها عزَّ الدين إسماعيل بالرهافة والخفاء ، إلاَّ أنَّه حين يضيف >> ولعلَّ هذا يضيف هنا بعدا جديدا في دراسة

¹ - محروس محمد إبراهيم ؛ البنية الصرفية وأثرها في تغيير الدلالة - دراسة تطبيقية على قراءة عاصم - ، دار البصائر، مصر، 2007، ص124.

² - عز الدين إسماعيل ؛ قراءة جديدة لتراتنا النقدي، النادي الثقافي، جدة 1990، ص 879 .

³ - صلاح فضل؛ علم الأسلوب و صلته بعلم اللغة، مجلة فصول: العدد57.

العلاقة بين الصيغ و المعنى ألا وهو البعد النفسي بمعنى الاستفادة من دلالة الصيغة في سياق الكشف عن الأبعاد المسيطرة على المبدع حالة إبداعه <<¹ يشير إلى فائدة أخرى نقدية و تداولية في آن ، وذلك حين يتحدث عن استغلال الصيغ المعدول إليها في الكشف عن الواقع النفسي والاجتماعي الذي تشكل في ضوءه الخطاب العدولي ، وهي فكرة نستفيد منها في تحليل الخطاب الموجّه من العباد إلى المولى - عزّ وجلّ - وكذا الحوادث الدائرة بين كثير من شخوص الخطاب القصصي ؛ ذلك لأنّ >> المفارقة القرآنية بأنماطها المختلفة أسلوب من أساليب إنتاج الدلالة اللغوية في النص القرآني <<².

ثانيا / البعد الفني (الإيقاعي) :

إذا كانت غائيّة الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة وكان مجال الأسلوبية هو البحث في الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية³ فهذا يعني - أولاً - أنّ الإثارة - وهي مفهوم جمالي - مطلب أساس في الخطاب الأدبي ، وثانياً ، وبالنتيجة أنّ في الخطاب خصائص لغوية قميّنة بتحقيق هذه الغاية الجمالية وهي ما يتغيّرها البحث الدلالي ويسعى إليها.

ولأنّ >> ثمة بواعث جمالية تدعو إلى تفضيل مفردة على أخرى في حال التقارب بين دلالتها <<⁴ فإنّ النصّ القرآنيّ كثيراً ما يعمد إلى استبدال صيغة بأخرى ؛ كأنّ يؤنّث ما حقّه التذكير، أو يذكر ما أنثه في مكان آخر ، أو يعبر عن

¹ - السابق: الصفحة نفسها.

² - محمد العبد؛ المفارقة القرآنية ، مكتبة الآداب، القاهرة ، 2006 م ، ص 41.

³ - ينظر: عبد السلام المسدي؛ الأسلوبية و الأسلوب ، ص 33.

⁴ - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص 150.

مدخل

المستقبل بالماضي ، أو يخاطب الواحد بلفظ الجماعة ، أو يستعمل المصدر بدل اسم الفاعل... أو غير ذلك مما سنبينه في موضعه من البحث إن شاء الله.

وهي ظواهر من الفشوِّ بحيث تشكّل في الخطاب القرآني ملمحا فنياً وأسلوبيا بارزا يشدُّ إليه الانتباه ويجعل الباحث يتساءل عن الأبعاد الكامنة وراءه .

ولمّا كانت اللغة في أصلها تقوم على السماع والمشافهة فإنَّ البعد الفنيّ فيها إنّما تستأثر به حاسة السمع أوّلاً ، ثم آلة الإدراك ثانياً ، لذلك فإنَّ أيّ حديث عن الوظيفة الجمالية لا بدّ أن يكون محوره الإيقاع ، و من ثم ساغ الحديث عن موسيقى الكلام عند تناول البعد الجمالي للعدول ، وذلك من خلال الكشف عن الخصائص الصوتية التي تكفل للمفردة المعدول إليها القبول والاستحسان ، وتجعل مكانها من التعبير يطلبها دون بدائلها ، وتحت هذه الغاية يمكن إدراج كل أنواع المحسنات اللفظية ذات الأثر المباشر على الشحنة الصوتية في العبارة من حيث الإيجاز أو الإطناب ، أو التناغم بين مكونات الملفوظ ، وهي المساحة التي يتقاطع فيها العدول الصرفي مع علم البديع أحد فروع البلاغة ، وربّما تقاطع حتّى مع علم التشريح من خلال ارتباط الإيقاع بحاسة السمع ؛ ذلك أنّه >> من الأسباب التي تجعل الأذن تضيق بالصوت الرتيب هو أنّ الصوت الرتيب يُعمل الأذن على نوع واحدٍ ، فيضني الأعصاب السمعية فعلَ قطرة الماء في الصخرة إذا وقعت منها دائماً على نقطة واحدة ، ولا كذلك التنوّع في الشدة والنغمة <<¹ ، وبذلك يكون العدول بأثره الإيقاعي عاملاً مريحاً للأذن دافعا عنها السأم والأذى بما يهبّؤها لتقبّل ما يحمله باقي الملفوظ من معانٍ.

¹ - جان ماري جوبو ؛ تر: سامي الدروبي ، دار اليقظة العربية ، القاهرة 1984 ، ص 69.

ويمكن أن يتعلق العدول عن مألوف القول بإشاعة الغموض في الملفوظ بنية إطالة أمد الإدراك¹ ، ولا يخفى أن الكلام بمعانيه - إلقاءً وتلقياً - مطروفي في الزمن ؛ فكلما كان زمن الإدراك أطول كان المعنى أشد التصاقاً بالذهن ، وقد قرر الجرجاني >> أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيئه أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه في النفس أجلاً وأطفً وكانت به أضنً وأشغفً<<² ، فكان العدول بذلك أداة إجرائية لتثبيت المعنى.

أمَّا الغاية الفنية الثانية فإنها تستمدُ فنيَّتها من العلاقة المعنوية التي تقيمها المفردة المعدول إليها مع مفردات الملفوظ ؛ وهو ملحظ يبدو معنوياً ولكنه ليس كذلك في كلِّ أحواله ، ذلك أنَّ الطباق - مثلاً - ، أو المقابلة وإن كانتا ذاتي أثرٍ معنوي لاستغلالهما خاصية التضاد أو التقابل بين المعاني لتقريبها من الأفهام ، إلا أنَّ جمالهما الفني لا يُنكر ، بل لعله أبلغ أثراً من الأول ؛ لأنَّ الأول يقف عند حدود الأثر الإيقاعي وهو حسِّي انطباعي ، أمَّا الثاني فإنه يحقق المتعة بعد عمليات ذهنية تقوم على حركة الإدراك ، جيئةً وذهاباً ، بين المتقابلات لتنتهي إلى المفاضلة والترجيح ، وبالجملة فإنَّ >> تحريك الدال من مجاله الدلالي الخاص إلى آخر يقيم ما يُسمَّى بالاتساع أو المجاز ، وبه يكتسب النصُّ بعده التلمحي الذي يستفز المتلقي إلى البحث عن اللذة الأدبية >>³.

ولما كانت إثارة المتلقي واستفرازه غاية يسعى إليها البليغ فإنَّ التلميح أغنى من التصريح ، وفيه ما ليس في التصريح من استنفارٍ لقوى التلقي ، و غنيٌّ عن البيان أنَّ التلميح ألصق بالعدول من التصريح لما يتضمنه من جهد يبذله المتلقي في

¹ - ينظر: ايفانوكس خوسى ماريا ؛ نظرية اللغة الأدبية ، تر حامد أبو حامد ، مكتبة غريب، القاهرة ، 1992 ، ص 46.

² - عبد القاهر الجرجاني؛ أسرار البلاغة ، ص138.

³ - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص49.

طلب المعنى يغيب في حال التصريح ، وقد سبق القول أنّ >> الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسنَ تطريةً لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد <<¹.

إلاّ أنّ ابن الأثير كان تعقّب الزمخشري في قوله المتقدم فقال: >> لو سلّمنا للزمخشري ما ذهب إليه لكان إنّما يوجد في الكلام المطوّل ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، لأنّه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن ويكون مجموع الجانبين ممّا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقلّ من ذلك <<².

وكأننا بابتين الأثير ينظر إلى النصّ القرآني في هذه المسألة نظرة مجزأة فيعتبر كلّ فقرة على حدة ، و لكنّ المعنبر في النص هو الكل لا الجزء ذلك أنّ الملامح الفنية التي يشارك العدول في إيجادها قد تتجاوز العبارة الواحدة إلى السورة كلها لتعطي إيقاعاً نغمياً خاصاً بكلّ سورة ؛ بل إنّها يتجاوز إلى مجموعة من السور فتنناغم السورة الواحدة مع سابقتها أو لاحقتها لتعطي رتلاً نغمياً مميزاً يشير إلى ما بين السور من اشتراك في المعنى ، فيعتضد الصوت بالدلالة ، وهو ما بحثه القدامى تحت مصطلح "المناسبة" وكتب فيه السيوطي مؤلفه الشهير "تناثر الدرر في تناسب السور".

كل ذلك يعني أنّ >> الانزياح يضفي على الخطاب الأدبي قيماً جمالية ويمنحه طاقات إيحائية ويعين على استكناه أغوار النص في محاولة للوصول إلى دلالاتها

¹ - الزمخشري ؛ الكشف ، ص1/12

² - ابن الأثير؛ المثل السائر ، 4/2

الغائبة البعيدة»¹ ، وإذا كان هذا حال الانزياح في الخطاب الأدبيّ فما القول فيه وهو في القرآن الكريم الذي وسع اللغة دلالة وفناً.

ثالثاً/ البعد التداولي:

إنّ اعتبار حال المتلقي عند إنشاء الخطاب من أهم المرتكزات التي قامت عليها البلاغة العربية ولخصتها العبارة الشهيرة " لكلّ مقام مقال" التي تضرب للمتلقي سهماً وافراً في بناء العبارة ، وتجعله شريكاً في إنتاج الخطاب ؛ فيضطر المتكلم إلى صياغة خطابه وفق أصناف المخاطبين ومستوياتهم ، ووفق حالاتهم النفسية ومقاماتهم الاجتماعية ؛ فيلغي من ملفوظه كلّ ما يباه مقام التلقّي بطرح صيغ وطلب أخرى ، وفي ذلك يقول مارسال كريسو: >> إنّ انعكاس حضور المتقبل على صفحات الخطاب يُعلم علم الضرورة وهو ما يمكن استغلاله في بلورة الأبعاد السوسولوجية والنفسية في الظاهرة اللغوية <<² ، ويعتبر المسدي >> الأسلوب ضغطاً مُسلّطاً على المتقبل بحيث لا يُلقى الخطاب إلّا وقد تهيأ فيه من العناصر الضاغطة ما يُزيل عن المتقبل حرية ردود الفعل <<³ ؛ بمعنى أنّ الخطاب تصطرع في تشكيله قوّاً المتكلم والمتلقي ، وأنّ الأوّل يستفرغ الجهد في استهداف مداخل التلقّي لدى الثاني بمراعاة المقامات المختلفة ، وهي لا تسمح دائماً باستعمال الأصل اللغوي ؛ إذ >> قد تقتضي مسايرة التعبير للحالة النفسية أن تُخرج التركيب عن مقتضى الظاهر كأن يُذكر مرّة ويؤنث مرّة أخرى في السياق نفسه ، أو كأن يأتي بالتركيب على خلاف أصله <<⁴.

¹ - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 203.

² - عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب ، ص 64 .

³ - نفسه : ص 64.

⁴ - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 373.

وليست الحالة النفسية للمتلقي وحدها المعتبرة في بناء الخطاب ؛ إنما هي نموذج لما يمكن أن يقع تحته المتكلم من ضغوط عائدة إلى اعتبار حال المتلقي، وإلا فإن ما يؤثر في بناء الخطاب كثير متنوع ؛ منه المكانة الاجتماعية التي تفرض مثلا خطاب الواحد بلفظ الجماعة ؛ كالذي نجده في مخاطبة الملوك والرؤساء وذوي المناصب ، أو الرغبة في تشريف المخاطب والرفع من شأنه على نحو ما نجده في إضافة لفظ "عبد" العائد إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ضمير الذات الإلهية في مثل قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ﴾ الكهف الآية 1 ، وهي إضافة تشريف وتتويه كما نصَّ على ذلك المفسرون¹ ، ومثلها إضافة لفظ "عباد" الدالة على المسلمين إلى ضمير الذات الإلهية أو واحد من أسماء الله الحسنى كما في قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۗ ﴾ الفرقان الآية: 63.

ومنه إرادة التهكم ، أو إرادة التوؤد في صيغ المبالغة ؛ وغير ذلك كثير.

وإذا كان << التنوع في الأسلوب ذا أثر بالغ في مستوى التلقي >>² ، وكان العدول شكلا من أشكال تنويع الأسلوب فإنه فضلا عن ذلك لا يكتفى فيه بمظهر واحد أو نوع واحد ولكن << قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا بحيث كلما كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس

¹ - ينظر مثلا: الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 246/6 .

² - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص334.

المتقبل أعمق»¹ ، كما أنّ «> الطاقة التأثيرية لخاصية أسلوبية تتناسب عكسا مع تواترها فكلما تكررت نفس الخاصية في نص ضعفت مقوماتها الأسلوبية ، معنى ذلك أن التكرار يفقدها شحنتها التأثيرية تدريجيا >>².

وهذا ما يوجب على باني الخطاب دوام اليقظة ، والحذر من الوقوع في التكرار أو الغفلة بتضمين خطابه أنواعا من العدول تلامس في كل مرة جانبا من جوانبه وتجعله يتقبل الرسالة بقبول حسن.

ذلك في الكلام البشري أمّا في القرآن الكريم فإنّ ما تقدم من التأكيد على حاجة المتكلم إلى التنوع في الأسلوب وعدم تكرار الأشكال التعبيرية هو ما يفسر ثراء النصّ القرآني بغير قليل من أشكال العدول وبخاصة في المستوى الصرفي ذلك أنّ الصرف موضوعه المفردات المشتقة - أسماء وأفعالا- وهي أكثر أنواع الكلم طواعية وقبولا لتصريفها بما يرضي المتلقي ويشبع حاجته الفنية والبيانية ، وهي حاجة يؤكدتها تنوع الفئات المخاطبة بالقرآن الموصوف بصلاحيته لكل زمان ومكان ؛ والقرآن كتاب فنّ وجمال كما هو كتاب تشريع وبيان.

¹ - RIFFATERRE ;ESSAIS DE STYLISTIQUE STRUCTURAL, 13 - نقلا عن :

عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب ، ص 68.

² - نفسه : الصفحة نفسها.

الفصل الأول

أنواع العدول الصرفي

المبحث الأول : العدول الاسمي

المبحث الثاني : العدول الفعلي

المبحث الثالث: العدول بين الاسم والفعل

سنجري في هذا الفصل على عُرْف اللغويين في الابتداء بالاسم باعتباره أصلاً مقدّمًا ، ثم ننثي بالفعل ، ومن بعد ذلك نتناول الحركة العدولية بين الاسم والفعل ، على أن نكتفي في هذا الفصل بذكر أهمّ أنواع العدول تاركين البحث في دلالة العدول و آثاره المعنوية ، والإيقاعية ، والتداولية إلى الفصول اللاحقة.

المبحث الأول: العدول الاسمي

نتناول العدول في الأسماء من الجوانب الآتية:

- العدول في العدد ،
- العدول في الجنس ،
- العدول بين المعرفة والنكرة ،
- العدول بين الضمائر ،
- العدول بين المشتقات .

1/ العدول في العدد:

اللفظ في العربية لا يعدو أن يكون مفرداً أو مثني أو جمعا ، ومن ثمَّ فإنَّ للعدول العددي نظرياً ستَّ صور هي :

- العدول عن المفرد إلى المثني ،
- العدول عن المفرد إلى الجمع ،
- العدول عن المثني إلى المفرد ،
- العدول عن المثني إلى الجمع ،
- العدول عن الجمع إلى المفرد ،
- العدول عن الجمع إلى المثني .

نورد فيما يلي نماذج عن كل نوع:

أ / العدول عن المفرد إلى المثني:

معروف في اللسان العربي وعليه جاء كلام كثير من الشعراء و البلغاء إذ
>> تقول العرب "أفعلاً ذلك" والمخاطب واحد <<¹ ؛ قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل²

¹ - الثعالبي ؛ فقه اللغة وسرّ العربية ، تح فائز محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1427هـ -
2006 م ، ص 253 ، وينظر : السيوطي ؛ المزهري : 264/1 .

2 - الحسين بن أحمد الزوزني؛ شرح المعلمات السبع ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط1 ، 1425هـ -
2004 م ، ص: 9

وقال الأعشى:

وصلِّ على خير العشيّات والضُّحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا¹

وقال سويد بن كراع:

فإن تَرَجُرَانَ يا ابن عفان أنزجرْ وإن تدعاني أحم عرُضا مُمنعا²

و << الشعراء أكثر الناس قولا يا صاحبيّ ويا خليلي >>³ ، كما أنه من خصائص اللسان العربي والقرآن أبلغه << أن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين والجماعة ، أو يخبر عنه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ ، وإنما كان رجلا واحدا ، وقوله: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، وإنما يخاطب مالكا خازن النار >>⁴ ،

ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الكهف الآية 61 ، وكان النسيان

من يوشع دون موسى عليهما السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ ،

¹ - الأعشى ؛ الديوان شرح وتعليق محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط 7 1983 ، ص 187.

² - الحسين بن أحمد الزوزني ؛ شرح المعلمات السبع ، ص: 9.

³ - السيوطي ؛ المزهر: 335/1.

⁴ - ابن رشيق ؛ العمدة ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ط 5 ، 1401هـ -

1981م : 279/2 وينظر: الثعالبي ؛ فقه اللغة ، ص 253 .

وقوله جلّ شأنه: ﴿تَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ الرحمن الآية 22
و>> إنما يخرج من الملح لا من العذب <<¹ ،

وقوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن الآية 49 وهي جنة واحدة ،
قال الفرّاء: >> هذا باب مذهب العرب في تثنية البقعة الواحدة وجمعها كقوله :
"ديّار لها بالرقمتين" وقوله: "بطن المكتّين" وأشير بذلك إلى نواحيها ، أو للإشعار
بأنّ لها وجهين ، وأنك إذا نظرت لها يمينا وشمالا رأيت في كلتا الناحيتين ما يملأ
عينك قرّة وصدرك مسرّة ، وإنما تثنّاها لأجل الفاصلة <<².

وأنكر ابن قتيبة رأي الفرّاء وقال: >> ... فأما أن يكون الله وعد بجنتين فجعلها
جنة واحدة من أجل رؤوس الآي فمعاذ الله ، وكيف هذا وهو يصفها بصفات
الاثنتين قال: "نواتا أفنان" ثم قال: "فيهما" ، ولو أنّ قائلًا قال في خزنة النار إنهم
عشرون وإنما جعلهم الله تسعة عشرة لرأس الآية ما كان هذا القول إلا كقول
الفرّاء <<³ .

وفي كونها جنة واحدة وأنّ التثنية من أجل الفاصلة ، أو أنها في الأصل جنتان
اختلاف شديد بين المفسرين⁴ نرجؤه إلى مكانه في البحث.

¹ - الثعالبي ؛ فقه اللغة ، 277 ، وينظر: الزركشي؛ البرهان في علوم القرآن ، تح مصطفى عبد القادر
عطا ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، 1425\1426 هـ - 2005م ،
ص35 .

² - الزركشي ؛ البرهان ، 95/1 .

³ - نفسه : 64/1 ، 65 .

⁴ - يراجع في ذلك على سبيل المثال : الزمخشري ؛ الكشاف: 670/3 ، والزركشي ؛ البرهان 95/1 ،
7/3 .

ومنه كذلك قوله تعالى في خطاب فرعون لموسى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا خُنُّ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس الآية 78 ، حيث قال : "لكما" بدل "لك" لأن الخطاب لموسى عليه السلام وهو الذي يتلقى الوحي ، كما أن مفتتح الآية مفرد: "أجئتنا لتلفتنا" فيكون في قوله: "لكما" عدول عن المفرد إلى المثني.

ب/ العدول عن المفرد إلى الجمع:

>> من سنة العرب في هذا الباب أن يقولوا للرجل العظيم والملك الكبير: "انظروا في أمري" ، ولأن السادة والملوك يقولون "نحن فعلنا، وإنا أمرنا" فعلى قضية هذا الابتداء يخاطبون في الجواب كما قال تعالى عمّن حضره الموت " رَبِّ ارْجِعُونِ " المؤمنون الآية : 99 <<¹

قال الشاعر: جاء الشتاء وقميصي أخلاق شرادم يضحك منه التواق²

وجاء منه في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ التوبة 72 ، والمراد المسجد الحرام³ ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا ﴾ وَلِيَصْفَحُوا⁴ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النور الآية 22

¹ - الثعالبي ؛ فقه اللغة ، 253 ، وينظر: السيوطي ؛ المزهري 263/1 .

² - السيوطي ؛ المزهري: الصفحة نفسها.

³ - ينظر الثعالبي ؛ فقه اللغة 253 .

؛ >> خاطب بذلك أبا بكر الصديق (ض) لما حَرَمَ مسطحا رَفَدَه حين تكلم في حديث الإفك <<¹ ، وكان السياق يوجب أن يكون الخطاب بلفظ المفرد.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتُهُ^ط قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْتِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ هود الآيتان : 13 ، 14 ؛ حيث قال: "لكم" ، ولم يقل: "لك" لأنَّ المخاطب الرسول — صلى الله عليه وسلم — لقوله تعالى: " قل فاتوا"²

وقوله: ﴿ مِثْلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ البقرة الآية 17 ، حيث قال "بِنُورِهِمْ" ، و"تَرَكَهُمْ" ، و"يُبْصِرُونَ" بعد قوله "استَوْقَدَ" ، "حَوْلَهُ" ،

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ المؤمنون الآية 99 ، 100 ، لأنَّ >> ظاهر السياق أن يقال "ربُّ ارْجِعْني" ليكون الضمير في فعل الأمر "ارجعون" مطابقا للضمير الملحوظ في المنادى "ربُّ" <<³ ،

¹ - الزركشي ؛ البرهان ، 252/2 .

² - نفسه: الصفحة نفسها.

³ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، 209.

وقوله عزّ ذكره: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۗ ﴾¹
 تَلْكَ أَمَانِيهِمْ ۗ ﴾ البقرة الآية: 111 ؛ إذ >> من المنتظر أن يقول: " تلك
 أمنيتهم " لأن المذكور أمنية واحدة وهي وهُمهم بأن الجنة لا يدخلها إلا اليهود
 والنصارى <<¹ ،

و قوله جل شأنه على لسان بلقيس ملكة سبأ: ﴿ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ
 بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۗ ﴾ النمل الآية 35، والرسول واحد بدليل قوله تعالى على
 لسان سليمان: ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ۗ ﴾ ،

و قوله جل ذكره: ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ
 مِّثْلُكُمْ ۗ ﴾ الأنبياء الآية 3، إذ يقضي السياق بـ : " وأسرى النجوى الذين ظلموا "
 حتى لا يتعدد فاعلان على فعل واحد ،

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۗ ﴾²
 ابراهيم الآية 31 ؛ والمراد "خلة" بدليل آية البقرة 254² ، وقوله: ﴿ يَتَأَيَّهَا
 الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ۗ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۗ ﴾ المؤمنون الآية 51

¹ - السابق: ص 210.

² - ينظر: الزركشي ؛ البرهان ، 255/2 .

لأنه >> خطاب للنبي - صلى الله عليه و سلم - ؛ إذ لا نبي معه قبله ولا بعده<<¹

و قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الحجرات الآية 4 و المنادى واحد² .

جـ/ العدول عن المثني إلى المفرد:

قال ابن رشيق في العمدة >> ...من ذلك أن يذكر شيئين ثم يُخبر عن أحدهما دون صاحبه اتساعا كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَوْأً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ ، أو يجعل الفعل لأحدهما ويشرك الآخر معه أو يذكر شيئا فيقرن به ما يقاربه ويناسبه ولم يذكره كقوله تعالى في أول سورة الرحمن: ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد ذكر الإنس قبل هذه الآية دون الجان وذكر الجان بعدها <<³.

وجاء منه في القرآن العظيم:

قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ طه الآية 117 ؛ قال " فتشقى " بالإفراد والمخاطب اثنان آدم وحواء ؛ قال ابن عطية: >> إنما أفرده بالشقاء من حيث كان المخاطب أولًا و المقصود في الكلام <<⁴.

¹ - المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

² - ينظر: ابن رشيق؛ العمدة ، 279/2 .

³ - نفسه: 277/2 .

⁴ - الزركشي ؛ البرهان ، 258/2 .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَمَّوْا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا ﴾ الجمعة الآية 11 ،
والسياق يوجب "إليهما".

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ التوبة الآية 34 ؛ حيث قال "ينفقونها" بدل "ينفقونها".

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ التوبة الآية 62 ؛ حيث قال
"يرضوه" بدل "يرضوهما".

وقوله: ﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء الآيتين 15 ، 16 ؛ حيث قال "رسول"
بدل "رسولا"؛ وقد جاءت مثناة على الأصل في سورة طه الآية 47: ﴿ فَأْتِيَاهُ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ مما يؤكد أنها عدول في
آية الشعراء حيث لا مانع صرفي من التثنية .

وفي آية الشعراء المتقدمة حركة عدولية متعددة ؛ ذلك أنه أورد المخاطب
مثنى على الأصل في قوله "إذهبا" ثم عدل إلى الجمع في "معكم" ثم عاد إلى المثنى
في: "فأتيا" ، و"فقولا" و"إننا" ، ثم عدل في الأخير إلى المثنى فتكون الآية بذلك قد
تضمنت الأوضاع الخطابية الثلاثة: المفرد ، والمثنى ، والجمع .

د/العدول عن المثني إلى الجمع:

قال الشعبي في كلام له في مجلس عبد الملك >> "رجلان جاؤوني" ، فقال عبد الملك لحنث يا شعبي ، فقال: لم أَلحن يا أمير المؤمنين مع قوله تعالى: ﴿ هَذَا نِ حَصْمَانِ أَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾^ط ، فقال عبد الملك : لله درك يا فقيه العراقيين ، لقد شفيت وكفيت <<¹ ؛ ذلك أن ظاهر السياق يقضي بالثنائية "أَحْتَصَمَا" بدل الجمع "أَحْتَصَمُوا" ، ولكنه الحملُ على المعنى لأنَّ الخصمين قد يكونان جماعتين ، و>> من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع كما تقول عند ذكر العُمَريين والحَسَنيين "كرم الله وجوههم"<<².

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾^ط التحريم الآية 4 ، حيث قال "قلوبكما" ولم يقل "قلباكما".

وقوله جلّ شأنه: ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^ط فصلت الآية 11 ، فقال "طائعين" بدل "طائعتين" ؛ قال الزمخشري:>> فَإِنْ قُلْتَ هَلَّا قِيلَ "طَائِعَتَيْنِ" عَلَى الْفِظِ أَوْ "طَائِعَاتٍ" عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّهَا سَمَاوَاتٌ وَأَرْضَانِ ؟ قُلْتَ لِمَا جَعَلَهُنَّ مَخَاطَبَاتٍ وَمَجْبِيَاتٍ وَوَصَفَهُنَّ بِالطَّوْعِ وَالكَرْهِ قِيلَ "طَائِعَتَيْنِ" فِي مَوْضِعِ طَائِعَاتٍ نَحْوِ سَاجِدَيْنِ<<³ .

¹ - الثعالبي ؛ فقه اللغة ، 255 .

² - نفسه: ص 252 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف 4/452 .

قلتُ: هذا تعليل العدول عن جمع غير العاقل إلى جمع العاقل ولا يتضمن تعليلاً للعدول عن المثنى إلى الجمع.

وقوله: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ۚ إِنَّ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ فصلت الآية 37 ؛ حيث قال: "خلقهن" ولم يقل "خلقهما" ، وقد أخبر عن الشمس والقمر بالمتنى الصريح في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَايِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ﴿٣٣﴾ إبراهيم الآية 33 ،

وقوله: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ قال لا تَحْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿ ق الآيتان 27 ، 28 كان ذلك خطاب الكافر يوم القيامة ينحو باللائمة على قرينه فيتبرأ منه ، والجمع في "لَا تَحْتَصِمُوا" بدل التنثية ينبغي البحث في دلالاته بعيداً عن علة التعظيم التي كثيراً ما يُرد إليها جمع المفرد أو المثنى لأنَّ المقام لا مكان فيه للتعظيم إنما هو التوبيخ والتقريع.

وقوله عز ذكره: ﴿ وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ الحجرات الآية 09 ؛ وفيها عدول مضاعف إذ ؛ عدل عن المثنى إلى الجمع في "اقْتَتَلُوا" ثم عدل ثانية في حركة عكسية عن الجمع إلى المثنى في "بينهما" ، وقد قال تعالى في سورة آل عمران الآية 122 : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ﴿١٢٢﴾ حيث كان المثنى صريحا في "تَفْشَلَا" و"وَلِيُّهُمَا".

هـ/ العدول عن الجمع إلى المفرد:

هو كذلك >> من سنن العرب إذ تقول قَرَرْنَا بِهِ عَيْنَا أَيِ أَعَيْنَا >>¹ ، قال فيه السيوطي: >> من سنن العرب ذكر الواحد والمراد الجمع كقولهم للجماعة ضيف وعدو >>² ، وكان الحجاج يقول في خطبته: >> يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ وَكَلِّمَ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ >>³.

وجاء منه في القرآن الشيء الكثير من ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ التحريم الآية 04 ، فوصف الجمع "الملائكة" بالوصف المفرد "ظهير" مخالفا القاعدة النحوية التي توجب إلحاق التابع بمتبوعه ،

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ^طالنور الآية 31 ؛ حيث أوقع الطفل مفردا بدل الجمع "الأطفال" ،

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ النساء الآية 04؛ حيث قال "نفسا" بدل "أنفسا" أو نفوسا ،

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة الآية 26 ؛ حيث قال "تروها" بدل "تروهم" ، وقوله عزّ ذكره: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا

¹ - الثعالبي ؛ فقه اللغة ، 253 .

² - السيوطي ؛ المزهر : 262/1 .

³ - الزركشي ؛ البرهان : 250/2 .

يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ^ط وَأَفْعَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴿ إبراهيم الآية 43 ؛ حيث أوقع "الطرف"

مفردا بين جمعين هما "رؤوسهم" و"أفندتهم" ،

وقوله جلّ شأنه : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ مريم

الآية 82 ؛ حيث أورد "ضدًّا" بدلاً من "أضدادا" ،

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَرَجْنَاكُمْ طِفْلًا ﴾ الحج الآية 05 ، وغافر الآية 67 ؛ حيث

قال "طفلا" ولم يقل "أطفالا" تبعا لجمع الفعل ،

وقوله عزّ ذكره: ﴿ فَأَيُّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء الآية 77 ؛

حيث أخبر عن الجمع "إنهم" بالمفرد "عدوٌّ" ،

وقوله جلّ شأنه: ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ﴾ القمر الآية 45 ؛ أي الأدبار¹ ،

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان الآية 74 ؛ حيث

أورد "إماما" مفردا بدل "أئمة" كما تقضي الصناعة النحوية.

وقوله عزّ من قائل: ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف الآية 51 ؛

>> أي أعضادا وإنما أفرد ليعدل رؤوس الآي بالإفراد <<² ،

¹ - ينظر : الفراء ؛ معاني القرآن ، تح أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، دار الكتب ، 1374هـ -

1955م 244/3.

² - الزركشي ؛ البرهان : 95/1 .

وقوله تباركت أسماؤه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ البقرة الآية 219 ؛ حيث أفرد "النفع" في عجز الآية بعد أن كان جمعا في صدرها.

و/ العدول عن الجمع إلى المثني:

كقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ البقرة الآية 255 ؛ حيث قال "حِفْظُهُمَا" وهي سموات كثيرة وأرض.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ﴾ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ آل عمران الآية 13 ؛ حيث قال: "تَرَوْنَهُمْ" ، و"مِثْلِهِمْ" ولم يقل : "تَرَوْنَهُمَا" ، و"مِثْلَيْهِمَا" ،

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا فَادْهَابًا بِعَايُنِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء الآيتان 15 ، 16 ؛ حيث قال: "فَأْتِيَا" مثني بعد أن قال: "مَعَكُمْ" ،

وقوله عزّ ذكره: ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ الحجر الآيتان 78 ، 79 ؛ حيث قال: "وإنهما" ولم يقل: "وإنهم" كما يقضي السياق.

تلك هي الصور الممكنة نظريا للعدول العددي ونماذج تطبيقية عن كل صورة ، وفي ما يلي الحديث عن العدول في الجنس :

2/ العدول في الجنس:

يتعرف المذكر بأنه >> ما خلا من العلامات الثلاث ؛ التاء ، والألف ، والياء في نحو غرفة ، وأرض ، وحُبلى ، وحمراء ، وهذي ، والمؤنث ما وجدت فيه إحداهن <<¹ .

والكلام في الجنس مبحث يتنازعه المعجم وعلم الصرف ، وهو من المسائل القديمة التي بحثها علماء اللغة وأفردوها بالتأليف حتى إنه >> قلَّ ما نجد لغويا متقدما لم يفرد لهذه المسألة كتابا خاصا أو رسالة خاصة أو بابا في كتاب من كتبه <<² و قد قرأنا لهم تصانيف كثيرة عنوانها "المذكر والمؤنث"³ ، ولكنهم وقفوا فيهما عند حدود السماع ؛ إذ >> ليس يجري أمر المذكر والمؤنث على قياس مطرد ولا لهما باب يحصرهما كما يرى بعض الناس <<⁴ ، وقد اعتبروا المذكر أصلا والمؤنث فرعا يجب رده إليه عند الالتباس ذلك أن >> تذكير

¹ - الزمخشري ؛ المفصل في علم العربية ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ، ط 1427 هـ - 2006 م ، ص 172.

² - أرياف غازي جمال خليفة ؛ تحول البنى النحوية بين التذكير و التأنيث في الآيات المتماثلة في القرآن الكريم ، مذكرة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الشرق الأوسط ، ديسمبر 2011 م .

³ - من ذلك :المذكر والمؤنث للفرّاء (ت 207هـ) وهو أول كتاب في المذكر والمؤنث (ينظر تح الكتاب للدكتور رمضان عبد التواب ص: 3 ، 5 نشر دار التراث القاهرة ط 1 ، 1989) ، و"المذكر والمؤنث" لأبي بكر الأنباري (ت 328 هـ) ، و"المذكر والمؤنث" لابن التستري (ت 361 هـ).

⁴ - الأنباري ؛ المذكر والمؤنث ، تح طارق الجنابي ، القاهرة ، 1983 ، ص 47 ، 56 .

المؤنث واسع جداً لأنه رد فرع إلى أصل لكن تأنيث المذكر أذهب في التذكير والإغراب¹

ولكن كون المذكر أصلاً لا يُخرج العدول إليه من دائرة الاستثناء لأنه يخالف أصلاً آخر هو وجوب المطابقة بين أجزاء الكلام ، ومن ثم فإنه مبحث صرفي جدير بالدراسة والتحليل.

أما العدول إلى المؤنث فإنه يتضمن عدولين ؛ واحداً عن القاعدة المتقدم ذكرها ؛ وهي وجوب المطابقة بين أجزاء الكلام ، والثاني ترك الأصل الذي هو المذكر إلى الفرع الذي هو المؤنث حسب ابن جني.

أما ابن التستري فقد ميّز بين المؤنث أو المذكر بالطبع ، والمؤنث أو المذكر بالوضع كما فعل الزمخشري ، ووافق ابن جني في اعتبار المذكر أصلاً والمؤنث فرعاً عنه حيث قال: >> إذا أتاك مالا تعرف أمذكر هو أم مؤنث وكان مما يستحق التذكير والتأنيث بالطبع فاكتبه بالتذكير فإنه الأصل ، وإذا أتاك من ذلك ما تذكيره و تأنيثه بالوضع لا بالطبع فاكتبه على التأنيث لأنه الأصل <<² .

ولا نرى لاعتبار المذكر أصلاً والمؤنث فرعاً عنه مسوغاً لغوياً - وبخاصة المذكر أو المؤنث بالطبع - وفق كلام ابن التستري المتقدم ؛ إذ نلاحظ أن ابن التستري فرق بين الجنس بالوضع والجنس بالطبع بينما موضوع الكلام في الاختلاف بالوضع لا بالطبع ؛ لأنَّ اختلاف الطبع متعلق بالأحياء وهي مسألة مفروغ منها ؛ إذ إنَّ الأنثى هي الأنثى ، والمذكر هو الذكر لا يلتبس أحدهما بالآخر ، أما الجنس بالوضع فهو متعلق بالأشياء والمعاني ، وهو موضوع الكلام

¹ - ابن جني ؛ الخصائص ، عالم الكتب ، بيروت ، تح محمد علي النجار ، 301/2 .

² - ابن التستري ؛ المذكر والمؤنث ، تح عبد المجيد هريدي ، مكتبة الخانجي ، ط1 ، القاهرة ، 1983 ،

والشواهد عليه كثيرة ، من ذلك مثلاً: لفظ "السبيل" ؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ذلكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ الأعراف الآية 146 ، وقال في موضع آخر: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يوسف الآية 108 ؛ حيث جاء لفظ السبيل مذكراً في الأولى ومؤنثاً في الثانية.

ولفظ "الطاغوت" حيث قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء الآية 60 ، وقال في آية أخرى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ الزمر الآية 17 ؛ فأورد "الطاغوت" مذكراً مرّةً ومؤنثاً أخرى.

ولفظ "الفلك" ؛ قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الفُّلْكِ المَشْحُونِ ﴾ الشعراء الآية 119 ، وفي آية أخرى: ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ البقرة الآية 164 ، فكان "الفلك" - كذلك - مؤنثاً في سياق ومذكراً في آخر، وغير ذلك كثير لا يدخل حصره في اهتمامنا .

والعدول في الجنس إما أن يكون عن المؤنث إلى المذكر أو عن المذكر إلى المؤنث :

أ / العدول عن المؤنث إلى المذكر:

جاء منه في الشعر قول معاوية بن مالك:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا.¹
حيث قال: "نزل السماء" ولم يقل: "نزلت السماء" وذلك بإحلال السماء محل
المطر، وقول عمر بن ربيعة:

فكان مجنّي دون ما كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومُعصِر²
فقال "ثلاث شخوص" ولم يقل "ثلاثة شخوص"؛ أي أنه اعتبر "شخوص" مؤنثا
والإ لقال ثلاثة شخوص.

وقول الأعشى:

أرى رجلا منهم أسيفا كأنما يضم إلى كَشْحِيه كفا مُضْضبا³
حيث قال "مضضبا" والكف مؤنثة ،
وقال جرير في هجاء الأخطل:

لقد ولد الأخيطلَ أمُّ سوء على باب أُسْتِها صُلب وشام⁴
فقال "وَلَدَ الأخيطلَ أمُّ" والقاعدة تقضي بـ "ولدت الأخيطلَ أم".

وقال عامر بن جوين الطائي:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقلَ إيقالها¹
وجاء عليه من الذَّكر الحكيم:

¹ - عبد الكريم يعقوب؛ أشعار العامريين الجاهليين، دار الحوار، سوريا، ط 1، 1982، ص 54.

² - الديوان: تح محمد الزهري الغمراوي، البابي الحلبي، مصر، د. ط.، 1311هـ، ص 4.

³ - الديوان: ص 165.

⁴ - الديوان: ص 283.

قوله تعالى: ﴿ أَلَسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ المزملة الآية 18 حيث وصف السماء بالوصف المذكر "منفطر" ،

وقوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ هود الآية 67 ؛ حيث قال "أخذ" ولم يقل "أخذت" ،

وقوله: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ﴾ ق الآية 11 ؛ وقد قال في آية أخرى كذلك:

﴿لَنُنحِّيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا﴾

الفرقان الآية 49 ، وفي سورة الزخرف : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ الآية 11 ؛ حيث وصف

السماء في الآيات الثلاث بالمذكر ، ولا يخلو ذلك من دلالة ينبغي ألا نقف في تحليلها عند تحليل الفراء بالجرأة حين قال: >> العرب تجترئ على تذكير المؤنث إذا لم تكن فيه هاء <<² ، وإذا كانت دلالة "الميت" يستوي فيها المذكر والمؤنث كما ذكر الزجاج³ فإننا لن نعدم في التعبير دلالة إيقاعية أو تداولية أو إضافة معنوية تغيب في التزام الأصل ، وقوله تعالى: ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ يونس الآية 22 ؛ حيث قال "عاصف" ولم يقل "عاصفة" تبعا للفعل "جاءت" إذ الريح مؤنثة إلا عند بني أسد ، وكأنهم اجترؤوا على ذلك إذ لم تكن فيها هاء⁴ ،

¹ - ينظر : ابن يعيش ، شرح المفصل ، 94/5 .

² - الفراء ؛ المذكر والمؤنث ، ص 39 .

³ - ابن منظور ؛ لسان العرب : م . و . ت .

⁴ - ينظر الفراء ؛ المذكر والمؤنث : ص 39 .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسُقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ النحل
 الآية 66 ؛ حيث قال "بُطُونِهِ" ولم يقل "بطونها" باعتبار تأنيث الأنعام وباعتبار أن
 الحليب من خصائص الأنثى ،

وقوله: ﴿ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ النحل الآية 69 ؛ ولم يقل
 "مختلفة ألوانه".

أما العدول في مثل قوله: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ المائدة الآية 05 ،

وقوله: ﴿ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ هود الآية 10 ،

وقوله: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ الزمر الآية 51 ،

وقوله: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ ﴾ الممتحنة الآية 12 ،

وقوله: ﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ الأحزاب الآية 30 ،

فإنَّ المتحدَّثَ عنه في مثل هذه الآيات جمع ، و>> تأنيث الجمع ليس بحقيقي
 ولذلك أُتسع فيما أسند إليه إلحاق العلامة أو تركها <<¹ ، ولكن على الرغم من
 ذلك يبقى عدولا عن أصل المطابقة لأنَّ ترك الأصل فيه محمول على الاتساع كما
 تقدم .

¹ - الزمخشري ؛ المفصل : ص 174 .

ب/ العدول عن المذكر إلى المؤنث:

هو << الأذهب في التكثير والإغراب >>¹ على حد قول ابن جني المتقدم لأنه عدول عن أصل إلى فرع ، وحقيقته أن يؤنث ما حقه التذكير لفظاً أو معنى.

قال رويشد الطائي:

يا أيها الراكب المزجي مطيّه سائل بني أسد ما هذه الصوت²؟

حيث أنت الصوت فقال: "هذه الصوت" ولم يقل: هذا الصوت ،

وقد قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أَلْرُسُلُ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ط

وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴿ البقرة الآية 253 ؛ ولم يقل: "أولئك"

وقال أيضا: ﴿ وَرَبَّبِمْكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴿ النساء الآية 23 ؛ حيث

قال: "اللاتي" ولم يقل: "الذين" ،

وقال كذلك: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴿ المائدة الآية 32 ؛ فقال:

"جاءتهم" ولم يقل: "جاءهم" ،

وقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴿ الأحزاب الآية 9 ؛ فقال: "لم

تروها" ولم يقل: "لم تروهم" ، وهو عدول في الجنس والعدد ،

¹ - ابن جني ؛ الخصائص : 301/2 .

² - رويشد الطائي ؛ الديوان :

وقال أيضا: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ يونس الآية 22 ؛ فقال: "بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ" ولم يقل: "طَيِّب" ،

وقال كذلك: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ هود الآية 49 ؛ ولم يقل: "ذلك" ،

وقال تعالى في سورة الواقعة: ﴿ لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴾ ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ ﴿ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ ﴿ حيث عدل عن "منه" إلى "منها".

وأغلب ما تقدم في هذا النوع متعلق بالجمع ؛ وهو مما يتوسع في تذكيره أو تأنيثه ، ولكن عدم المطابقة عدول عن الأصل والبحث في دلالاته مما يتغيّاه الباحث ، لأنّ التوسع لا بد أن تكون وراءه غاية ما.

3/ العدول بين المعرفة والنكرة:

الاسم إمّا معرفة أو نكرة ، والنكرة >> ما شاع في جنس ؛ موجود : كـ :
"رجل" ، أو مقدّر كـ : "شمس" << ¹ ، وتعتبر النكرة هي الأصل لذلك كان محلّها التقديم ².

والمعرفة تخصيص للنكرة وحدّ من إطلاقها ، وهي ستة أنواع : الضمير ، والعلم ، واسم الإشارة ، والاسم الموصول ، و نو الأداة ، والمضاف إلى واحد من هذه الأصناف ³.

¹ - ابن هشام ؛ قطر الندى وبل الصدى ، المكتبة التجارية الكبرى ومطبعة السعادة ، مصر ط 11 ، 1963 ، ص : 93 ، و ينظر: تمام حسان ؛ الأصول ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1420 هـ - 2000 م ، ص : 120 .

² - ينظر: ابن هشام ؛ قطر الندى وبل الصدى ، ص: 93 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها.

وقد تنوب المعرفة عن النكرة والنكرة عن المعرفة ، فأما النوع الأول فقد مثل له النحاة بقولهم : " قضيةٌ ولا أبا حسنَ لها" ، وأما النوع الثاني فمنه قوله تعالى: " وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ"¹.

أ/العدول عن المعرفة إلى النكرة : هو من الوجهة النظرية ردُّ فرعٍ إلى أصله باعتبار المعرفة فرعا عن النكرة ، ولكنه في واقع اللغة ودلالاتها يتجاوز هذا التقسيم النظري إلى غايات بيانية وفنيّة يكشف عنها سياق العبارة ومكانها في النص ، وقد جاء منه في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ النساء الآية 47 ، >> وإنَّ القارئ ليتوقع أن يجد لفظ "وجوهكم" في مكان "وجوها" ، ولو كان ذلك كذلك ما أصاب المعنى أيُّ قدر من الفساد ولكن مجيئ الوعيد في صورة التكرير نسب الوجوه إلى أصحابها ولكن بصورة غير مباشرة ، ومن ثمَّ جاءت مترفعة غير محددة لأصحاب هذه الوجوه من بين أهل الكتاب ، أهُم دعاة الكفر منهم فقط؟ أم هم جميع أفراد الطائفة ؟ ، وهكذا يقود التكرير الذهن إلى مسارب للمعنى متعددة وهو ما قصدت إليه الآية <<² .

وقوله جلَّ شأنه : ﴿ أُولَٰئِكَ هُم جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

¹ - ينظر : تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، ص: 352 .

² - السابق : ص: 356 .

مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَابِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسَنَتٍ مُرْتَفَقًا ﴿١٦﴾ الكهف الآية
31 ؛ إذ إنّ << تنكير أساور لإبهام أمرها في الحسن >> ¹ .

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا
قَدَمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ الحشر الآية 18
؛ حيث أثر السياق لفظ "نفس" في صيغة النكرة ، وفي ذلك تعميم وشمولية ،
>> دليل إرادة العموم هنا أنك لو وضعت لفظ "كل" قبل كلمة "نفس" لظل
هيكل المعنى وإطاره العام كما هو ، ومعنى هذا أنّ التنكير ، أغنى عن لفظ
"كل" بما أفاده من معنى العموم << ² ، وأثر لفظ "غد" نكرة كذلك ؛ قال
الزمخشري : << أما تنكير "الغد" فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: "الغد لا
يُعرف كنههُ لعظمِهِ " >> ³ .

وقوله جلّ شأنه : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ ۚ مِنْ
الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ البقرة الآية 96 ؛ لأنّ
المكان لـ : "الحياة" وهي في مقابل الموت ، ولكنّ تنكيرها أشربها معنى آخر
هو أنّ الكفار يرضون بأدنى أنواع الحياة ، ذلك أنه >> نكّر الحياة قصدا
للتنويح ، أي كيفما كانت تلك الحياة << ⁴ ، أو أنها حياة مخصوصة هي الحياة

¹ - الزمخشري ؛ الكشف ، 64/3 ، وينظر : النيسابوري ؛ غرائب القرآن و رغائب الفرقان ، تح ، إبراهيم

عطوة عوض ، مطبعة مصطفى بابي الحلبي ، مصر ، ط1 ، 1384 هـ - 1965 م ، 130/15 .

² - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، ص357 .

³ - الزمخشري ؛ الكشف ، 372/4 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 617/1 .

المتطاوله ؛ قال الزمخشري: >> فإن قلت لم قال: بـحياةٍ على التـكـيـر ؟ قلت لأنه أراد حياةً مخصوصةً وهي الحياة المتطاوله ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبيّ: "على الحياة" <<¹.

ب- العدول عن النكرة إلى المعرفة :

منه قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَبُوا بِهِءٍ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ

الذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ يوسف الآية 13 ؛ حيث جاء لفظ

"الذئب" معرفاً ، وليس المقصود ذئباً محدداً ، إذ إنه >> هنا مراد به غير معين من نوع الذئب أو جماعة منه ... [و] المرادُ أَيْةٌ ذات من هذا الجنس دون تعيين ، ونظيره قوله تعالى: " كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا " ، أي فرد من الحمير غير معين ، وقرينة إرادة الفرد دون الجنس إسناد حمل الأسفار إليه لأنَّ الجنس لا يحمل ، وهذا التعريف شبيه بالنكرة في المعنى إلا أنه مراد به فرد من الجنس <<².

وقوله جلّ ذكره : ﴿....فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ^ط

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت الآية 17 ؛ إذ >> تعريف "الرزق" هنا أفاد أنه لا

رازق إلا الله لإفادة "ال" معنى استغراق الجنس ، وما كان يمكن الوصول إلى هذا القصر في المعنى لو أنّ الرزق قد جاء على صورة النكرة ، فلو قيل "فابتغوا عند الله رزقا" ما كان هذا القول حائلا دون فهم التعدد لمصادر الرزق <<³.

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف ، 155/1 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 231/5 .

³ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، 358 .

وقوله جلّ شأنه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ الشورى الآية 49 ؛ حيث >> جاءت الإناث نكرة والذكور معرفة من أجل الفاصلة ولو نكر لتغيّر جرس الفاصلة واختلفت عما قبلها<< ، و رأى الزمخشري في تعريف "الذكور" ردًا للاعتبار المفقود بتأخيرهم عن الإناث في ترتيب الذكّر ؛ إذ عادة العرب تقديمهم عن الإناث ؛ قال >> تدارك تأخيرهم وهم أحقّاء بالتقديم بتعريفهم لأنّ التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: "ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم" ¹ ، ورأى الطاهر بن عاشور أنّ التعريف هنا للجنس أو العهد ، قال : >> وتعريف "الذكور" باللام لأنهم الصنف المعهود للمخاطبين ، فاللام لتعريف الجنس ، وإنّما يُصار إلى تعريف الجنس لمقصد ؛ أي يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون عنه وترغبون فيه على حدّ قول العرب: " أرسلها العرّاك" <<².

وحتى في المعرفة يمكن أن يعدل عن نوع من المعارف إلى نوع آخر لغاية بلاغية أو فنية على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿﴾ ؛ حيث قالت "النفس" وعرفتھا بالجنس بدل الإضافة ، وكان يمكن أن تقول: >> "إنّ نفسي لأمّارة بالسوء" فتقوّت على نفسها فرصة الاحتماء بالطبيعة الإنسانية ، إذ تؤكد اتهام النفس على إطلاقها في موضع تسعى فيه إلى استخلاص بقية من حسن الظنّ

¹ - الزمخشري ؛ الكشف ، 142/4 .

² الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 138/10 .

بها ، بواسطة وقوفها موقف التائب المعترف بالخطأ ، ومن هنا كان اختيار كلمة "النفس" لتعمّ نفوس البشر جميعا ، ومنها نفسها هي <<¹

4/ العدول بين الضمائر:

المقصود بالعدول بين الضمائر أن يكون الكلام بصيغة المخاطب وهو مُوجَّه إلى الغائب ، أو بلفظ الغائب ومقصود به المخاطب الحاضر ، أو أن يكون الكلام عن فرد أو جماعة بلفظ الغائب ، ثم يترك له المجال ليتكلم عن نفسه بضمير المتكلم ، ويتحدد العدول بين الضمائر في النص عندما يتطلب السياق واحدا من الضمائر الثلاثة (تكلم ، خطاب ، غيبة) ليُطابق عَجْزُ الكلام صدره فيعدل عن ذلك إلى ضمير آخر لا يتطابق مع ما تقدمه.

وهو ضرب من التعبير معروف في كلام البلغاء ؛ إذ >> من سنن العرب أن تخاطب الشاهد ثم تحول الخطاب إلى الغائب أو تخاطب الغائب ثم تحوله إلى الشاهد ، وهو الالتفات <<²، قال النابغة:

يَا دَارَ مِيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمْدِ³
ولما كانت أنواع الضمائر ثلاثة (تكلم ، خطاب ، غيبة) فإن صور العدول الممكنة نظرياً ست هي:

أ- العدول عن التكلم إلى الخطاب ،

ب - العدول عن التكلم إلى الغيبة ،

¹ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، 320 .

² - السيوطي ؛ المزهري : 264/1 .

³ - النابغة الذبياني ؛ الديوان شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 ، 1996

ج - العدول عن الخطاب إلى التكلم ،

د - العدول عن الخطاب إلى الغيبة ،

هـ - العدول عن الغيبة إلى التكلم ،

و - العدول عن الغيبة إلى الخطاب.

وهذه نماذج عن كل نوع:

أ / العدول عن التكلم إلى الخطاب:

يكون ذلك بترك أحد الضميرين "أنا" ، أو "نحن" إلى واحد من ضمائر الخطاب "أنت" ، "أنتِ" ، "أنتم" ، "أنتن" ، ليحلَّ المخاطبُ محلَّ المتكلم ، وهو ضرب من التجرد من "الأنا" يتجلى في سلوك المتكلم سلوكاً غريباً ينفصل فيه عن ذاته فيصورها شخصاً آخر يأمره وينهاه ، ينصحه ويوبِّخه ، وهو ما سمَّاه البلاغيون "التجريد" حيث >> يخاطب الإنسان منهم نفسه حتى كأنها تقابله أو تخاطبه <<¹ وتحت هذا التصرف مقاصد نحاول الوقوف عليها في مكانها من البحث.

وهذا النوع >> يعد أقل السياقات وروداً في الخطاب القرآني إذ لم نجد على حد معرفتنا إلا مثالا واحداً ، ولم تورد كتب إعجاز القرآن وعلومه أمثلة عن هذا السياق أيضاً إلا هذا المثال الواحد المتمثل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ

هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِّرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا

¹ - إنعام نوال عكاوي ؛ المعجم المفصل في علوم البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1417 هـ ، 1966 م ، ص 290.

الصَّلَوةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ الأنعام: الآيتان 71 ، 72 <<¹

؛ حيث عدل عن ضمير المتكلم في الأفعال: "أَقِيمُوا" ، "اتَّقُوهُ" ، "تُحْشَرُونَ" وكان السياق يوجب "تُقِيمَ" ، "تَنْقِيهِ" ، "تُحْشَرُ" ، وذلك لتقدم قوله "لِنُسَلِّمَ".

وقد عثرت له على مثال ثانٍ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي

وَالَّذِي تَرْجَعُونَ ﴾ يس الآية 22 ؛ حيث قال : "تُرْجَعُونَ" ولم يقل "أُرْجَعُ"

ليتطابق مع "أَعْبُدُ" ، و "فَطَرَنِي".

قال ابن الأثير : >> إنما صرف الكلام من خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه

أبرز لهم الكلام في معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم لأن ذلك أدخل في إمحاض النصيح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه <<²

ب/ العدول عن التكلم إلى الغيبة:

هو العدول عن أحد الضميرين " أنا " ، " نحن " إلى أحد الضمائر " هو ، هي

، هما ، هم ، هن " وجاء منه في القرآن الشيء الكثير، من ذلك :

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ^ط

وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ البقرة الآية 253 ؛ إذ يقضي ظاهر السياق بـ :

"كَلَّمْنَا" بدل : "كَلَّمَ اللَّهُ" لأنه قال في صدر الآية : " فَضَّلْنَا " ، وفي الآية زيادة على

ذلك عدول عن الإضمار إلى الإظهار ،

¹ - مازن موفق صديق الخير ؛ الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، ط1 ،

2010م ، ص 171 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 7/2 .

وقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا

لَهُمْ مِّن نَّصِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ

أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ آل عمران الآيتان 56 ، 57 ؛ حيث

قال في الأولى "أَعَذَّبْنَاهُمْ" ، وفي الثانية "يُوَفِّيهِمْ" بدل "أُوَفِّيهِمْ" ،

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ النساء الآية

64 ؛ حيث قال " بإذن الله " ولم يقل: " بإذننا " تماشياً مع "أَرْسَلْنَا" ، وفي هذه

الآية كسابقها زيادة عن العدول بين الضمائر عدول عن إضمار الفاعل إلى إظهاره ممثلاً في لفظ الجلالة ،

وهو ما نجده كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿٣٢﴾ النساء الآية 22 ؛ حيث قال " وَعَدَّ اللَّهُ " ولم يقل

" وَعَدَّنَا " عطفاً على قوله "نُدْخِلُهُمْ" ،

وفي قوله عزّ ذكره: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ

﴿٣٨﴾ ؛ حيث قال : "إلى ربهم" ولم يقل : "إلينا" ،

وقوله: ﴿ وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمٍّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ الأعراف الآية

142 ؛ ولم يقل " مِيقَاتُنَا " ،

وقوله: ﴿لِتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ^ج الرد الآية 30 ؛ حيث قال " بالرحمن " ولم يقل " بنا " .

وقد أفسح هذا العدول ظهورَ الفاعل "الله" باسم آخر من أسمائه الحسنی " الرحمن " وفي ذلك ما فيه من الدلالة التي كان سيغيبها التزام الأصل في إيراد الضمير "نا" بدل الاسم الظاهر.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ^١ إبراهيم الآية 01 ؛ حيث قال: "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ" ولم يقل: "بِإِذْنِنَا" ، ولا يخفى أن العدول كان مزدوجاً كذلك بين الضمائر والإظهار حيث أفاد لفظ "رَبِّهِمْ" ما يقصر عنه الضمير "أنا" وكذلك "صراط العزيز الحميد" بدل "صراطنا" حيث ظهر الفاعل كذلك باسمين آخرين.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ^{٤١} ص الآية 41 ؛ حيث قال "نَادَى رَبَّهُ" ولم يقل " نادانا " ، وواضح كذلك أن العدول مكن من إظهار لفظ "الرَّب" ليضاف إلى ضمير النبي أيوب - عليه السلام - إضافة تشرية.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^{٢٦} فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ؕ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿ الجاثية الآيتان: 29 ، 30 ، حيث قال "يُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ" بعد أن قال

"تَسْتَسِيخُ" ، وقد مَنَّ العدول في الضمير كذلك من إظهار الفاعل "رب" ثم إضافته إلى ضمير المؤمنين إضافة تشریف.

والدلالة نفسها أفادها العدول في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ

تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾

الإنسان الآيتان : 28 29 ؛ حيث قال "إلى ربّه" ولم يقل "إلينا" ،

وقوله جلّ ذكره: ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿٧﴾ الأعلی الآيتان

6 ، 7 ؛ حيث قال: "ما شاء الله" ولم يقل: "ما شئنا" لتتطابق مع "نُقَرِّئُكَ".

والذي لاحظناه على هذه الصورة من العدول أنها غالبا ما تتعلق بالذات الإلهية وتفتقر في مواضع كثيرة بالعدول عن الإضمار إلى إظهار الذات الفاعلة بأحد الأسماء الحسنى ، كما أنها صورة من الكثرة والاطراد بحيث تستعصي عن الإحصاء.

ج- العدول عن الخطاب إلى التكلم:

هو انصراف المتكلم عن خطاب غيره إلى خطاب نفسه ، وهي صورة لا تختلف عن نقيضتها (العدول عن التكلم إلى الخطاب) في ندرة نماذجها ، أفدنا هذا من البحث الذي قمنا به ، ومما ذكره الدكتور مازن موفق صديق الخير في مؤلفه "الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني" ¹ وقد ساق لها نموذجا وحيدا هو قوله تعالى على لسان سيدنا شعيب -عليه السلام- مخاطبا قومه: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٤١﴾ هود الآية 90 ؛ حيث كان

¹ - ينظر : مازن موفق صديق الخير؛ الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني ، ص 174 .

الخطاب منه - عليه السلام - صريحا في قوله "اسْتَغْفِرُوا" ، "تُوبُوا" ثُمَّ عدل عن الخطاب إلى التكلم فقال : "رَبِّي" ولم يقل "رَبِّكُمْ" ، وهو نفسه ما أكده في الآية اللاحقة حين قال ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ بعد أن قال : ﴿ يَقَوْمِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذَتْهُمُ وِرَاءَ كُفْرِهِمْ ظَهْرِيًّا ﴾ هود الآية 92.

د/ العدول عن الخطاب إلى الغيبة:

هو أن يكون المتحدث آخذا في خطاب غيره ثم ينصرف عنه إلى غائب ذي علاقة بالمخاطب ، وهي صورة كثيرة الورد في فصيح الكلام إذ >> من سنن العرب أن تخاطب الشاهد ثم تحول الخطاب إلى الغائب <<¹ ومثلوا لها بيت النابغة المتقدم .

قال ابن الأثير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾

الأنبياء الآيتان 92 ، 93 ؛ >> الأصل في "تَقَطَّعُوا" "تَقَطَّعْتُمْ" عطا عن الأول إلا أنه حَرَفَ الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريق الالتفات <<² .

وقال الزمخشري: >> الأصل "تقطعتم" إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله <<³

¹ - السيوطي ؛ المزهري : 264/1 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 10/2 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف ، 105/3 .

وأشهر آية استشهد به المفسرون وعلماء اللغة على هذه الصورة من العدول¹
 قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا
 جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
 دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أُنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ
 ﴿٢٢﴾ يونس الآية 22 ؛ حيث قال: "جَرَيْنَ بِهِمْ" ولم يقل "بِكُمْ" .

والنماذج على هذه الصورة كثيرة كما تقدم نجتزئ بذكر بعضها:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نَخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ إبراهيم الآية 38 ؛ حيث قال: "على الله"
 ولم يقل "عليك".

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا تَخْرُجُ مِنْ
 بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴿٦٩﴾ النحل الآية 69 ؛ ولم يقل:
 "بُطُونِكِ" عطفًا على "كلي" و"اسلُكي" .

وقال جلَّ شأنه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٠٩﴾ آل عمران الآية 09 ؛ حيث قال: "لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ" ولم
 يقل: "لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ" ،

¹ - نفسه ، و ينظر : ابن جني ؛ المحتسب ، : 145/1 ، والزرکشي ؛ البرهان : 366/3 ، والطاهر بن
 عاشور ؛ التحرير والتتوير : 136/5 .

وقال عزّ من قائل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾^ط
 الأنفال الآية 01 ؛ حيث قال: "الله والرّسول" ولم يقل: "الله و"لك" ، أو "لنا" و"لك" .
 وقوله تقدست أسماؤه : ﴿ يَيِّحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾^ط
 ﴿ مريم الآية 12 ؛ فقال: "أتيناه" بعد أن قال: " خذ " ، والسياق يقتضي
 "أتيناك".

وقوله عز ذكره: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا
 وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾^ط ﴿ النور الآية 12 ؛ حيث قال : "ظنّ المؤمنون" ولم
 يقل: "ظننتم".

وقوله: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن
 كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^ط ﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا... ﴾ فصلت الآيتان 37 ، 38
 حيث قال: "استكبروا" ولم يقل: "استكبرتم" ،

وقوله عزّ ذكره: ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ
 دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^ط ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ
 أَيْدِيهِمْ ﴾^ط ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾^ط ﴿ سورة الجمعة الآيتان 06 ، 07 ؛ حيث
 قال: "يتمنونه" ولم يقل: "تتمنونه"

وقوله جلّ شأنه في السورة نفسها: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَوًّا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴿ الآيتان 10 ، 11 ؛ إذ قال: "رأوا" ، "انفضوا" ، "تركوك" والسياق يوجب "رأيتم" ، "انفضضتم" ، "تركتكم".

وقوله: ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿ ﴿ وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَإِذَا قَرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿ ﴿ الآيات 18 ، 19 ، 20 ، 21 ؛ فقال: "مالهم" ، "يؤمنون" ، "عليهم" ، "يسجدون" بعد أن قال "لتركبن".

وهي نماذج تكفي للتدليل على كثرة العدول عن الخطاب إلى الغيبة.

هـ/ العدول عن الغيبة إلى التكلم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ﴿ آل عمران الآية 181 ؛ حيث عدل السياق عن الغيبة ممثلة في لفظ الجلالة "الله" في قوله "لقد سمع الله" إلى التكلم في قوله "نكتب" و"نقول" ، ذلك أنّ المطابقة بين الضمائر توجب أن يكون الفعلان "كتب" ، "قال" مسندَيْنِ إلى ضمير المفرد الغائب.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا

مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ النساء الآية 174 ؛ حيث أسند الفعل "أنزل" إلى ضمير المتكلمين

فقال: "أنزلنا" ولم يقل: "أنزل" تماشياً مع ضمير الغيبة الملحوظ في "ربكم".

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۖ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ الأنعام الآية 126 ؛ فقال "فصلنا" ولم يقل "فصل" ،

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۖ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۗ﴾ الإسراء الآية 08 ؛ فقال

"عدنا" ولم يقل "عاد" عطفاً على "ربكم" ،

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ

بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴿٨٨﴾ النحل الآية 88 ؛ حيث قال "زدناهم" ولم

يقول "زادهم" تماماً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

﴿ الكهف الآية 13.

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ ۖ مِنْ ضُرِّ ۗ ﴿٨٣﴾ الأنبياء الآيتان 83 ، 84 ؛ فقال

"استجبنا" ولم يقل: "استجاب" .

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٥﴾ الفرقان الآيتان 45 ، 46 ؛ فقال "جَعَلْنَا" ، "قَبَضْنَا" بعد أن قال "مَدَّ" ، و"شَاءَ".

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا تَجْحَدُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ فصلت الآية 28 ؛ حيث قال "بِآيَاتِنَا" ولم يقل: "بِآيَاتِهِ".

وقوله: ﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الزخرف الآية 32 ؛ حيث قال: "نَحْنُ قَسَمْنَا" بدل: "هُوَ قَسَمَ".

وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ ﴿٨﴾ الطلاق الآية 08 ؛ فقال: "فَحَاسَبْنَاهَا" و"عَذَّبْنَاهَا" ولم يقل "حَاسَبَهَا" و"عَذَّبَهَا" تماشيا مع "رَبَّهَا".

وقوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ الآيتان 08 ، 09 ؛ حيث قال: "نُطْعِمُكُمْ" ، ولم يقل: "نُطْعِمُهُمْ" ، وقال: "مِنكُمْ" ولم يقل: "مِنْهُمْ".

وقد لاحظنا على هذه الصورة كذلك الكثرة والاطراد وكذا اقترانها في أغلب أحوالها بالذات الإلهية .

و/ العدول عن الغيبة إلى الخطاب:

أسلوب معروف في القرآن وأقرب آية لتمثيله سورة الفاتحة حيث افتتحت بأسلوب الغيبة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ثم عدل إلى الخطاب فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ قال ابن الأثير: >> استعمل لفظ "الحمد" لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: "الحمد لله" ولم يقل: "الحمد لك" ، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: "إياك نعبد" ، فخاطب بالعبادة إصرًا بها وتقربًا منه عزَّ اسمه ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" ، فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة <<¹ .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾ ﴿ مريم الآيتان 88 ، 89 ؛ رأى أن الالتفات >> حصل لفائدة حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبئها لهم على عظيم ما قالوه كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا لهم <<² .

وهذه نماذج لصورة العدول عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ ﴿ النساء الآية 80 ؛ حيث يقضي السياق — : "أَرْسَلْنَاكَ بِدَلِّ" "أَرْسَلْنَاكَ" ،

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 5/2 .

² - نفسه : 5/2 .

وقال عزّ ذكره: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
 أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ
 فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ التوبة
 الآية 03 ؛ حيث قال "تُبتُمْ" ولم يقل "تَابُوا" ، وقال: "تَوَلَّيْتُمْ" ولم يقل : "تَوَلَّوْا" .

وقوله في السورة نفسها: ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَن ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ
 رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أَُولَؤُلَؤُا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ الآية 86 ؛ والسياق يقضي بـ
 "استأذَنُوهُ" ليتطابق ضمير الفعل مع ضمير الغيبة الملحوظ في "رَسُولِهِ" ،

وقوله تعالى: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي تُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ النمل الآية 25 ؛ حيث قال : "تُخْفُونَ" ،
 "تُعْلِنُونَ" بعد أن قال: "يَسْجُدُوا" ،

وقوله: ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِّنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ بلى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِّنَ
 الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ الزمر الآيتان: 58 ، 59 ؛ فقال : "جاءتْكَ" ، "كَذَّبْتَ" بدل
 "جاءتها" ، "كَذَّبْتَ" (أي النفس) ،

وقوله: ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ الجاثية الآية 28 ؛ فقال: "تُجْزَوْنَ" ولم يقل "تُجْزَى" وفيه كذلك

حمل على المعنى في عدوله الثاني من المفرد في (أمة) إلى الجمع في (تجزون) لأن الأمة لفظ مفرد يفيد الجمع ،

وقوله: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا

عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ الآيتان 07 ، 08 ؛ فعدل عن "يُبْعَثُنَّ" إلى "تُبْعَثُنَّ"

، وعن "يُنَبُّونَ" إلى "تُنَبُّونَ" ، وعن "عَمِلُوا" إلى "عَمِلْتُمْ" ،

وقوله: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نُبَّانِيُّ الْعَلِيمِ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ

فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴿٤﴾ التحريم الآيتان 03 ، 04 ؛ فقال : " تَتُوبَا" ولم يقل:

"يَتُوبَا" ،

وقوله: ﴿ فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ

﴿٤٢﴾ المدثر الآيات 40 ، 41 ، 42 ؛ حيث عدل عن "سَلَكَهُمْ" إلى "سَلَكَكُمْ" .

5/العدول بين المشتقات

نقل السيوطي عن ابن فارس أنه >> من سنن العرب التعويض ، وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة ، كإقامة المصدر مقام الأمر نحو: "فَضْرَبَ الرَّقَابِ" ، والفاعل مقام المصدر نحو: "لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كاذِبَةٌ" أي تكذيب ، والمفعول مقام المصدر نحو: "بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونُ" أي الفتنة ، والمفعول مقام الفاعل نحو: "حِجَابًا مَسْتُورًا" أي ساترا <<¹ .

ولكن قبل الحديث عن العدول بين المشتقات لابد من الإلماع إلى حدّ الاشتقاق² بوصفه طريقاً لإثراء اللغة وإمداد مستعملها بالمادة المعجمية والصرفية الكفيلة بنقل المعاني المختلفة ، والتمييز بين معنى وآخر في المادة الواحدة ، وهذا سبب متين يربط الاشتقاق بالدلالة ويسوّغ إدراجه ضمن مباحثها ، ثم التعرض لذكر أنواعه وبخاصة الاشتقاق الأصغر الذي تتدرج تحته سائر المشتقات ، لنخلص إلى أنّ عودة المشتقات إلى أصل واحد معناه التقارب الدلالي بينها الأمر الذي يجعل العدول عن واحد منها إلى آخر أمراً مستساغاً عندما تدعو إليه الحاجة البيانية أو الفنية ، قال في شرح التسهيل: >> الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب ... ك: "ضاربٍ" من ضَرَبَ ، و "حَذِرٍ" من حَذَرَ <<³ ، وقال الزجاج: >> معنى الاشتقاق أن يوضع شيء مسانفاً على

¹ - السيوطي ؛ المزهري: 267/1 .

² - لأهمية الاشتقاق أفردته بالتأليف جماعة من المتقدمين منهم: الأصمعي ، وقطرب ، وأبو الحسن الأخفش ، وأبو النصر الباهلي ، والمفضل بن سلمة ، والمبرد ، وابن دريد ، والزجاج ، وابن السراج ، والرماني ، والنحاس ، وابن خالويه ، نفسه: 278/1 .

³ - نفسه : 275/1 .

أصل سبق <<¹ ، وعرفه ابن عصفور بأنه >> إنشاء فرع من أصل يدل عليه <<².

بمعنى أن في كل اشتقاق أصلاً مشتقاً منه وفرعاً مشتقاً وهي قضية تعود بنا إلى الخلاف بين البصريين والكوفيين في اعتبار الأصل أهو المصدر أم الفعل ، وهي مسألة نرغب في تجاوزها لأنها ليست من اهتمامات البحث ، لذلك فسوف نعتبر أن >> الأصل في الاشتقاق أن يكون من المصادر <<³ ، وأن >> مرجع الجميع إلى المصدر والكل مشتق منه ؛ إما بواسطة أو بلا واسطة <<⁴ وهو الرأي البصري الذي نعتمده هنا معتبرين المصدر صيغة يعدل عنها ، أو إليها وهذا لضرورة منهجية وموضوعية تتمثل في كثرة الأساليب المتضمنة عدولا بين المصادر والمشتقات ، أو بين المصادر المتقاربة دلالياً.

أنواع الاشتقاق:

1/ الاشتقاق الصغير أو الأصغر: هو ما تماثلت فيه الأحرف الأصلية للمشتق والمأخذ بأعيانها وبنفس ترتيب مواقعها فيهما بصرف النظر عما قد يكون في صيغة المشتق ، وذلك كاشتقاق الخيرة من خير والكتاب من كتب⁵

¹ - الزجاج ؛ اشتقاق أسماء الله الحسنى ، تح عبد المحسن المبارك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1986م : ص 273 .

² - ابن عصفور ؛ الممتع في التصريف ، تح فخر الدين قباوة ، الدار العربية للكتاب ، الجماهيرية العربية الليبية ، ط 5 ، 1983م ، 41/1 .

³ - السيوطي ؛ المزهري : 278/1 .

⁴ - النفتزاني ؛ شرح مختصر التصريف العزبي في فن الصرف ، ص 27 .

⁵ - ينظر : محمد حسن حسن جبل ، علم الاشتقاق نظرياً وتطبيقياً ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 2 ، 2009 م ، ص 40 .

2/ الاشتقاق الكبير: هو ما تماثلت فيه الأحرف الأصلية للمشتق والمأخذ ولكن اختلف ترتيب مواقع تلك الأحرف وهو نوعان :

أ- تقاليب المادة الواحدة مثل تقاليب مادة (ب ، ج ، ر) : جبر ، جرب ، بجر ، برج ، رجب ، رجب.

ب- ما عرف في الدراسات القديمة باسم "القلب المكاني" مثل: جبد ، جذب ، وطسم ، وطمس.¹

3/ الاشتقاق الأكبر: هو ما لم تتماثل فيه كلُّ أحرف الكلمتين وإنما تماثل بعضها وتقارب بعضها الآخر وهو نوعان:

أ- التصاقب مثل: نهق ونعق ، وجرف وجلف ، وسدل وستر ...

ب- الإبدال اللغوي مثل: مدح ومده ، وبنات بخر وبنات مخر ، والرسغ والرصغ

4/ الاشتقاق الكبّار أو النحت: مثل "بسمل" من بسم الله الرحمن الرحيم و"حيعل" من حيّ على الصلاة...²

والذي يعنينا من هذه الأنواع هو الاشتقاق الأصغر لأنه المحتج به³ كما أنه أهمُّ الأقسام عند الصرفي¹ فضلا على أن المشتقات هي نتيجة أعمال الاشتقاق الأصغر دون غيره من الأنواع.

¹ - السابق : الصفحة نفسها .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

³ - ينظر : السيوطي ؛ المزهري : 275/1 .

والأصل في المشتقات أن يفيد كل واحد معنى لا يفيد غيره ، تماما كما الأصل في المفردات ، إلا أن ما يعترى المفردات من ظواهر دلالية كالترادف والاشتراك وغير ذلك من العلاقات الدلالية يكون كذلك في المشتقات ؛ يفيد المشتق الواحد معناه ومعنى مشتق آخر في ما يمكن أن نطلق عليه "الاشتراك الصيغي" نسبة إلى الصيغة، ويحلُّ مشتق محل آخر فيما يمكن أن يُسمَّى "الترادف" بين الصيغ ، إلا أن مثل هذه الإفادة ليست إفادة تطابق لأنه حين يعدل عن مشتق إلى آخر لا بد أن يكون في المشتق المعدول إليه معنى المشتق المعدول عنه وزيادة ، وهذا ما نسعى لبحثه تحت عنوان العدول بين المشتقات الذي يتعرّف بأنه >> نيابة صيغة عن صيغة أخرى في أداء المعنى <<² ، كنيابة المصدر عن اسم الفاعل أو اسم المفعول ، أو نيابة اسم الفاعل عن اسم المفعول أو غير ذلك مما سنذكر هنا ونفصل لاحقا.

¹ - ينظر : أحمد الحماوي ؛ شذى العرف في فنّ الصرف ، تح يوسف الشيخ محمد ، دار الكتاب

العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2004م ، ص 63 .

² - سيف الدين طه الفقراء ؛ المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ،

ط 1 ، 1425هـ - 2004م ، ص 153 .

1/ العدول إلى المصدر

وإنما بدأنا به لأنه أصل المشتقات كما تقدم ، ودون التعرض لأبنيته الكثيرة¹ نباشر عرض نماذج العدول التي يكون المصدر فيها معدولا إليه عن واحد من المشتقات.

فالعدول عن المشتقات إلى المصادر كثيرٌ مطَّرد في فصيح الكلام وعليه جاء كثير من الشعر والقرآن ؛ قال ابن مالك:

وَنَعْتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَرَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّكْثِيرَا

وقال سيبويه: >> إنَّ العرب تقول: "ماء غور" ، ومجازه غائر ، و"رجل عدل" ، و"صوم" ومجازه عادل وصائم ، وأنتيته "ركضا" أي راكضا ، و"مفازة قفر" أي مُقْفَرَةٌ ، و"ما أنت إلا نوم" ، و"ما زيد إلا أكلٌ وشربٌ" ، و"إنما أنت دخول وخروج" ، و"بنو فلان لنا سلم" أو "هم علينا حرب" <<² ، وأنشد قول الخنساء:

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ <<³
أي مقبلة ومدبرة.

ومن شواهد هذا الباب قول الشاعر :

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمَن وإن تخرقي يا هند فالخرق أَلَمٌ
فأنت طلاقٌ والطلاق عزيمة ثلاثٌ ومن يخرق أعقٌ وأظلم¹

¹ - تتجاوز من الثلاثي المجرد وحده حسب ما ذكره سيبويه اثنتين وثلاثين بناء ، ينظر في ذلك الزمخشري ؛

المفصل : ص 188 .

² - سيبويه ؛ الكتاب :ص

³ - الخنساء ؛ ديوان الخنساء ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر، د.ط ، 2002 م ، ص35 .

والأصل أن لا يوصف بالمصدر >> وإنما انصرفت العرب عنه في بعض الأحوال إلى أن وصفت بالمصدر لأمرين أحدهما صناعي والآخر معنوي ؛ أمّا الصناعي فليزيدك أنسا بشبه المصدر بالصفة التي أوقعته موقعها ، وأمّا المعنوي فلأنه إذا وُصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل ، وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه ... ، فقولك إذاً هذا رجل دَنَفٌ بكسر النون أقوى إعراباً لأنه هو الصفة المحضة غير المتجوّزة ، وقولك رجل دَنَفٌ أقوى معنى لما ذكرناه من كونه كأنه مخلوق من ذات الفعل وهذا معنى لا نجده ولا نتمكن منه مع الصفة الصريحة >>²

هذا فضلاً عما بين كل بناء وآخر من اختلاف في الإيقاع يعين على تحقيق التوازن الموسيقي بين أجزاء الكلام ، وقد >> جاء المصدر نعنا وحالاً وخبراً على سبيل المبالغة في الوصف >>³ ، وفي ما يلي أهم صور العدول عن المشتقات إلى المصدر :

أ / العدول عن اسم الفاعل إلى المصدر : من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا

يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ؛ حيث قال ملح ولم يقل

¹ - ابن هشام ؛ مغني اللبيب: 76/1 .

² - ابن جني ؛ الخصائص : 259/3 ، 260 .

³ - الوصف بالمصدر ؛ أحمد عبد الستار الجوّاري ، ص 14 ، نقلا عن محروس محمد محروس البنية الصرفية وأثرها في تغير الدلالة ، ص 91 .

مالح ، قال في أدب الكاتب >> الماء الفرات: العذب ، والأجاج: المِلْحُ ، ويقال ماء مِلْحٌ ولا يقال مَالِحٌ <<¹ ،

وقوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ طه الآية 114 ؛ أي المحقُّ ،

وقوله عز ذكره: ﴿ ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَا تَيْنِكَ سَعِيًّا ﴾ البقرة الآية 260 ؛ أي ساعيات،

وقوله: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾ يوسف الآية 64 ؛ قرأ بذلك حفص وحمزة والكسائي ، وقرأ الباقون " حَفِظًا " على المصدرية ² ،

وقوله: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ الكهف الآية 41 ، أي غائرا ، ومثله:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ الملك الآية

30 ؛ لأن >> الإخبار به عن الماء من باب الوصف بالمصدر للمبالغة مثل عدل ورضى <<³ ،

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ

عَامِهِمْ هَذَا ﴾ التوبة الآية 28 ، حيث وصف المشركين بالمصدر "نجس" ولا

تخفى المبالغة في هذا الوصف ،

¹ - ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب ، تح علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1408 هـ — 1988 م ، ص: 127 .

² - الداني ؛ التيسير في القراءات السبع ، تح محمد بيومي ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، ط 1 ، 1427 هـ — 2006 م ، ص127 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير و التتوير ، 56/12 .

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ يونس الآية

5 ، حيث عدل عن "مضيئة" و "منيرا" إلى مصدريهما.

ب- العدول عن اسم المفعول إلى المصدر:

قال سيبويه: >> العرب تقول في اللبن حَلَبَ ومجازه مَحْلُوبٌ ، وفي الدرهم ضَرَبَ الأمير ومجازه مضروب الأمير ، وكقولهم: الخلق ، ومجازه المخلوق <<¹ ، ومنه في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: >> من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ <<².

وجاء منه في القرآن العظيم:

- ﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة الآية 33 ، لأنَّ "الوسع" مصدر بمعنى المفعول بالكسر أو الفتح أو الضم³ ،

- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ البقرة الآية 216 ، أي مكروه ،

- ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ البقرة الآية 255 ؛ أي معلومه ،

- ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ المائدة الآية 95 ؛ أي

المصيد

¹ - سيبويه ؛ الكتاب : 43/4 .

² - البخاري ؛ صحيح البخاري ، تح مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط 3 ، 1987م - 1407 هـ ، ص 259 .

³ - ينظر : الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 433/2 .

- ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعَدُهُ مَأْتِيًا ﴾ مريم الآية 61 >> ووعدده في هذا الموضع موعوده وهو الجنة <<¹ ،

- ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ يوسف الآية 18 ؛ أي مكذوب ،

- ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ لقمان الآية 11 ؛ أي مخلوقاته.

ج- العدول عن الصفة المشبهة إلى المصدر :

جاءت عليه الآية: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ، تَجْعَلِ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام الآية 125 عند من قرأ بالفتح لأنه >> إذا حَمَلت

"حرجا" على أنه مصدر فهي عدول عن الصفة المشبهة إلى المصدر وفيه مبالغة في إثبات المعنى ؛ حيث عدل عن وصف قلب الكافر بأنه ضيق حرج إلى جعله الضيق والحرج نفسيهما <<² ،

والآية: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ المائدة

الآية 02 ؛ حيث قال "الشهر الحرام" ولم يقل "المحرّم فيه" ،

والآية : ﴿ فَابَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء الآية 99 ؛ حيث قال: "كُفُورًا"

ولم يقل: كُفُورًا.

¹ - محمد بن جرير الطبري ؛ تفسير الطبري ، دار الفكر ، بيروت ، 1405هـ ، 101/16 .

² - محروس محمد محروس ؛ البنية الصرفية وأثرها في تغيير الدلالة ، ص 183 ، وينظر: الزمخشري ؛ الكشاف 49/2 .

د/ العدول بين المصادر:

يمكن أن يكون العدول بين المصادر نفسها كأن يعدل عن مصدر المجرد إلى مصدر المزيد أو عن مصدر اللازم إلى مصدر المتعدي ، ولا يخلو كل ذلك من إضافة معنوية أو إيقاعية.

قال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ المزمّل الآية 08 ؛ فجاء المفعول المطلق "تَبْتِيلًا" وحقه أن يكون "تَبْتَلًا" لأنه هو مصدر الفعل "بَتَلَ" ؛ وهو عدول معزوّ إلى رعاية الفاصلة فضلا عن الغاية المعنوية قال الزمخشري: >> فإن قلت كيف قيل "تَبْتِيلًا" مكان "تَبْتَلًا" قلت لأنَّ معنى "تَبْتَلَّ" بَتَلَ نفسه فجاء به على معناه مراعاة لحق الفواصل <<¹ ، وبمثل ذلك علل كثير من المفسرين العدول في هذه الآية².

وقال عز نكره: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ نوح الآية 17 ؛ فجاء بـ "نَبَاتًا" بدل "أَنْبَتًا" لأنَّ "أَنْبَتَ" على وزن "أَفْعَلَ" ومصدر "أَفْعَلَ" هو "إِفْعَال"³.

وقال كذلك: ﴿ وَكَذَّبُوا بِعَايِنَتِنَا كَذَابًا ﴾ النبأ الآية 28 ؛ حيث عدل عن "تَكْذِيبًا" إلى "كَذَابًا" وهو عدول مراعى فيه الإيقاع والمبالغة معاً⁴ ، والعرب تقول كَلَمْتُهُ كَلَامًا وَقَاتَلْتُهُ قِتَالًا¹ ، ونظيره في المزيد قول الشاعر:

¹ - الزمخشري ؛ الكشف 153/4 .

² - ينظر : الطاهر بن عاشور ؛ التحرير و التتوير 266/12 ، الألويسي ؛ روح المعاني ، 106/29 ،

القرطبي ؛ تفسير القرطبي ، 6836/10 .

³ - ينظر : الزمخشري ؛ المفصل : 188 .

⁴ - ينظر : أحمد يوسف هندواي ؛ الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، المكتبة العصرية ، بيروت ،

2002م ، ص 165 .

ثلاثة أحباب؛ فحب علاقة وحب تِمْلَاقٌ وحب هو القتل² حيث عدل عن "تَمَلَّق" إلى "تِمْلَاق".

2/ العدول إلى اسم الفاعل :

>> اسم الفاعل هو اسم مصوغ من المصدر لما وقع منه الفعل أو قام به دالا على أصل الحدث على وجه الحدوث <<³ ، أو >> هو ما اشتق من مصدر المبني للفاعل لمن وقع منه الفعل أو تعلق به <<⁴ ، و >> هو المشتق من المصدر اسما لما يُنسب إليه ذلك المصدر <<⁵ .

ويصاغ اسم الفاعل من الثلاثي على وزن "فاعل" كـ: "ضارب" من "ضرب" ، و"سامع" من "سمع" ، ومن فوق الثلاثي بإبدال فاء المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر كـ: "مُنطلق" من "انطلق" ، و"مُسْتَفْهِم" من "استفهم"...

والخصوصية الدلالية التي تميز اسم الفاعل هي تضمنه معنى الفعل والذات الفاعلة معاً أي أنه يجمع بين الفعل وفاعله في لفظ واحد ، وهو ما يقدّم إجازا لغويا ذا فائدة دلالية يعكسها معنى الثبوت الذي يتضمنه التعبير بالاسم ، وأخرى بلاغية لما فيه من اقتصاد لغوي ، وثالثة إيقاعية لما في بنيته من أصواتٍ ومقاطع تختلف عمّا في فعله ، وهو ما يبرر العدول إليه في كثير من الأساليب الرفيعة .

¹ - ينظر : الزمخشري ؛ المفصل ، 188.

² - نفسه: الصفحة نفسها.

³ - عبد المنعم أحمد هريدي ؛ تصريف الأسماء ، دار أبو المجد ، للطباعة بالهرم ، مصر ، 1998 م ، ص198.

⁴ - أحمد الحملاوي ؛ شذى العرف ، 67 .

⁵ - علي موسى الشوملي ؛ شرح ألفية ابن معطي ، مكتبة الخريجي ، الرياض ، ط 1 ، 1985 ، 279 / 2.

أ/ العدول عن المصدر إلى اسم الفاعل:

منه رأي القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ﴿١٠٥﴾

الذاريات 05 أن معنى " لصادق " الصدق ، وقع الاسم موقع المصدر ¹ ،

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ المائدة

الآية 13 ؛ خائنة مجازة خيانة² ، وهو >> مثل قولهم "قائلة" بمعنى "قيلولة">>³

وقوله: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴾ ﴿١١١﴾ الغاشية الآية 11 ؛ أي لغو⁴ ،

وقوله: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ﴿١٠٨﴾ الحاقة 08 ؛ أي بقاء⁵ ،

وقوله: ﴿ أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ ﴾ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ النجم الآيتان

57 ، 58 ؛ أي كشف.

ب/ العدول عن اسم المفعول إلى اسم الفاعل :

هو أن يكون الملفوظ اسم فاعل والمقصود اسم مفعول أي أن تُشْرَبَ صيغة اسم

الفاعل معنى اسم المفعول ، ومثلوا له ببيت الحطيئة في هجاء الزبرقان بن عمر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي¹

¹ - ينظر : القرطبي ؛ تفسير القرطبي ، 30/17 .

² - ينظر : القرطبي ؛ تفسير القرطبي 6/116 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها .

⁴ - ينظر: الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 12/299 .

⁵ - نفسه : 12/119 .

أي المُطعمَ المكسو ، وبيت جرير:

إِنَّ الْبَلِيَّةَ مَنْ تَمَلُّ كَلَامَهُ فَانْقَعُ فُوَادَكَ مِنْ حَدِيثِ الْوَامِقِ²

أي من حديث الموموق³ ؛ قال في العمدة: >> ومن غرائب هذا الباب أن يأتي

بالمفعول بلفظ الفاعل كقوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لا

معصوم ، وكذلك قوله ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي مدفوق ، وقوله: ﴿فِي عَيْشَةٍ

رَاضِيَةٍ﴾ أي مرضيُّ بها ، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مبصر

فيها>>⁴ ، و>> من سنن العرب أن تأتي بالمفعول بلفظ الفاعل نحو "سرُّ كاتم"

أي مكتوم و"ماء دافق" أي مدفوق ، و"عيشة راضية" أي مرضيُّ بها ، و"حرماً

آمناً" أي مأمون فيه >>⁵

إلا أننا لا نذهب إلى ما ذهب إليه صاحب "العدول عن الأصول في الصرف

العربي" في ردّه العدول في "سرُّ كاتم" إلى العلة العقلية من أن >> السر لا يقوم

بفعل الكتم وإنما يقع عليه فعل الكتم>>⁶ لأن من أسماء الفاعلين ما لا يقوم بالفعل

وإنما ينسب إليه كما تقدم في التعريف ، وذلك قولنا "طريق سالك" و " جدار

متهدّم" ، و"إناء منكسر" ونحو ذلك ؛ وفي بيت الحطيئة المتقدم لا مانع من

¹ - الديوان : شرح وتحقيق أبي سعيد السكري ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، 1401هـ - 1981 م ، ص108 .

² - الديوان : تح نعمان أمين طه ، دار المعارف ، ط3 ، 200 ، ص : 314 .

³ - الثعالبي ؛ فقه اللغة : 254 .

⁴ - ابن رشيق ؛ العمدة ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط 5 ، 1401هـ - 1981 م ، 2/ 279 .

⁵ - السيوطي ، المزهري 1/ 265 .

⁶ - مقبل عايد السالم ؛ العدول عن الأصول في الصرف العربي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك ، 2006 م ، ص 6 .

التصريح بلفظ المفعول ولكنه أثر "الطاعم" على "المُطعم" ، والحال كذلك في بيت جرير حيث أثر "الوامق" على "الموموق" .

أمّا الذي يصرف الدلالة عن البنية السطحية ممثلة في الفاعلية إلى البنية العميقة ممثلة في المفعولية إنما هو السياق والمقام ؛ ذلك أن موضوع البيت هجاء وإذا فهم معنى الفاعلية صار مدحا بالكرم.

والحال كذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ هود الآية 43 ؛ إذ إنّ المُهدّدَ بانتقام الله لا يقوى على عصمة نفسه فضلا على أن يعصم غيره ؛ فكان الوجه فهمها أنه لا معصوم من أمر الله ؛ ذلك أن >> التعبير عن اسم المفعول بلفظ اسم الفاعل يعطي اللفظ قوة معنوية لكون اسم الفاعل هو صاحب الأثر ومحدث الفعل ، وهذا يؤدي إلى الاستنتاج أن عدول لفظ الفاعل لاسم المفعول يضيفي على اسم المفعول قوة دلالية <<¹ ، وهو ما نفهمه من اختيار أسماء الفاعلين : "دافق" ، و "راضية" ، و "أمنّا" في الآيات السابقة.

ج/ العدول عن الصفة المشبهة إلى اسم الفاعل :

جاء في تعريف الصفة المشبهة أنها: >> كلّ صفة لا تجري على الفعل مما لا مبالغة فيه نحو حسن ، وبطل ، وشديد ومشابهاتها<<² ، وأنها >> لفظ مصوغ من مصدر الفعل اللازم للدلالة على الثبوت والدوام <<³ ، أو هي >> اسم مشتق يدل على ثبوت صفة ملازمة لصاحبها ، وتختلف عن اسم الفاعل الذي يدل على

¹ - السابق : ص 87 .

² - محب الدين عبد الله بن الحسين ؛ اللباب في علل البناء والإعراب ن تح غازي مختار طليمات ، دار الفكر ، دمشق ط1 ، 1995 م ، 443/1 .

³ - الأستريادي ؛ شرح الكافية ، تح عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب القاهرة ، ط 1 ، 1420هـ - 2002م ، 411/4 .

صفة غير ملازمة وغير ثابتة <<¹ ، لذلك فإنَّ العدول عنها إلى اسم الفاعل يكون رغبةً عمَّا فيها من ثبوت ودوام إلى ما في اسم الفاعل من معنى الحدوث والظروء ؛ نمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَصَاقِبٌ بِهِ ۚ صَدْرُكَ ﴾ هود الآية 12 ؛ حيث عدل عن "ضيق" إلى "ضائق" وحاشى أن يتصف صدر - النبي صلى الله عليه وسلم- بدوام الضيق وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ الشرح الآية 01 ؛ فكيف يضيِّق صدرٌ شرحه الله تعالى ، ومن ثمَّ فهو ضيق عارض من معاناته - صلى الله عليه وسلم- في تبليغ الدعوة ، فهو >> لم يقل "ضيِّق" ليذللَّ على أنه ضيقٌ عارضٌ غير ثابت لأنه عليه السلام كان أفسح الناس صدرا <<² ، وهذه الدلالة تغيب في الصفة المشبهة وتتحقق في صيغة اسم الفاعل .

3 / العدول إلى اسم المفعول :

اسم المفعول >> هو الاسم المشتق من مصدر الفعل المبني للمجهول لمن وقع عليه الفعل <<³ ، ويصاغ من الثلاثي على وزن "مفعول" لفظاً نحو "منصور" ، أو تقديراً نحو "مقول"⁴ ويعدل إليه عن المشتقات الأخرى في كثير من الأساليب:

¹ - علي القاسمي ؛ علم المصطلح ، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، ط 1 ، 2008م ، ص 390 .

² - النسفي ؛ تفسير النسفي : (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، دار الفكر ، د . ط ، د.ت .

³ - عبد المنعم أحمد هريدي ؛ تصريف الأسماء 205 ، وينظر : أحمد الحملاوي ؛ شذى العرف ، ص 68 .

⁴ - الجرجاني ؛ المفتاح في التصريف ، تح محمد بن سالم العميري الهذلي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، 143 .

أ / العدول عن المصدر إلى اسم المفعول:

هو أن يكون اللفظ بصورة اسم المفعول والمقصود معنى المصدر واستشهدوا له بقول الراعي النميري: "حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا" بإيراده "معقولا" مكان "عقلا"¹

وخرَجُوا عليه قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٦﴾ بِأَيِّكُمْ أَلْمَفْتُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القلم الآيتان 05 ، 06 ؛ أي بأيكم الفتنة² وهذا في بعض تفسيراتها وسنترك تفصيل ذلك إلى مكانه من البحث.

ب- العدول عن اسم الفاعل إلى اسم المفعول:

وذلك قولهم "سيئ مفعم" ومجازه "مفعم" ، وقوم "موظوون بالطريق" ومجازه "واطين"³ وجاء منه في القرآن العظيم:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ مريم الآية 61 ؛ أي آتيا ؛ قال الطبري: >> قال بعض نحوي الكوفة خرج الخبر على أن الوعد هو المأتي ، ومعناه أنه هو الذي يأتي ، ولم يقل: "وكان وعده آتيا" لأن كل ما أتاك فأنت آتية ، وقال: ألا ترى أنك تقول أتيتُ على خمسين سنة وأتتُ عليّ خمسون سنة وكل ذلك صواب <<⁴ ،

¹ - ينظر : القرطبي؛ تفسير القرطبي: 299/18 . و الطبري؛ 165/12 .

² - ينظر: القرطبي : تفسير القرطبي : 299/18 ، والطبري؛ تفسير الطبري ، 14/29 .

³ - ينظر : ابن جني ؛ الخصائص ، 488/2 .

⁴ - الطبري ؛ تفسير الطبري 101/16 .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ ﴿ الإسراء الآية 45 ؛ أي ساترا ،

وقوله جل ذكره: ﴿ هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ النساء الآية

57 ؛ أي أزواج طاهرة ، لأن كل مطهر طاهر

وقوله: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ حيث >> عَبَّرَ

عن الوالد بالمولود له إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم <<¹

4 / الصفة المشبهة :

هي >> ما اشتق من فعل لازم لا يتعدى بحرف الجر ويدل على ملازمة الصفة للموصوف واستمراريتها <<²

وإن كانت الصفة المشبهة فرعا عن اسم الفاعل باعتبارها - أساسا - مشبهة به فإنها تختلف عنه في كونها تفيد اتصاف موصوفها بالثبوت ، لذلك فإنه يعدل إليها عند إرادة هذا المعنى لأنه >> لا يرقى إلى درجة الصفة المشبهة في الدلالة على الثبات <<³.

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 432/1 .

² - ابن الحاجب ؛ لكافية في النحو : 411/2 .

³ - فاضل السامرائي ؛ معاني الأبنية في العربية ، جامعة الكويت ن ، ط1 ، 1981 ، ص 47 .

أ/ العدول عن اسم الفاعل إلى الصفة المشبهة:

جاء منه في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ البقرة الآية 10 ؛ حيث جاءت "اليم" عوضاً عن "مؤلم" ؛ وهو في القرآن كثير مطرد حيث بلغ عدد استعمالات لفظ "اليم" أكثر من سبعين مرة.

وقوله: ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ تَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ الجن الآية 09 ؛ فجاءت "رصدًا" عوضاً عن "راصد" لتفيد دوام ترصد الملائكة مسترقي السمع من الجن ، وهو ما يستفاد من الآية قبلها : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ الجن الآية 08 ،

وقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ سبأ الآية 22 ؛ حيث جاءت "ظهير" بصيغة "فعل" بدلا من "مُظاهر" ، واللفظ نفسه في الآية ﴿ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ التحريم الآية 04 ،

ولفظ "قرين" في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴾ ق الآية 23 ،

وقوله: ﴿ أءِذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً ﴾ النازعات الآية 11 ؛ فوصفت العظام بأنها "نخرة" لا "ناخرة" وهي كذلك ؛ إذ لا تجدد ولا حدوث يطرأ على رفات العظام إلا أن يكون بعثا ونشورا ، ولهذه العلة بالذات يكون المكان لاسم الفاعل لا

الصفة المشبهة لأنّ اتصاف العظام بهذه الصفة مهما طال فإنه منته إلى نهاية ،
فيكون في استعمال الصفة المشبهة عدول عن اسم الفاعل.

ب/ العدول عن اسم المفعول إلى الصفة المشبهة :

قال تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿١٧﴾ الصافات الآية 107 ؛ و"الذَّبْحُ" هنا
بمعنى "المذبوح" ،

وقال عزّ ذكره: ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِكِّ وَذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ آل
عمران الآية 36 ؛ فقال "الرجيم" بدلا من "المرجوم" لإثبات الدوام في صفة رجم
إبليس اللعين ؛ وهو ما يستفاد من قوله تعالى في سورة ص: ﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ
مِنَهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ص الآيتان 77 ، 78 ؛
حيث حكم عليه بدوام اللعن إلى يوم الدين ، وكذلك في قوله تعالى في سورة النحل
﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ﴿٤٨﴾ النحل: الآية 98 .
وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ ﴿٦١﴾ الطور الآية 21 ؛ أي "مرهون" ،
والحال كذلك في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ﴿٣٨﴾ المدثر الآية 38 .
وصيغة "فَعِيل" التي هي إحدى صيغ الصفة المشبهة كثيرا ما تدل على معنى
المفعول¹ ؛ فـ << رهينة في هذه الآية تدل على اسم المفعول "مرهون" >>²

¹ - ينظر : علي أحمد طلب ؛ صيغة فعيل واستعمالاتها في القرآن الكريم ، مكتبة الأمانة ، مصر ، ط 1 ،
1407هـ ، 1987 م ، ص 375 .

² - مقبل عايد السالم ؛ العدول عن الأصول في الصرف العربي ، ص 97 .

5/ العدول إلى صيغ المبالغة:

أبنية المبالغة >> هي الأبنية المصوغة للدلالة على التنصيص على التكثر في حدث اسم الفاعل كمًا أو كيفًا <<¹ ، وهي >> صور لفظية خاصة تضيف معنى صرفيا زائدا على معنى اسم الفاعل، وهو الكثرة والمبالغة في الوصف <<² لأنها إنما وجدت أصلا خدمةً لاسم الفاعل في إيضاح ما طرأ عليه من تغيرات دلالية³. ونظرا لكثرة أبنية المبالغة فإننا نجتزئ بذكر العدول في بعضها ممثلين به لباقي الأبنية:

أ/ العدول عن اسم الفاعل إلى صيغ المبالغة:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ يوسف الآية 96 ؛ إذ عبّر بالصيغة "فعليل" بدلا من اسم فاعلها ولم تكن في بشارة البشير أي كثرة أو تعدد إنما هي بشارة واحدة ولكن التكثر واقع في نوعها وعظيم وقعها ؛ وكيف لا تكون كذلك ويعقوب -عليه السلام- ابيضَّت عيناه من الحزن.

وقال أيضا: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان الآية 02 ؛ حيث حلت صيغة "فعليل" (سميع) محل صيغة اسم الفاعل "فاعل" (سامع) ، و (مبصير) لتشير إلى ما تفضل به الخالق تعالى

¹ - عبد المنعم أحمد هريدي ، تصريف الأسماء ، 203 .

² - محمد خير حلواني ؛ المعنى الجديد في علم الصرف ، دار الشرق العربي ، بيروت ، 253 .

³ - ينظر : مقبل عايد السالم ؛ العدول عن الأصول في الصرف العربي، ص 98 .

على الإنسان من نعمتي السمع والبصر، وكم فيهما من دلائل على عظيم قدرته ومطلق إرادته .

وقال جل شأنه على لسان يوسف -عليه السلام- : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ

خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ۗ ﴾ يوسف الآية 55 ، فدلّت صيغتا (حفيظ)

(و) (عليم) على مكنة وكفاءة أوتيهما يوسف - عليه السلام - في تسيير شؤون مصر دلّت عليهما وقائع التاريخ وأحداثه حيث حافظ على اقتصاد البلاد طيلة السنين العجاف .

وقال كذلك : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۗ ﴾ ص الآية 28 ؛ حيث قال "الفجار"

بصيغة المبالغة (فَعَالٌ) بعد أن قال "مفسدين" بصيغة اسم الفاعل (مفعلين) لما بين الفساد والفجور من فرق ، - وإن كان كلا الوصفين مذموما - ، كالذي بين من عمل الصالحات ، ومن اتقى ، وإن كان كلا الوصفين محمودا.

ب/ العدول عن اسم المفعول إلى صيغ المبالغة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۗ ﴾ ق الآية 10 ؛

أي منضود.

وقوله: ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ ﴾ الإنسان

الآية 08 ؛ فقال "أسيرا" ولم يقل: "مأسورا" .

وقوله: ﴿ إِنِّهَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ البقرة الآية 71 ؛
والبدل المفترض لـ "ذلول" هو "مذلولة".

واللفظ نفسه في قوله عز ذكره: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا
فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ الملك الآية 15 ؛ حيث عدل
عن "مذلولة" إلى "ذلول" ، وفيهما عدول في الجنس كذلك.

ج/ العدول بين صيغ المبالغة نفسها:

يحدث أن يعدل السياق عن بناء من أبنية المبالغة إلى آخر، كما في قوله تعالى:
﴿ أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ص الآية 05 ؛
حيث >> عدل عن صيغة "عجيب" القياسية إلى صيغة "عُجَاب" لسببين ؛ الأول
رعاية الفاصلة وهذا سبب أسلوبى ، والثاني أن صيغة "فُعَالٌ" من صيغ الأدواء
مثل الصداع والزُّحار ، فلربما أراد القائلون بأن ما جاء به النبي - صلى الله عليه
وسلم - من الأمر بالتوحيد كان مكروها عند المشركين كراهية الداء <<¹

وقوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا كُبْرًا ﴾ نوح الآية 22 ؛ حيث عدل عن
"كبير" بوزن "فَعِيلٌ" إلى "كُبْرًا" بوزن "فُعَالٌ" ، والعدول عن "فَعِيلٌ" إلى "فُعَالٌ"
و"فُعَالٌ" غايته المبالغة لأنَّ "فُعَالٌ" في معنى "فَعِيلٌ" إلا أنه أبلغ منه كـ: "طُوَّالٌ"
وطويل و"عُرَاضٌ" و"عريضٌ" و"خُفَّافٌ" و"خفيفٌ"...²

¹ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2002 ، ص 433 .

² - ينظر : ابن جني ؛ الخصائص 267/3 .

المبحث الثاني: العدول الفعلي

الفعل قسيم الاسم في الكلم العربي عرفه سيبويه بأنه >> أمثلة أخذت من لفظ أحد الأسماء وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع ؛ فأما بناء ما مضى فـ: "ذهب" و"سمع" و"مكث" و"حمد" ، وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك أمرا: اذهب واقتل واضرب ، ومخبرا يقتل ويذهب ويضرب <<¹

والذي يميز الفعل هو جمعه الدلالة الزمنية الكامنة في صيغته إلى دلالة الحدث المتضمنة في مادته ، أو بالأحرى تقييده الحدث بزمن معين من خلال تخصيص كل صيغة بزمن محدد ، لذلك قال الزمخشري : >> الفعل ما دلَّ على اقتران حدث بزمان <<²

وقال الزجاج في تعريفه : >> الفعل ما دل على حدث وزمان ماضٍ أو مستقبل نحو قام يقوم ، وقعد يقعد وما أشبه ذلك <<³

والتواضع العربي خصَّص بناء "فَعِلٌ" للدلالة على الزمن الماضي بكل مراحلها ، وبناء "يَفْعَلُ" للدلالة على الحاضر والمستقبل ، وبناء "أَفْعَلٌ" للطلب ممثلاً في فعل الأمر الذي يُعدُّ شريك المضارع في دلالاته على المستقبل ؛ هذا هو الأصل في الدلالة الإفرادية لصيغ الفعل ، لكن الاستعمال كثيرا ما يخرق التواضع فيستعمل

¹ - سيبويه ؛ الكتاب ، تح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط 3 ، 1408 هـ - 1998 م ، 12/1 .

² - الزمخشري ؛ المفصل ، ص 210 وينظر : ابن هشام ؛ مغنى اللبيب ، تح مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ط 6 ، 1985 م ، 873/1 ، و محب الدين عبد الله بن الحسين ؛ اللباب في علل البناء والإعراب 78/1 ، 97 ، 107 .

³ - الزجاج ؛ الجمل ، تح ابن شنب ، باريس ، ص 17 .

"فعل" مكان "يفعل" أو "يفعل" مكان "فعل" ذلك أن >> الفعل العربي لا يفصح عن الزمان بصيغته وإنما يتحصل الزمان من بناء الجملة <<¹ ، >> وقد يشار ببناء "فعل" إلى غير الزمن الماضي ، كما يشار ببناء "يفعل" وفاعل إلى دقائق زمنية واضحة <<² .

وقد بدا لنا أن نجتزئ في العدول الفعلي بالعدول في زمن الفعل لما رأيناه من أهمية في الدلالة الزمنية ذلك أنها أهم ما يميز الفعل عن الاسم ، كما أن بحثها فضلا عما يكشفه من دلالات ومعان ، يعيد إلى السطح تقسيم الزمن الصرفي ويجعلنا نعيد النظر في دلالات بعض الصيغ التي جزم الصرفيون باختصاصها بزمن بعينه لأن الاستعمال إن سلم لهم بالدلالة الإفرادية فإنه لا يُسلم لهم في حال التركيب .

من أجل ذلك نحاول تتبع استعمال زمن الفعل في النص القرآني في حال عدوله بصيغته عن مألوف استعمالها وما تعارف عليه علماء الصرف وذلك بغية الوقوف على صور العدول في زمن الفعل التي تتلخص في :

- 1- العدول عن الماضي إلى المستقبل ،
- 2- العدول عن المستقبل إلى الماضي ،
- 3- العدول عن المضارع إلى الأمر ،
- 4- العدول عن الأمر إلى المضارع .

أولاً/العدول عن الماضي إلى المستقبل:

¹ - إبراهيم السامرائي ؛ الفعل زمانه وأبنيته ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 3 ، 1403 ، 1983م ، ص 24 .

² - نفسه : ص 23 .

الفعل الماضي هو: >> ما دل على حدوث شيء قبل زمن التكلم نحو: قام ،
 قعد ، أكل ، شرب وعلامته أن يقبل تاء الفاعل نحو " قرأتُ " ، وتاء التأنيث
 الساكنة نحو " قرأتُ هند " <<¹ .

والفعل المضارع >> ما دلّ على حدوث شيء في زمن التكلم أو بعده نحو
 "يقرأ" و"يكتب" فهو صالح للحال أو الاستقبال <<²

هذه هي القاعدة والأصل المتعارف عليه ، إلا أن واقع اللغة كثيرا ما يخرق
 القاعدة فيستعمل صيغة المضارع التي يفترض فيها اختصاصها بالحال أو
 الاستقبال في التعبير عن الأحداث الماضية ، أو ما سميناه بالعدول عن الماضي
 إلى المضارع ، أي عن الصيغة الفعلية "فعل" المخصصة للتعبير عن الأحداث
 الماضية إلى الصيغة الفعلية "يفعل" المخصصة للتعبير عن الأحداث الحالية أو
 المستقبلية .

ورأى ابن الأثير في الإخبار عن الماضي بالمضارع أنه >> أبلغ من الإخبار
 بالفعل الماضي وذلك لأنّ الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر
 تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي <<³ .

ولدى تعرضه لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

الحج الآية 25 قال: >> إنه إنما عطف المستقبل على الماضي لأنّ كفرهم كان

¹ - الحملوي ؛ شذى العرف : 27 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

³ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 12/2 .

ووجد ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا ، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر يُستأنف في كل حين << 1 .

وقال السيوطي >> من سنن العرب أن تأتي بالفعل بلفظ الماضي وهو حاضر أو مستقبل أو بلفظ المستقبل وهو ماض نحو "أتى أمر الله" أي يأتي ، "كنتم خير أمة" أي أنتم ، "واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان" أي ما "تَلَّتْ" << 2 .

ولأن القرآن العظيم بلسان عربي مبين فإنه جاء على سنة العربية في التعبير عن الأحداث الماضية بصفة المضارع ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ

فَوْقُكُمْ وَمِنَ اسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ الأحزاب الآية 10 ؛ حيث عدل عن "ظننتم" إلى "تظنون".

وقوله: ﴿ فَأَمَّا بَلَّغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنِيٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنُحُكَ فَانظُرْ

مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٢﴾ الصافات الآية 102 ؛ حيث قال "أرى" ولم يقل: " رأيت " .

وفي العدول إلى المضارع "أرى" نقلٌ للحدث من وقت الرؤيا إلى وقت الخطاب ممَّا يوحي بأن إبراهيم عليه السلام شعر بالأمر الإلهي يحاصره ويطوقه في كل أوقاته ، يستفاد من ذلك أن إبراهيم عليه السلام وكأنه يعتذر من ابنه بأنه لا قبل له برد هذا المكروه .³

¹ - السابق: 15/2 .

² - السيوطي ؛ المزهري ، 265/1 .

³ - ينظر: عبد الحليم حفني ؛ أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 3 ، القاهرة ، 1995م ، ص 164 .

وقوله جلّ شأنه في تقرّيع بني إسرائيل على إساءتهم لرسوله: ﴿ أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة الآية 87 وهم إنما قتلوا من قتلوا في الماضي ،

وقوله في السياق ذاته: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة الآية 91 . حيث كانت دلالة السياق على الماضي أقوى من اختصاص الصيغة الصرفية بالمضارع لصريح قوله: "من قبل".

وقوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ البقرة الآية 144 حيث قال: "نرى" ، ولم يقل: "رأينا" ،

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرٌ مِّنْهَا فَيُسْقِنَهُ إِلَىٰ أَرْضٍ مَّيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ فاطر الآية 9 ؛ حيث توسط الفعل المضارع "تثير" الفعلين الماضيين "أرسل" ، و"سقناه" ،

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة الآية 79 فقال "يكسبون" ولم يقل: "كسبوا" ،

وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ۗ

لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٠٢﴾ الرعد الآية 02 ؛ حيث جاء الفعلان "يُدبِر" و"يُفَصِّل" مضارعين وإنما تدبير الله الأمر وتفصيله الآيات سابق لكل فعل ، و>> لكن عند النظر والتنقيب يزول هذا التنافر بين نسق الأفعال ويبين أن الانزياح في نظام الأفعال مقصود ومنظور إليه من جهة أن الفعل المضارع أقدراً الصيغ على إحياء المشاهد ونقلها من الماضي السحيق إلى الحاضر الراهن <<¹ .

وكما يكون العدول عن الماضي إلى المضارع يُعدل كذلك عن المضارع إلى الماضي :

ثانياً/ العدول عن المضارع إلى الماضي:

يتحقق هذا النوع عندما يُعبّر عن الأحداث المستقبلية بصيغة الماضي كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهَ دَاخِرِينَ ﴾ النمل الآية 87 حيث قال: "فَزِعَ" بعد أن قال: "يُنْفَخُ" ، ومعلوم أن النفخ في الصور وفزع الناس منه حدث لم يقع بعد ، والعدول صريح في التعبير عنه بالفعل الماضي لأنه >> إنما قال: "فَزِعَ" بلفظ الماضي بعد قوله: "يُنْفَخُ" وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع وكأنه كائن لا محالة لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به <<² ، وتعبيراً عن الحدث نفسه قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، 213 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 16/2 .

الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿ الزمر الآية 98 حيث قال: "نُفِخَ" و "صَعِقَ" ولم يقل: "يُنْفِخُ" و"يُصَعِقُ" ،

وقال كذلك: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ النحل الآية 01 ، حيث نلاحظ تساوقا بين الدلالة المعجمية في لفظ "تَسْتَعْجِلُونَ" والدلالة الصرفية في "أَتَى" المعدول إليها عن "يَأْتِي" ، وكأنَّ الماضي إنما جيء به ليقابل استعجال الكافرين يوم القيامة المترتب عن عدم إيمانهم به بما فيه - أي الماضي - من دلالة على قطعية التحقق حتى لكانَّ مجيء يوم القيامة حدثًا وقع منذ زمن.

وقال كذلك: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴿ الأنعام الآية 94 ؛ وفعل المجيء لم يقع بعد .

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْدٍ ﴿ ٤٧ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظُنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيسٍ ﴿ ٤٨ ﴿ فصلت الآيتان 47 ، 48 ؛ حيث جاء بالأفعال: "قالوا" ، "أذنَّاكَ" ، "ضَلَّ" ، "ظنُّوا" ، ماضية بعد أن قال: "يُنَادِيهِمْ" بصيغة المضارع ،

وقال كذلك: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿ البقرة الآية 166 ؛ فقال: "رَأَوُا العذاب" ، ورؤية العذاب من أحداث يوم القيامة ،

وقال أيضا: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ^ط وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ^ج

فَسَأَكْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

الأعراف الآية 156 ؛ حيث قال في العذاب "أُصِيبُ" وفي الرحمة "وَسِعَتْ" ،

وقال كذلك: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ^ج ﴾ الكهف الآية 29

حيث قال: "أَحَاطَ" ولم يقل: "يُحِيطُ" ،

وقال كذلك: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ^ج ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ

مَعَهَا سَابِقٌ ^ن وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ق الآيتان 20 ، 21 .


وقد لاحظنا كثرة هذه الصورة من العدول وتعلقها في كثير من الأحيان بأحداث يوم القيامة ، وهو أمر يتناسب مع شكّ المشركين في وقوعه ، فكان التعبير عن أحداثه بصيغة الماضي الدالة على القطع واليقين لينهض - الماضي - بوظيفة التوكيد فيما يسمى بلاغيا الخبر الإنكاري لأنّ الكلام موجّه لمن يُنكر الخبر من أساسه ، لذلك يمكن اعتبار العدول إلى الماضي إحدى طرائق التوكيد ، تماما كالتقسّم والتكرار وأدوات التوكيد الأخرى .

ثالثا/ العدول بين المضارع والأمر:

بين المضارع والأمر صلة دلالية منشؤها اشتراكهما في الدلالة على المستقبل لأنّ الأمر طلبٌ والطلب لا يتحقق إلا بعد التلفظ به ، أي بعد زمن التكلم ، وقد رأى الكوفيون أنّ فعل الأمر أصله مضارع وذهبوا إلى أنه >> معرب مجزوم بلام محذوفة وهي لام الأمر ، فإن قلت "أذهب" فأصله "لَتَذْهَبَ" ، وإنما حذف


اللام تخفيفاً ، وما حُذِف تخفيفاً فهو في حكم الملفوظ <<¹ ، و >> هو الذي على طريقة المضارع للفاعل المخاطب لا يخالف بصيغته صيغته إلا أن تنزع الزائدة فنقول في "تَضَعُ" : "ضَعُ" ، وفي "تُضَارِبُ" "ضَارِبٌ" وفي "تُدْحِرُجُ" "دَحْرَجُ" ، ونحوها ممّا أوّلُه متحرك ، فإن سکن زدت - لئلا تبتدئ بساكن - همزة وصل فنقول في "تُضْرِبُ" : "اضْرِبُ" ، وفي "تَتَطَلَّقُ" : "انطَلَقُ" <<²

هذا التقارب الدلالي سوّغ العدول عن إحدى الصيغتين إلى الأخرى وجعل الباحث يتساءل عما وراءه من إفادة غير إفادة الزمن التي هي شركة بينهما.

نمثل للعدول عن المضارع إلى الأمر بقوله تعالى: ﴿  إِنْ نَقُولُ إِلَّا

أَعْتَرْنَاكَ بَعْضُ ءِالْهَيْتِنَا بِسُوءٍ ^ق قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿  هود الآية 54 ،

ونمثل للعدول عن الأمر إلى المضارع بقوله تعالى: ﴿  وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ

أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ^ج ﴿ البقرة الآية 233 ؛ حيث

يقضي السياق أن يقول في الأولى (إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ) ولكنه قال "اشْهَدُوا" ،

قال ابن الأثير >> فإنه إنما قال "أشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا" ولم يقل: " وَأَشْهَدُكُمْ " ليكون

موازناً له وبمعناه لأنّ إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأمّا

¹ - ابن يعيش ؛ شرح المفصل ، الطبعة المصرية : 16/7 .

² - نفسه : 58/7 .

إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر <¹.

ويمكن التدليل على أن إسهادهم فضلة كلام لا اعتداد بها من طريقين ؛ الأول أن إسهاد الله وحده كاف ولا يحتاج إلى دعم بشهادة أخرى ؛ وبخاصة إذا كان من نبي مرسل ، وقد قال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ الفتح الآية 28 ، والثاني يُستفاد من ترتيب الشهادتين حيث بدأ بشهادة الله - تعالى - فكانت كافية مغنية عن غيرها ، ولو أنه بدأ بشهادتهم وثنى بشهادة الله لكان في الكلام تدرُّج منطقي من الأدنى إلى الأعلى حيث تُطلب شهادة الله لمن لم تقنعه شهادة البشر.

وزيادة على ذلك أرى في هذا العدول فائدة أخرى هي إنزال المشركين المنزلة الدنيا ، أي منزلة المأمور ، واعتلاء هود عليه السلام المنزلة العليا ، وهي منزلة الأمر ، وهي فكرة جوهرية ما كانت لتتحقق بغير لفظ الأمر.

كما يقضي السياق في الآية الثانية أن يرد لفظ الإرضاع بصيغة الأمر ولكنه عدل عنه فقال: "يُرْضِعَنَّ" بدل "أرْضِعَنَّ" قال ابن عطية: >> قوله "يُرْضِعَنَّ" خبرٌ معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات ، والأمر على الندب والتخيير لبعضهن <<² ، ولا يهمننا هنا كون الأمر للوجوب أو للتخيير إنما يكفينا منه كونه للطلب الذي يُفترض فيه أن يكون بالصيغة الصرفية "افْعَلْ" وهي الأصلية فيه ، ولكنها تُركت إلى "يُفْعَلُ" المختصة بالإخبار عن الحال أو الاستقبال.

وثمة دلالة أخرى مشتركة بين الصيغتين ينبغي التنويه إليها وهي كون كل من الصيغتين غير مقطوع بوقوعها خلاف الماضي ، فالأمر حين يأمر بـ "افْعَلْ" ،

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 11/2 ، 12 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 430/1 .

والمخبر حين يخبر بـ "يفعل" لا يمكنهما الجزم بوقوع الفعل وتحققه من الفاعل من أجل ذلك رأوا أنّ المضارع سابق عن الماضي لأنّ الفعل لم يكن ثم كان.

المبحث الثالث: العدول بين الاسم والفعل

أولاً/ العدول عن الفعل إلى الاسم:

الفعل هو الحدث في صورته المتحركة ، أو هو الحدث وقد تلبس بالذات الفاعلة في ظرف من الزمن ، أمّا الاسم فإنه محض الحدث دون اعتلاق بالفاعل أو الزمن ، لذلك فإن التعبير بالاسم يخلو من حركية الزمن وتنوع الفاعلين ، فيكون أكثر ثباتاً واستقراراً ويُعدّل إليه عند الحاجة إلى ما فيه من استقرار وثبات ، ونستهدف في هذا المطلب رصد أهم أشكال العدول عن الفعل إلى الاسم في النص القرآني:

1- العدول عن الفعل إلى المصدر:

مثاله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ محمد الآية 4 ؛ حيث عدل عن الأمر الصريح "اضربوا" إلى مصدره "ضرب" ولا يخلو ذلك من دلالة سنأتي على ذكرها ،

وقوله: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ الصافات الآية 93 ؛ إذ لم يقل: "ضربهم" وأحلّ المصدر "ضرباً" محل الفعل ومنحه وظيفة التمييز .

وقوله: ﴿ تَحُلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وُلُؤًا^ط وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ الحج الآية 23 ؛ حيث قال: "لباسهم" ولم يقل: "يلبسون" كما قال: "يحلون" ،

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَأَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ البقرة
الآية 83 ،

وفي الموضوع نفسه قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ^ط
أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط ﴾ الأنعام الآية 151 ، وقال كذلك:
﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإسراء الآية 23 ؛
حيث عدل في الآيات الثلاث عن الفعل "أَحْسِنُوا" إلى المصدر "إِحسانا" ، ولا بدَّ أن
في اقتران الدعوة إلى برِّ الوالدين بالمصدر غايةً تتناسب مع اقترانها بتوحيد الله
في الآيات الثلاث نترك بحثها إلى الفصل اللاحق ،

وقال أيضا: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ﴾ المائدة الآية 58
؛ فقال: "اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا" ولم يقل: "استهزؤوا بها" ،

وكذلك قال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا^ط وَاتَّخَذُوا^ط آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا
﴿ سورة الكهف الآية 106 ،

وكذلك قال: ﴿ فَاتَّخَذَتْ^ط مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا^ط إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا ﴾ مريم الآية 17 فقال: "اتَّخَذَتْ حِجَابًا" ولم يقل: "احتجبت".

2 / العدول عن الفعل إلى اسم الفاعل:

هي صورة من العدول أكثر انتشارا من سابقتها وهذه بعض النماذج عنها :

قال تعالى: ﴿ وَلِئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ البقرة الآية 145 حيث قال في الأولى "تبعوا" وفي الثانية والثالثة "تابع" ،

وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى طَخْرِجُ الْحَيِّ مِّنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِّنَ الْحَيِّ ج ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ الأنعام الآية 95 ؛ فقال: "مُخْرِجُ الْمَيِّتِ" ولم يقل: "يُخْرِجُ الْمَيِّتَ" كما قال "يُخْرِجُ الْحَيَّ" ،

وقال: ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ المائدة الآية 22 ؛ ويقضي السياق بمقابلة الفعل المضارع "يُخْرِجُوا" بنظيره "تَدْخُلُ" ولكنه قال "دَاخِلُونَ" ،

وقال: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يس الآية 40 ؛ ولم يقل: "يَسْبِقُ" كما قال: "تُدْرِكُ" ،

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال الآية 33 فقال في الأولى: "يُعَذِّبُهُمْ" وفي الثانية "مُعَذِّبُهُمْ" ،

وقال: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ع وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا

من دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ يوسف الآيتان 26 ، 27 ؛ حيث نعت المرأة ، في الحالين ، - صدقًا وكذبًا - بالفعل (صَدَقَتْ ، كَذَبَتْ) ، ونعت يوسف في الحالين بالاسم (من الكاذبين ، من الصادقين) ،

وقال: ﴿ ءَأَنْتُمْ خَلَقْتُمْهُنَّ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ الواقعة الآية 59 ؛ ولم يقل: "أَمْ نَحْنُ نَخْلُقُهُ ،

وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ فاطر الآية 22

وقال جل شأنه: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ

وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٣٤﴾ آل عمران الآية 134 ؛ فقال: "يُنْفِقُونَ" ، ثم قال: "الكاظمين" ، و"العافين" ولم يقل: "يَكْظِمُونَ" ، و"يَعْفُونَ".

وقال: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ ﴾ ﴿١٩٣﴾ الأعراف الآية 193 ولم يقل "صمتم" ، كما "دَعَوْتُمُوهُمْ".

والشواهد على هذه الصورة العدولية كثيرة لا يمكن حصرها .

3/ العدول عن الفعل إلى اسم المفعول:

هي صورة قليلة في مقابل الصورتين السابقتين تمثل لها بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكِ يَوْمٌ

مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ ﴿١٠٣﴾ هود الآية 103 ؛ حيث قال: "مَجْمُوعٌ

لَهُ" ، ولم يقل: "يُجْمَعُ فِيهِ" ، أو لَهُ" ، قال الزمخشري: >> فَإِنِ قُلْتَ لِأَيِّ فَائِدَةٍ أَوْثَر

اسم المفعول على فعله قلت لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعادا مضروبا للجمع يُجمع الناس له <1> .
وفيه كذلك غاية إيقاعية تتمثل في مقابلة "مجموع" بـ "مشهود" وهما متماثلتان مقطعيًا ،

وقال كذلك: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء الآية 29] ؛ حيث قال: "لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً" ، ولم يقل: "وَلَا تَغْلُ يَدَكَ" ، وقال كذلك: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان الآية 30] ؛ ولم يقل: "هَجَرُوهُ" .

ثانيا/ العدول عن الاسم إلى الفعل:

إذا كانت الغاية من العدول إلى الاسم هي طلب الثبوت ، فإنَّ العدول إلى الفعل يكون لجملة من الغايات ؛ أولها رصد الحدث وهو في صورته المتحركة ، والثانية تقييد الحدث بفاعله لأنَّ كلَّ فعل يتضمن حتما فاعلا ؛ إنَّ ظاهرا أو مضمرا ، والثالثة التي عليها مدار الاهتمام تقييد الحدث بزمن معين ، فيتحصل من ذلك أنَّ التعبير بالفعل يحدُّ من إطلاق الحدث وهو في صورته الاسمية ، وبخاصة إذا كان مصدرا ، ولإثبات هذه الحالة رصدنا جملة من الأمثلة هذه بعضها:

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 428/2 .

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ^ط وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ^ع كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ الأعراف الآية 29 ،
 و>> كان تقدير الكلام: "أمر ربي بالقسط و بإقامة وجهوكم عند كل مسجد" ، فعدل
 عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم فإن الصلاة من أوكد فرائض
 الله على عباده <<¹ ،

وقال كذلك: ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿٤٧﴾ إِبْرَاهِيمَ الْآيَةَ 21 و غافر الآية
 47 ؛ حيث قال: "الذِينَ اسْتَكْبَرُوا" ، ولم يقل: "المُسْتَكْبِرِينَ" في مقابل "الضعفاء"
 ، وفي ذلك تكثير للمبنى ، ومعلوم أن زيادة المبنى توجب زيادة المعنى ، وقد مكن
 من ذلك استعمال الموصول "الذِينَ" وهو أسلوب كثير الورد في القرآن الكريم منه
 قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾
 النجم الآية 31 ، وقوله: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ^ط وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾
 المائدة الآية 66 ؛ حيث قال في الأولى: "بِمَا عَمِلُوا" بدل "بِعَمَلِهِمْ" ، وفي الثانية :
 "سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ" بدل "سَاءَ عَمَلُهُمْ" ،

وقوله: ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ الصافات
 الآية 22 ؛ حيث قال: "الذِينَ ظَلَمُوا" ، ولم يقل: "الظالمين" ، وقال: "مَا كَانُوا
 يَعْبُدُونَ" ، ولم يقل: "مَعْبُودُهُمْ"

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 14/2 .

وقوله: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ الزمر الآية 70

؛ حيث قال: "مَا عَمِلَتْ" ولم يقل: "عَمَلَهَا" ،

وقوله: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن

كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ فصلت الآية 37 ولم يقل: "اسْجُدُوا لِخَالِقِهِنَّ" .

وقد يتوصل إلى ذلك بغير الموصول كاستعمال "أن" المصدرية المفيدة التفسير؛ من

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

شَكُورٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ إبراهيم الآية 05 ؛ حيث عدل عن المصدر الصريح "إخراج" إلى

المصدر المؤول "أَنْ أَخْرِجْ" ،

وقال جل شأنه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا

بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ﴿١١﴾ مريم الآية 11 وقد عدل كذلك عن المصدر الصريح "تسبيح"

إلى فعله "سَبَّحُوا" مسبوقة بـ "أن" المصدرية ، والتقدير فأوحى إليهم "التسبيح" ،

ولكن بين التعبيرين فرق معنوي يتمثل في الدلالة على الإكثار والتجدد المستفاد

من الصيغة الفعلية ،

وقال كذلك: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ

فَأَنْجَبَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ العنكبوت الآية 24 حيث حلَّ الفعل المقرون بالحرف

المصدري "أَنْ قَالُوا" محلَّ المصدر الصريح "قَوْلُهُ" ،

وقال: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي هَآءَ أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٤﴾ يس الآية 40 حيث عدل كذلك عن المصدر " إدراك "

إلى فعله "تدرك" ،

وقال: ﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ البقرة الآية 47 ؛ فقال: "أني فضلتكم" ولم يقل: " تفضيلي " .

وفي كل هذه النماذج ومثيلاتها عدول عن الاسم إلى الفعل بما فيه من معنى

الحركة وما يترتب عليه من تكثير المبنى المفضي إلى تكثير المعنى.

الفصل الثاني

الدلالة الإيقاعية للعدول

- المبحث الأول: العدول الصرفي ذو الأثر الإيقاعي المحض
المبحث الثاني: العدول الصرفي الذي يجمع بين المعنى والإيقاع
المبحث الثالث: علاقة المعنى بإيقاع الفاصلة

الآن وقد فرغنا من ذكر أهم أنواع العدول نباشر البحث في ما يمكن الوقوف عليه من غاياته وأبعاده ، بادئين بالبعد الفني المتمثل أساسا في الجانب الإيقاعي القائم على مادة الصوت وما يحكم توزيعها وتكييفها بالقدر الذي يفي بحاجة البيان ويستجيب لفطرة حب الموسيقى التي جُبِلَ عليها الإنسان بما هو إنسان ، وهي قضية من البدهة بالقدر الذي لا يحسن النزاع فيها ، ومن ثم فإنَّ للصوت غايتين ؛ الأولى بيانية باعتبار << اللغة أصواتاً يعبرُ بها كلُّ أقوام عن أغراضهم >>¹ ، وباعتبارها << نظاما من العلاقات المبنية في أساسها على النظام الصوتي >>² ، أو أنها << نظام من رموز صوتية مخزونة في أذهان أفراد الجماعة اللغوية >>³ ، والثانية فنيّة لأنَّ الصوت هو كذلك مادة الموسيقى التي ينبغي ألا نختلف في كونها غايةً تطلب لذاتها ، وبذلك يكون الصوت نقطة التقاء بين اللغة والموسيقى ؛ بين الفنِّ والبيان ، وهو مرجعية كلِّ بحث في اللغة ؛ ذلك أنَّ فنيّة اللغة تتعلّق بالأساس بالتشكيل الصوتي فيها ، والأدب الذي هو غاية اللغة ومنتهاها << بينه وبين الموسيقى قدر كبير من الاشتراك ، وكلاهما يستعمل مادة الأصوات الزمنية ، فالموسيقى تستعمل أصواتا لا معنى لها كمادة أولية ، والأدب يستعمل أصواتا مليئة بالمعاني هي الألفاظ >>⁴ .

ونحن إذا عدنا إلى تاريخ اللغة العربية - وبخاصة عصر الاحتجاج الذي يُعدُّ طورَ نُضجها - واستحضرنا البيئة اللغوية التي تشكلت في إطارها ، وحاولنا - مثلاً - نقلَ مشهد من الأسواق الأدبية وقد انبرى الشاعر يُلقي قصيدة ، وانتظَمَ الجمهور يصيحُ السمع ، ولا

¹ - ابن جني ؛ الخصائص : 33/1 .

² - محمد رزق شعير ؛ الفونولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1429 هـ ، 2008 م ، ص 07 .

³ - ستيفن أولمان ؛ دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1988 م ، ص: 30 ، 31 .

⁴ - عبد العزيز عتيق ؛ في النقد الأدبي ، دار النهضة المصرية ، ط2 ، بيروت 1972 ، ص 269 .

معول حينئذٍ إلا على لسان طلق فصيح ، وسمعٍ مرهف نواق قلنا مع إبراهيم أنيس >> إنَّ ظاهرة الموسيقى في اللغة العربية تُعزى في أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين <<¹ ، وسلّمنا للعقاد أنَّ >> التركيب الموسيقي أصلٌ من أصول هذه اللغة لا ينفصل عن تقسيم مخارجها ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها ولا عن دلالة الحركة في معانيها ومبانيها بالإعراب أو الاشتقاق <<² .

ولأنَّ الصوت بهذه الأهمية فإنه ما كانت لتغفله كتب اللغويين ومؤلفاتهم أو يتخلف عن بحثهم واهتمامهم ؛ حيث نجد للدراسات اللغوية قديمها وحديثها اهتماما كبيرا بالجانب الصوتي من اللغة ومباحثه ، إلى الحد الذي يجعله قطب الرحى في الدرس اللغوي برمته ؛ إذ المعاجم مؤلّفة على أساس من علم الصوت ، والصرف وما فيه من ظواهر الإعلال والإبدال ، والحذف والزيادة ، والاشتقاق ، والبناء والإعراب ، ... كل ذلك أساسه الصوت ، والعروض وما فيه من مفاهيم ومصطلحات كالأسباب ، والأوتاد ، والقوافي ، والروي ، والتأسييس ... ، وغير ذلك من مصطلحات كلِّ صوت ، والقراءات وما يتبعها من أحكام التجويد ؛ مدًّا ، وغمّةً ، وإمالةً ، وإشمامًا ، وتحقيقًا ، وتسهيلًا ... ، كل ذلك صوت ، و>> الصوت والمعنى هما من أبرز خصائص اللغة الإنسانية ، ولذلك كان التحليل الصوتي اللغوي معزولا ومنظوما محورَ التفكير الصوتي عند علماء اللغة قديما وحديثا <<³ .

ولذلك كان من الطبيعي أن يتساوق اهتمام علماء اللغة بالدراسات الصوتية مع اهتمامهم بالعلوم اللغوية الأخرى، وما كان له أن يتأخر عن عهد الخليل بن أحمد الذي وسعَ حِسُّهُ الموسيقيُّ الشعرَ العربيَّ في شتى أوزانه وصوره ، وتفنّنت عبقريته عن علم العروض الذي ضبط الشعرَ كلّه ، ولم يتم له ذلك إلا بعد أن فقّه الصوت كمًّا وكيفًا وعن خلفه سيبويه

¹ - إبراهيم أنيس ؛ دلالة الألفاظ مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط 6 ، 1991 ، ص 119 .

² - العقاد ؛ اللغة الشاعرة ، دار غريب ، القاهرة ، د.ت ، ص 38 ، 39 .

³ - محمد رزق شعير ؛ الفونولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم ، ص 8 .

الذي لم يفته أن يلتفت إلى الجوانب الصوتية للغة لدى تناوله صفات الحروف ومخارجها ، وعند حديثه عن قضايا صميمة في الصرف ؛ كالإعلال والإبدال ، والقلب المكاني ، وعند حديثه عن الفعل المعتل الأجوف والمثال واللفيف بنوعيه وغير ذلك من الظواهر اللغوية ذات الصلة بالصوت.

أمّا حديثاً فقد حظي الدرس الصوتي بغير قليل من الاهتمام والعناية ، وعرفنا له أنواعا وفروعا ، كعلم الأصوات النطقي ، و علم الأصوات السمعي ، و علم الأصوات المقارن... وغير ذلك من العلوم التي تتخذ من الصوت اللغوي مضمارا لها .

وثمة خصوصية يتميز بها الدرس الصوتي عن باقي علوم اللغة هي أنه يمثل الجانب الحسي في اللغة ؛ ومن ثمّ أمكن إدخاله المخبر والتحدث فيه بلغة الكم والقياس ، التي هي بالأساس لغة العلوم التجريبية ، فيكون الصوت بذلك نقطة الالتقاء بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية .

وبالجملة فإنّ الصوت هو الخامة الأولى التي تستمد منها اللغة أهميتها البيانية ، وهو كذلك الخامة الأولى التي تستمد منها غايتها الفنية.

ولولا الاعتبار الصوتي لما كان الشعر ديوان العرب ولما كان الشاعر مقدما على الناثر ، بل إنهم لتلك الغاية وحدها جوّزوا للشاعر من خرق القاعدة ما لم يجوّزوا للناثر، وللاعتبار نفسه كان >> ما تكلمت به العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيّد الموزون ولم يحفظ من المنثور عُشره ولا ضاع من الموزون عُشره <<¹ ، وإننا لنجد النثر كثيرا ما يحاكي الشعر بما يضيفه الناثر على كلامه من ظواهر صوتية كالسجع والتجنيس ، وغير ذلك من المحسنات اللفظية ، وخير شاهد على ذلك عناوين الكتب التراثية التي يجنح أصحابها إلى تسجيلها طلبا لحفظها.

¹ - ابن رشيق ؛ العمدة ، ص 20 .

أمَّا القرآن الكريم وانطلاقاً من كونه نصًّا لغوياً قبل كلِّ شيء فإنه >> خاطب فطرة الإنسان المجبولة على حبِّ الإيقاع والجمال الصوتي <<¹ ، كما أن موسيقاه >> تعبير عن حالات النفس وترتبط بحركة شعورها ... أجل صوت الموسيقى في القرآن هو صوت النفس البشرية ... صوت فرحها وحزنها ، أملها ويأسها ، غضبها وسعادتها <<² ، ومن ذلك يستمد البحثُ في موسيقى القرآن أهميته اللغوية والفنية ويكون البحث في أصواته ممَّا لا يمكن إغفاله في كل دراسة جادة تستهدف استكناه أبعاد هذا النص المعجز والاقتراب من بعض معانيه ودلالاته المستكنة وراء موسيقاه المعجزة ذلك أن في الصوت اللغوي دلالة وفناً وكلاهما غاية مستهدفة إذ لا مكان للاعتباطية في التنزيل.

والقرآن نفسه يدعو المسلم لتقويم سلوكه الصوتي في أهمِّ شعيرة فيقول : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ

بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء الآية 110] ، وهو كلام

صريح في جوهر الصوت من حيث هو صوت لا في ما يتضمنه من دلالة لأنه يوجّه إلى الاعتدال في تلاوة الصلاة من حيث درجة الصوت وذلك >> من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعنقبان على الصوت لا غير <<³ ، والصلاة نفسها منها الصلاة الجهرية ، والصلاة السرية .

والقرآن يوجب الترسل والترتيل فيقول ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [الأنعام الآية 108] والترتيل تضبطه

الأحكام من مدٍّ وغنة وإدغام وإمالة وغير ذلك ، وكلُّ أولئك ظواهر صوتية ؛ منها ما له أثر في الدلالة ، ومنها ما لا اعتلاق له بها ؛ لذلك قسمنا مادة هذا الفصل لمبحثين ؛ تناول الأول الظواهر العدولية الصوتية الصرّفة ، فيما تناول الثاني الظواهر العدولية الصوتية ذات

¹ - سيد خضر ؛ فواصل الآيات القرآنية ، دراسة بلاغية دلالية ، ص 16 .

² - نعيم اليافي ؛ عودة إلى موسيقى القرآن ، مجلة التراث العربي ، العدد 25 ، 26 ، 1987/1986 ، ص 70 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف : 46/3

العلاقة بالدلالة ، ووقفنا في ذلك عند حدود موسيقى الفاصلة كيما نتمكن من عرض الفكرة في حدود ما تسمح به مساحة البحث ، ذلك أنّ بحث موسيقى القرآن بشكل تفصيلي والوقوف على جزئياتها أكبر من أن تضمّه دفئا كتاب ، بله مذكرة تكتب تحت وطأة الشروط الأكاديمية وطائلة الزمن المحدود ، بل إنه فوق قدرة الفرد الواحد .

وللضرورة المنهجية يحسُن أن نعرّف ابتداءً بمفهوم الإيقاع من حيث هو محور الدراسة الصوتية .

الإيقاع: مصطلح صوتي نال حظا كبيرا من عناية الباحثين إلا أنه - لارتباطه بأكثر من علم من جهة ، ولتعدد المفاهيم التي يمكن أن يدل عليها من جهة ثانية - لم يتبلور بصده تعريف محدد ذلك أنه >> منذ عهد اليونان الذين كانوا أوّل من اجتهد في تحديده لا يزال مفهوم الإيقاع محلّ نزاع في الرأي بين الباحثين القدامى والمحدثين <<¹ ،

فهو لغة >> إصابة المطر بعض الأرض وإخطاؤه بعضا ، وهو إنبات بعضها دون البعض <<² .

وهو اصطلاحا >> النسبة في الكميات ، والتناسب في الكيفيات ، والنظام والمعاودة الدورية <<³ .

وعرّفه عبد الحميد جيدة بأنه: >> نسيج من التوقيعات والإشاعات والاختلافات والمفاجآت التي يحدثها تتابع المقاطع <<⁴ ، ثم خصّ الإيقاع القرآني بقوله : >> هو تلك الظاهرة التي

¹ - محمود المسعدي ؛ الإيقاع في الشعر العربي ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، مطبعة كوتيب ، تونس ، 1996 ، ص 5 .

² - ابن منظور ؛ لسان العرب ، و.ق.ع .

³ - محمد العياشي ؛ نظرية الإيقاع في الشعر العربي ، المطبعة العصرية ، تونس ، 1976 ، ص 43 .

⁴ - عبد الحميد جيدة ؛ الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، 1980 ، ص : 356 .

تقوم على التكرار المنتظم <<¹ ، ورأت فيه نازك الملائكة: >> نوعا من التنويم يخدر به الشاعر حواس القارئ موحيا له بأن القصيدة قد انتهت <<² ، واعتبره عبد الملك مرتاض قوام النظم في القرآن فقال: >> إننا ألفينا القرآن العظيم يقوم جمال نظمه أساسا - في رأينا - على اصطناع الإيقاع العبقري الذي يطبع بنية كل سورة من السور بطابع إيقاعي يكون هو الخاصة الأسلوبية التي تبهر وتسحر <<³ .

وإذا أمعنا النظر في التعريف اللغوي الذي يحدُّ الإيقاع بأنه إصابة المطر بعض الأرض وإخطاؤه بعضها ، أو إنبات بعضها دون البعض فإننا نجد أن مدلول اللفظ يمكن أن يتحدد بمعنى المناوبة بالإصابة مرة ، والخطأ مرة أخرى ، أو الإنبات مرة وعدم الإنبات مرة أخرى ، أي أنه التناوب بين الضدَّين ، وهو ما يمكن أن يفهم ضمنا كذلك من تعريفه الاصطلاحي بأنه " التكرار المنتظم " ، أو " المعاودة الدورية " ، ذلك أن تكرار الظاهرة تكرارا منتظما معناه التناوب بين وجودها وعدمها .

وحتى ندرك أهمية الإيقاع في اللغة يجب أن نضع في الحسبان اعتبارين اثنين ؛ الأول مصدر الصوت المتمثل في الجهاز النطقي ، والثاني مآله المتمثل في حاسة السمع لأنَّ الكلمة كلما تقاربت مخارج أصواتها كانت ثقيلة مستكرهة ، ولا تعذب وتسهل في اللسان إلا إذا تباعدت مخارجها وهو شرط معروف وأساس في فصاحة الكلمة ؛ قال ابن جني : >> الحروف كلما تباعدت في التأليف كانت أحسن ، وإذا تقارب الحرفان في مخرجيهما قبح اجتماعهما ، ولاسيما حروف الحلق <<⁴ ، وعقد ابن سنان الخفاجي بين الحرف والألوان مقارنة فقال : >> لاشك في أنَّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ؛ لقرب ما بينه وبين

¹ - السابق: ص 357 .

² - نازك الملائكة ؛ قضايا الشعر المعاصر ، ط1 ، دار الآداب ، بيروت ، 1962 ، ص 31 .

³ - عبد الملك مرتاض ؛ دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي ، دم.ج ، الجزائر ، 1992 ، ص 149 .

⁴ - ابن جني ؛ سرّ صناعة الإعراب ، تح مصطفى السقا ورفاقه ، ط1 ، مصطفى البابي الحلبي ، 1954 ، 75/1 .

الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود ، وإذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه ، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة <<¹ ، واللفظة >> إذا تعقدت في جهاز النطق فإنها تحاكي حدة المعنى وتشير إلى صعوبة الحدث <<² .

كما أنّ الأذن تستعذب إيقاعات وتطرب لها ، سواء في اللغة أو الموسيقى ، وتستثقل أخرى وتتأذى بها وبخاصة إذا كانت إيقاعات رتيبة ، و >> من الأسباب التي تجعل الأذن تضيق بالصوت الرتيب هو أنّ الصوت الرتيب يُعمل الأذن على نوع واحد فيضني الأعصاب السمعية فعلاً قطرة الماء في الصخرة إذا وقعت منها دائماً على نقطة واحدة ، ولا كذلك التنوع في الشدة والنغمة فإنه يريح الأذن حتى في عملها <<³ .

وقد تصل أهمية الإيقاع إلى الحد الذي يوجّه الفهم ، أو حتى يرهنه ؛ وبخاصة في النصوص المتضمنة أفكاراً أو انفعالات عاطفية ؛ ذلك أنه >> يمكن أن يحصل لدى السامع أثر فيزيولوجي بحت متى كان الإيقاع أو نبراته الأساسية على نسق دقات القلب ؛ فإيقاعٌ دون سبعين دقة في الدقيقة يُوهنُ ، وإيقاعٌ دون الثمانين يُنشِطُ ، أو قد يحصل كذلك أثر نفسي فيزيولوجي شبه سحري أكثر تشعباً من الأول ، ويجعل نسقَ التنفس والانفعال العاطفي خاضعين لتأثير الإيقاع الصوتي <<⁴ ممّا يعني أنّ لطبيعة الإيقاع وتواتره كبير الأثر على الوظائف الحيوية النازمة لآلية الفهم والتلقي إلى الحد الذي يجعله صمّام الأمان في عملية التواصل كلها.

¹ - ابن سنان الخفاجي ؛ سر الفصاحة ، تح عبد المتعالي الصعيدي ، مكتبة الصبيح ، القاهرة ، 1953 ، ص 66 .

² - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 80 .

³ - جان ماري جويو ؛ مسائل فلسفة الفن المعاصرة ، تر سامي الدروبي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1984 ، ص 69 .

⁴ - ماتيلاس غيكا ؛ دراسة في الإيقاع ، ص 170 ، نقلاً عن شارف مزارى ، جمالية التلقي في القرآن الكريم ، أدبية الإيقاع الإعجازي أنموذجاً ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2009 ، ص 154 .

والقرآن الذي وسع اللغة صوتا ومعنى راعى هذا الجانب كلَّ المراعاة وأثرى اللسان العربية بمصطلح لم يكن معروفا من قبله هو مصطلح الفاصلة التي تتعرف بأنها >> كلمة آخر الآية كقافية الشُّعْر وقرينة السجع <<¹ ، وإذ نشير هنا إلى مصطلح الفاصلة فلأنه هو الذي يحدد طبيعة الإيقاع القرآني بالأساس² وتُرتكَب لأجله ضرورات كثيرة منها العدول في صيغ الكلمات وقد قال ابن الصائغ الحنفي في المناسبة بين فواصل القرآن : >> اعلم أنَّ المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية ترتكب لها أمور من مخالفة الأصول ... وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت على نيفٍ وأربعين حُكما <<³ ، كما أنَّ >> الإيقاع الذي هو قمة النغم اللفظي يكون ظاهرا أكثر ما يكون في الفواصل <<⁴ ، و>> ما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صُورٌ تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب <<⁵ ، لكن الإشكال المطروح قديما وحديثا هو: هل يمكن أن يكون الإيقاع الذي ترتكب لأجله الضرورات - ومنها العدول الصرفيُّ - غاية في ذاته ، أم أنه دائما تَبَعٌ للمعنى؟ ، ونفرِّع عنه التساؤل : هل يمكن أن يكون العدول الصرفيُّ لغاية صوتية محضة؟ أم أنَّ الغاية دائما معنوية والإيقاع تَبَعٌ لها؟

الحقيقة أنَّ علماء اللغة إزاء هذا الإشكال فريقان ؛ فريق التزم بالدفاع عن البعد المعنوي مؤكداً أنه لا يُعدل إلا طلبا لمعنى يغيب في التزام الأصل ، وفريق رأى في الإيقاع والمناسبة بين الآي هدفا يقصد إليه العدول قصدا ويتغياها لذاته ؛ قال الفراء في تشبيه لفظ "جَنَّتَانٍ" من

¹ - الزركشي ؛ البرهان : 53/1 .

² - ينظر ؛ شارف مزارى ؛ جمالية التلقي في القرآن الكريم ، ص 58 .

³ - السيوطي ؛ الإتقان في علوم القرآن ، تقديم و مراجعة محمد شريف سكر ومصطفى القصاص ، مكتبة المعارف ، الرياض ودار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان ط 1 ، 1407 هـ - 1987 م ، 126/2 ، 127 ، وينظر : الزركشي ؛ البرهان 91/1... 98 .

⁴ - السيد خضر ؛ فواصل الآيات القرآنية ، دراسة بلاغية دلالية ، ص 6 .

⁵ - الرافي ؛ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1424 هـ - 2003 م ،

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴾ ، >> هذا مذهب العرب في تنثية البقعة الواحدة وجمعها كقوله : " دِيَّارٌ لَهَا بِالرَّقْمَيْنِ " ، و " بَطْنُ الْمَكْتَنِ " ، وأشار بذلك إلى نواحيها ، أو للإشعار بأن لها وجهين ، أو أنك إذا نظرت إليها يمينا وشمالا رأيت في كلتا الحالتين ما يملأ عينك قرة ، وصدرك مسرة ، قال وإنما ثناها هنا لأجل الفاصلة رعاية للتي قبلها والتي بعدها <<¹ .

>> أنكر ذلك ابن قتيبة عليه وأغظ وقال : إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف ، أو حذف همزة ، أو حرف ، فأما أن يكون الله وَعَدَ بَجَنَّتَيْنِ فنجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآي فمعاذ الله وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنتين قال: " ذَوَاتَا أَفْنَانٍ " ثم قال: " فِيهِمَا " ، ولو أن قائلًا قال في خزنة النار: إنهم عشرون وإنما جعلهم تسعة عشر لرأس الآية ما كان هذا القول إلا كقول الفراء <<² .

لكن القراءة المتأنيئة لنص ابن قتيبة تجعلنا نفهم أنه لم ينكر الغاية الإيقاعية من حيث هي بدليل أنه لم يعترض على زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف الهمزة ، أو حذف حرف طلبا للمناسبة ، ولكنه أنكر أن يكون في الآية عدول إلى المثنى أصلا .

وفي رد صاحب البحر المحيط العدول عن البناء للفاعل إلى البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ إلى رعاية الفاصلة قالت بنت الشاطئ >> هذا ملحظ بياني من الزخرف البيدي لا نقول بمثله في البيان الأعلى ، إنما جاء البناء للمجهول لمقتضى معنوي ، وهو أن البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحد أو من أحد على الإطلاق وإنما هو خالص لوجه الله تعالى <<³ .

¹ - الزركشي ؛ البرهان : 60/1 ، 61 .

² - نفسه : 95/1 ، 96 .

³ - عائشة عبد الرحمن ؛ التفسير البياني ، 117/2 .

ورأى الدكتور محروس محمد إبراهيم أنّ ظاهرة العدول معنوية أكثر ممّا هي لفظية ، ولإثبات ذلك قارن التقطيع الصوتي لبعض الصيغ المعدول إليها بالصيغ المعدول عنها مثل: احذر / حذار ، فجر / فجار ، حالقة / حلاق...¹ ، ولكن هذا الاستدلال يبيّن الفساد من جهة المنطق والمنهج إذ لا يمكن الحكم على الكل انطلاقاً من جزئه ما لم تكن الأجزاء متطابقة وهي ليست كذلك هنا لأن الكلمات بوصفها أجزاءً للكلام ليست متشابهة مقطعيًا.

وقال الزركشي لدى تعرضه لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ إبراهيم الآية 31 : >> إنّ المراد "وَلَا خِلَّةٌ" بدليل الآية الأخرى ، لكن جمعه لأجل مناسبة رؤوس الآي <<² ، وقوله جمعة لأجل مناسبة رؤوس الآي صريح في رد العدول عن المفرد إلى الجمع إلى الإيقاع .

وفي عكسه (العدول عن الجمع إلى المفرد) ردّ ابن سيده العدول في الآية: ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف الآية 51 ، إلى الحاجة الإيقاعية لأنّه >> إنّما أفرد ليعدل رؤوس الآي بالإفراد <<³ .

ولو عدنا إلى نص عبد الملك مرتاض المتقدم لاستوقفنا عبارته " يقوم جمال نظمه (لقرآن) أساسا في رأينا على اصطناع الإيقاع العبقري " التي تدل صراحة على أمرين ؛ الأوّل هو أنّ الإيقاع العبقري أساس جمال النظم في القرآن ، والثاني أنّ الإيقاع مصطنع أي مقصود ومن ثم فهو هدف برأسه .

¹ - ينظر : محروس محمد إبراهيم ؛ البنية الصرفية وأثرها في تغيير الدلالة ، ص 105 .

² - الزركشي ؛ البرهان ، 64/1 .

³ - نفسه : 95/1

والحقيقة أن القرآن كما هو معجز بمعناه هو كذلك معجز بمبناه والشواهد على ذلك كثيرة منها:

- المناسبة بين فواصله سواء في السورة الواحدة أو بين السور المتجاورة¹ ، وهو أمر لا اعتراض عليه لفشوه واطراده.
- المناسبة بين فواتح السور ومتونها وبخاصة تلك المفتحة بالحروف المقطعة .
- ظاهرة التكرار سواء في بدايات السور ؛ كما في مفتتح الواقعة: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ، والحاقة: ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ ، والطارق: ﴿ وَالطَّارِقُ ﴿١﴾ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٣﴾ والبلد: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ ، والعلق: ﴿ أَقْرَأَ ﴿١﴾ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿٢﴾ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٣﴾ أَقْرَأَ ﴿٤﴾ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٥﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٦﴾ ، والقارعة: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ... ، أو في وسطها كآية البأثرة في سورة الرحمن ، ولا يخفى أن للتكرار فضلا عن دوره البياني دوراً فنياً يتمثل في إعطاء النص إيقاعاً موسيقياً يميز كل سورة عن أخرى ويضفي عليها إحساساً بالتفرد كما لو كانت لكل سورة بصمة صوتية خاصة بها ، وهي أظهر ما تكون في السور ذات الروي الواحد كما في سورة مريم ، أو سورة القمر ، أو سورة الرحمن ، أو سورة الجن ...

¹ - مثل: سورة الإسراء مع سورة الكهف وسورة مريم ، وكذا سورة الأنفال مع سورة التوبة .

- الاشتقاق من فواتح السور كما في: ﴿ وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوًا ﴾^١ ، و ﴿ وَالنَّشِيطِ نَشِطًا ﴾^٢ وَالسَّبِيحِ سَبْحًا^٣ فَالسَّبِيحَتِ سَبَقًا^٤ ، و ﴿ وَالصَّيْفَتِ صَفًا ﴾^٥ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا^٦ ، و ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾^٧ ، و ﴿ يَتَأَيُّبُ النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ^٨ ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾^٩...

- تغيير كلمة الفاصلة لإيجاد التوازن بين الجمل والآيات المجاورة وهو الذي سمّاه أهل اللغة " المناسبة " التي ترتكب من أجلها الضرورات كزيادة الألف في قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾^{١٠} الأحزاب الآية 10 >> لأنّ مقاطع فواصل هذه السورة أَلِفَاتٌ مَنقَلِبَةٌ عَن تَنوِينٍ فِي الوَقْفِ فزِيدَ عَلى النون ألف لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل ومثله ، و ﴿ وَأَطَعْنَا الرَّسُولًا ﴾^{١١} الأحزاب الآية 66 ، وقوله : ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾^{١٢} الأحزاب الآية 67 <<¹ ، ذلك لأنّ فواصل السورة ، وعددها ثلاث وسبعون فاصلة ، كلّها منتهية بالمقطع المتوسط المفتوح (ص ح ح)² مكرر مرتين أي أنها كلها من الشكل (ص ح ح + ص ح ح) ولو حُذفت الألف في الفواصل الثلاث (الظنون ، السبيل ، الرسول) لكانت بالشكل : "الظنون" ، "السبيل" ، "الرسول" ومقاطعها الأخيرة كلها من الشكل : ص ح ح ص ، (باعتبار الوقف) وهو ما يحدث اختلالاً في موسيقى السورة.

¹ - الزركشي ؛ البرهان ، 91/1 .

² - ص : صحيح (صامت) ، ح : حركة (علة) .

ولا يخفى أنّ زيادة الألف من أسبابه طلب الترنم قال سيبويه : >> إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف و الياء والنون لأنهم أرادوا مدّ الصوت ويتركون ذلك إذا لم يترنموا وجاء في القرآن على أحسن موقف وأعذب مقطع <<¹

- زيادة هاء السكت كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ

هَٰؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ ﴿١٦﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَهٗ ﴿١٧﴾ ﴾ و﴿فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ

أُوتِ كِتَابِيَهٗ ﴿١٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ ﴿١٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿١٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي

مَالِيَهٗ ﴿١٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ﴿١٩﴾ ﴾ الحاقّة الآيات 19 ، 20 ، و 25 ، 26 ، 27 ،

28 ، 29 ، والشاهد فيها : كِتَابِيَهٗ ، حِسَابِيَهٗ ، مَالِيَهٗ حيث أضيفت هاء السكت إلى هذه

الكلمات وحققت هذه الإضافة إيجاد المقطع المتوسط المغلق (ص ح ص) " يَهٗ "

لنتناغم الكلمات الثلاث مع باقي الفواصل قبلها وبعدها حيث شكّل هذا المقطع فصلا

موسيقيا استمر من بداية السورة : "الحاقّة ما الحاقّة" إلى الفاصلة 29 " سُلْطَانِيَهٗ " وهو

أكثر من نصف آيات السورة ، وتشكل الفاصلة 29 " سُلْطَانِيَهٗ " معلما ينتهي عنده

المقطع (ص ح ص) ويبدأ المقطع (ص ح ح ص) ممثلا في الفاصلة 30 (غُلُوهُ)

ومعها موضوع آخر هو تعذيب الكافر (غُلُوهُ ، صَلُّوهُ ، اسْلُكُوهُ ...)

- تغيير بنية كلمة الفاصلة كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿٢٠﴾ وَطُورِ سِينِينَ

﴿ ٢١ ﴾ التين الآيتان 1 ، 2 .

إذا قابلنا هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ

¹ - السيوطي ؛ الإتيان في علوم القرآن ، 134/2 .

وَصَبَّغَ لِلْأَكْلِينِ ﴿٢٠﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْآيَةَ 20 تساءلنا : هل " طُورُ سَيْنِينَ " هو

نفسه " طُورُ سَيْنَاءَ " أم أنهما مكانان مختلفان ؟

جاء في التحرير : >> وأما "طور سينين" فهو الجبل المعروف بـ: "طور سيناء" <<¹ ، وقال الطبري : >> هو جبل موسى عليه السلام ومسجده <<² ، و >> "الطور" الجبل بلغة النبط وهم الكنعانيون ، وعُرف هذا الجبل بـ " طور سينين " لوقوعه في صحراء "سنين" ، و "سينين" لغة في "سين" وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين ، وقيل "سينين" اسم الأشجار بالنبطية أو بالحبشية ، وقيل معناه الحسنُ بلغة الحبشة <<³ ، وقال في الكشف : >> " وطور سينين " لا يخلو إمَّا أن يُضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء ، أو سينون ، وإمَّا أن يكون اسما لجبل <<⁴ ؛ بمعنى أن تعيين المكان حاصل بإحدى طريقتين ؛ إمَّا لفظ الطور مفردا ، أو لفظ الطور مضافا إلى بقعة اسمها سيناء أو سينون ، أي أنَّ " طور سينين " أو " طور سيناء " معناه جبل البقعة المسماة "سينين" أو "سيناء" ، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ " سيناء " و " سينين " بمعنى ، غير أنَّ اللفظ في سورة " المؤمنون " واقع في درج الآية ، وجاء في سورة التين فاصلة هي إحدى فواصل ثمان كلها منتهية بالمقطع ص ح ح ص (... تون ، ... نين ، ... مين ، ... ويم ، ... ، لين ، ...نون ، ... دين ، ... مين) ، فكان في العدول به من " سيناء " إلى "سينين" ما يناسب مقاطع السورة ، لذلك رأى الفراء : أنَّ "طور سينين" هو " طور سيناء" ، وهو نفسه الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ

من طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصَبَّغٍ لِلْأَكْلِينِ ﴿٢٠﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْآيَةَ 20، ولكن

1 - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 421/12 .

2 - مختصر تفسير الطبري ، مجمع البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف ، مصر ، د. ط ، د. ت ، ص 659.

3 - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 421/2 ، 34/8 .

4 - الزمخشري ؛ الكشف : 245/3 .

اللفظ في سورة التين جاء فاصلة مسبوقه ومتبوعه بفواصل النون المسبوقه بحرف المد ، ولهذا غيرت بنية الكلمة من سيناء إلى سينين لموافقة الإيقاع ، وقرأ عمر - رضي الله عنه - آية التين "طور سيناء"¹ ، وقراءة عمر (ض) تؤكد هذا العدول .

ولست أقصد إلى حصر الضرورات التي ترتكب لأجل رؤوس الآيات وإلا لزم عرضها كلها ، وإنما أهدف إلى التدليل على أن المناسبة التي هي مصطلح صوتي كما تطلب لغاية معنوية إيقاعية ، يمكن أن تطلب لغاية إيقاعية محضة ، ذلك أن ألف الإطلاق - مثلا - لا يمكنها بحال أن تضيف شحنة دلالية إلى لفظ الرسول ، أو الظنون إلا أن يكون ذلك تمحلاً وتكلفاً² ، ولو كانت كذلك لأدخلها النحاة في حروف المعاني وهم إنما سمّوها ألف الإطلاق لإطلاق الصوت بها .

وكذا هاء السكت فهي كذلك تفتقر إلى الوظيفة الدلالية ولا يمكن أن يكون في "كتابه" مزيد معنى عن "كتابي" ، ولا في "سلطانيّة" معنى زائد عن "سلطاني" ، وليست الهاء إلا صوتاً مجتلباً لغاية تيسير السكت وتسويغها ؛ تماماً كما تجتلب الحركة عند التقاء الساكنين لتيسير النطق .

وهذه الإضافة (إضافة ألف الإطلاق أو هاء السكت) ، وإن لم تكن من مشمولات علم الصرف ، إلا أن فيها دليلاً على استهداف الإيقاع في النص القرآني ، أما العدول الصرفي (في الفواصل) الذي يتوخى الجانب الصوتي فهو ما تضمنه المبحث التالي:

¹ - ينظر : ابن قتيبة ؛ تأويل مشكل القرآن ، تح أحمد صقر ، دار التراث ، مصر ، ط2 ، 1394 هـ - 1973 م ، ص 200 .

² - ينظر : صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 326 .

المبحث الأول:

العدول الصرفي ذو الأثر الإيقاعي المحض

نورد في هذا المبحث نماذج من العدول في فواصل الآيات التي تجمعها الغاية الإيقاعية بقطع النظر عن نوع العدول ، سواء أكان في الاسم ، أم الفعل ، أم تناول الجنس ، أم العدد ، أم الاشتقاق ، أم غير ذلك ، متخذين من المقارنة بين اللفظ المستعمل والبديل (أو البدائل) المتروك منها نرصد من خلاله أهمية كل لفظ معدول إليه ، و>> الدراسات النقدية القديمة في مجال الإعجاز حافلة بتطبيقات جمالية تكشف عن القيمة الإيحائية للألفاظ ، وذلك عندما وازنت بين اللفظ الحاضر في النص واللفظ الغائب عنه على وفق علاقات التداخي ، وهذا يقترب من فكرة الفحص الاستبدالي التي طرحها النقد المعاصر في مضمار مقارنة النصوص الأدبية >>¹ .

النموذج الأول : قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ المزملة الآية 08 ، والمعنى >> انقطع إليه انقطاعاً لعبادتك وحوائجك دون غيره >>² والشاهد في الآية لفظ "تبتيلاً" المعدول به عن "تبتُّلاً" لأنَّ مصدر الفعل "تبتَّل" هو "التبتَّل" لا "التبتيل" ، أمَّا "التبتيل" فهو مصدر الفعل "تبتَّل" .

وهذا العدول حقق انسجاماً صوتياً بين فواصل السورة ، ذلك أنَّ فواصل المزملة عشرون فاصلة هي :

¹ - السابق ، ص 372 .

² - مختصر تفسير الطبري ، ص 662 .

" المزمَّل ، قليلا ، قليلا ، ترتيلا ، ثقيلًا ، قِيلا ، طویل ، تبتيلا ، وكيلا ، جميلا ، قليلا ، جحيما ، أليما ، مهيلا ، رسولا ، وبَّيلا ، شيبيا ، مفعولا ، سبيلا ، رحيم " .

وإذا استثنينا الفاصلة الأولى التي انتظمتها جملة النداء " يَأْيُهَا الْمَزْمَلُّ " فإنَّ الفواصل كلها تشكل رتلا صوتيا واحدا يتأسس على تكرار المقطع الصوتي ص ح ح مرتين نهاية كل فاصلة ، ولذلك فإنَّ إيراد الفاصلة الثامنة على الأصل "تَبْتَلًا" من شأنه أن يخرم البناء الموسيقي بإقحام النهاية (ص ح + ص ح ح) بالإطلاق ، أو البنية (ص ح + ص ح ص) بالوقف الذي سيكون كتلة صوتية ناشزة ضمن باقي كُتَلِ الرتل المكوَّن من تسع عشرة فاصلة من نوع واحد ؛ وهو ما يفسر ترك المصدر "تَبْتَلُ" إلى المصدر "تبتيلا" ؛ قال الزمخشري : >> فإن قلت: كيف قيل " تبتيلا " مكان " تبتُّلا " ، قلتُ لأنَّ معنى "تَبْتَلُ" : بَتَّلُ نَفْسَكَ فجيئ به على معناه مراعاة لحق الفواصل <<¹ ؛ فهو يرى أنَّ المكان للمصدر "تَبْتَلًا" لا "تَبْتِيلا" وهو صريح في إثبات العدول في هذه الآية ، كما أنَّ قوله : "جيئ به على معناه" ينهض شاهدا على الترادف بين اللفظ المعدول عنه واللفظ المعدول إليه ، وحيث كانا مترادفين فإنَّ الاختلاف بينهما صوتي محض ولذلك طلب أحدهما وترك الآخر .

و" تَفَعَّلَ " التي عليها "تَبْتَلُ" تأتي >> بمعنى إدخالك نفسك في أمر حتى تضاف إليه أو تصير من أهله نحو تشجَّعت وتجلَّدت وتبصَّرت وتمرَّأت أي صرت ذا مروءة ، وتخشَّعت وتبتَّلَت ، وتدهَّقت أي تشبهت بالدهاقين ، وتحلَّمت <<² ، واستشهد بقول حاتم الطائي :

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَدْنِيِّينَ وَاسْتَبَقْ وَدَهُمُ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَا³

فيكون بذلك معنى الآية: أدخل نفسك في المنقطعين إلى عبادته تعالى .

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف ، 488/4

² - ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب ، ص 304 ، وينظر : ابن عصفور الإشبيلي ؛ الممتع ، 184/1 .

³ - ديوان حاتم الطائي وأخباره ، طبعة لندن ، 1872 م ، ص 24 . وهي في الديوان "تحمل" لا "تحلم".

وسمى ابن قتيبة هذا العدول << ما جاء فيه المصدر على غير صدر >>¹، وساق له

مثالا الآية المتقدمة ، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ﴿٤٧﴾ نوح الآية 17

واستشهد لذلك بقول عمير بن شبيب القطامي (ت 130 هـ)

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بَأَنْ تُتْبِعَهُ اتِّبَاعًا²

والشاهد فيه العدول عن المصدر "تَتَّبَعًا" إلى "اتَّبَاعًا"، ثم قال << وإنما تجيء هذه المصادر مخالفة للأفعال لأنَّ الأفعال وإنْ اختلفت أبنيتها فهي واحدة في المعنى >>³ ، وهو شاهد آخر على أنَّ العدول ليس لغرض معنوي .

النموذج الثاني: قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾ ﴿٢٨﴾ النبأ الآية 28

الآية من سورة النبأ وعدد آياتها أربعون آية تنقسم بحسب طبيعة فواصلها إلى فقرتين تتكون الأولى من الآيات الخمس الأولى ذات الفواصل : (يتساءلون ، ... العظيم ، ...مختلفون ، ... سيعلمون ، ...سيعلمون) ، والمقطع الأخير في كل فاصلة هو المقطع الطويل المغلق: ص ح ح ص .

وتتكون الفقرة الثانية من خمس و ثلاثين آية فواصلها هي : ...مهَّادا...أوتَّادا...أزواجًا، ...سُبَاتًا ، ... لبَّاسًا ، ... معاشًا ، ... شِدَادًا ، ... وهَّاجًا ، ... ثَجَّاجًا ، ... نَبَاتًا ، ... أَلْفَافًا ، ... مِيقَاتًا ، ... أَفْوَاجًا ، ... أَبْوَابًا ، ... سَرَابًا ، ...مِرْصَادًا، ... مَابًا ، ... أَحْقَابًا ، ...شَرَابًا ... غَسَاقًا ، ... وَفَاقًا ، ... حِسَابًا ، ... كِذَابًا ، ... كِتَابًا ، ... عَدَابًا ، ... مَقَارًا ، ... أَعْنَابًا ، ... أَتْرَابًا ، ... دِهَاقًا ، ... كِذَابًا ، ... حِسَابًا ، ... خِطَابًا ، ...

¹ - ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب ، 421 .

² - نفسه : الصفحة نفسها.

³ - نفسه : الصفحة نفسها.

صَوَابًا ، ... مَآبًا ، ... تُرَابًا ، كُلُّهَا كما هو واضح منتهية بألف الإطلاق الناجم عن إشباع ،
تتوين الفتح ؛ أي بالمقطع المفتوح ص ح ح مكرر مرتين نهاية كل فاصلة ، وهو انسجام
موسيقي واضح يجمع بين التكرار، ممثلًا في المقطع ، والتنوع الذي يمثله الروي .

وفي هذه الآية ، وقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴾ الآية 35 عدول عن
"تكذيبًا" إلى "كذابًا" ، وإذا كان التقطيع الصوتي لكل من اللفظ المعدول إليه "كذابًا" ، واللفظ
المعدول عنه "تَكْذِيبًا" واحدًا لَأَنَّ كلاً منهما مشكَّلٌ من ثلاثة مقاطع : ص ح ص + ص ح ح
+ ص ح ح فإنَّ بينهما فرقا صوتيا في المقطع الثاني ص ح ح الذي هو صوت الذال المشبع
بالياء في "تكذيب" ، وبالألف في "كذابًا" ، وإشباعه بالألف هو الذي يحقق الانسجام مع سائر
الفواصل ، ولذلك قال في التحرير: >> أوتر هذا المصدر هنا دون التكذيب لمرعاة التماثل
في فواصل هذه السورة فإنها على نحو ألف التأسيس في القوافي ، والفواصل كالأسجاع ،
وبحسن في الأسجاع ما يحسن في القوافي <<¹ .

وقال في الكشف: >> "كذابًا" "تكذيب"، وِفْعَالٌ في باب "فَعَلَ" كُلُّهُ فاش في كلام فصحاء
من العرب لا يقولون غيره ، وسمعتهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فسارًا ما سُمع
مثله <<² .

و"كذب" و"فسر" من باب واحد ، فيكون "فسارًا" و"كذابًا" من باب واحد ، فينوب "كذابًا" عن
"تكذيب" كما ناب "فسار" عن "تفسير"

النموذج الثالث : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ القمر الآية 45

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 40/12

² - الزمخشري ؛ الكشف ، 534/4 ، وينظر: ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب ، 420 .

قبل تحليل هذا النموذج لأبد من الإشارة إلى أن سورة القمر من السور التي تجاوزت المناسبة الصوتية بين الفواصل إلى التزام رويٍّ واحد هو صوت الراء ، ومفيد أن نذكر أن الراء من الأصوات التي يكثر استعمالها رويًا في القرآن الكريم بعد كل من النون والميم حيث تصل نسبة استعمال النون 51% ، والميم 12.38% ، والراء 11.04%¹ ، وفواصل القرآن >> تراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها <<² ، والراء تشترك معهما في الإنزلاق.

وفي سورة القمر خمس وخمسون فاصلة هي :

(القمر ، مستمِر ، مستقِر ، مزدَجَر ، النُذِر ، نُكِر ، مُنثِر ، عَسِر ، ازْدُجِر ، انتصِر ، منهَمِر ، قُدِر ، دُسِر ، كُفِر ، مَدَّكِر ، نُذِر ، مُدَّكِر ، نُذِر ، مُنقِعِر ، نُذِر ، مُدَّكِر ، النُذِر ، سُعِر ، أَشِر ، الأَشِير ، اصطَبِر ، محتَضِر ، فَعَقِر ، نُذِر ، المحتَضِر ، مُدَّكِر ، النُذِر ، بِسَحَرَ ، شَكَر ، النُذِر ، نُذِر ، مُسْتَقِر ، نُذِر ، مَدَّكِر ، النُذِر ، مُقْتَدِر ، الزُّبِر ، منتصِر ، الدُّبِر ، أَمِرٌ ، سُعِر ، سَقَر ، بقَدَر ، بالبَصَر ، مَدَّكِر ، الزُّبِر ، مُسْتَطِر ، نَهَر ، مُقْتَدِر).

ولأنَّ مبنى الفواصل على الوقف³ فإنَّ فواصل هذه السورة تنتهي بالمقطع المغلق: ص ح ص المختوم بالراء الساكنة.

وبهذا الاعتبار فإنَّ العدول الملحوظ في الشاهد المذكور يفرضه حضور المقطع: ص ح ص في آخر لفظ "الدُّبِر" وغيابه في اللفظ المعدول عنه "الأدبار" الذي ينتهي بالمقطع "ص ح ص" وهو ما يفسر العدول عن الجمع إلى المفرد في هذه الآية ويؤيد هذا المذهب

¹ - ينظر: السيد خضر ؛ فواصل الآيات القرآنية - دراسة بلاغية دلالية ، ص 79 .

² - الرافي ؛ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، 153 .

³ - السيوطي الإتقان في علوم القرآن ، 134/2 .

العدول عن "عسير" إلى "عَسِرٌ" فاصلة الآية 8 حيث لا يحقق لفظ "عسير" النهاية ص ح ص ، ولفظ "عسير" المتروك هنا مستعمل فاصلة في موضعين في القرآن هما : ﴿ فَذَلِكَ

يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿ المدثر الآية 9 ، و ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿ الفرقان الآية 26 ، حيث ورد في سورة المدثر ضمن فقرة تتكون من ثلاث آيات فواصلها هي: " النَّاقُورِ ، عَسِير ، يَسِير " ليشكل معها نسقا صوتيا قوامه النهاية المقطعية ص ح ح ص ، أمّا في "الفرقان" فإنّ مجيئه فاصلة للآية 26 حقق الانسجام بين جميع فواصل السورة ؛ ذلك أنّها مكونة من سبع وسبعين آية كلّها منتهية بالمقطع ص ح ح مكرر مرتين مثل : " نذيرا" ، "تقديرًا" ، "نشورا" ، "زورا" ... "سلاما" ، "مقاما" ، "لزاما" ما عدا فاصلة الآية 17 " السبيل " التي شذت عن هذا النظام ؛ لذلك فإنه أليق بالمكان من بديله المفترض "عَسِرٌ" الذي ينتهي بالمقطع ص ح ص .

ولا يخفى ما للوظيفة النحوية للكلمة في كلّ من الآيتين من دور إيقاعي حيث أعطاهما ورودها خبرا لـ: "كان" في آية الفرقان ، وخبرا للمبتدأ في آية المدثر إمكانية المدّ بالرفع أو النصب فيتناغم مدّ السين مع مدّ الراء ليعطي النهاية المقطعية : ص ح ح + ص ح ح .

أما في سورة القمر فإنّ البديل المختار "عَسِرٌ" ليس فيه إمكانية المد ومن ثمّ لزوم المقطع ص ح ص الذي يقيم الإيقاع .

وكذا العدول عن "مَسْطُورٍ" إلى "مُسْتَطَرٌ" فاصلة الآية 53 لأنّ "مسطور" لا تنتهي بالمقطع ص ح ص ، وبالمقابل فإنّ ورود اللفظ "مسطور" فاصلة في سورة الطور في قوله تعالى:

﴿ وَالطُّورِ ﴿ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿ يحقق الانسجام بين فواصل السورة المؤسسة على

النهاية المقطعية ص ح ح ص ، ممّا جعل >> هذه السورة يشترك فيها اللفظ والعبرة ، والمعنى والمدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها

على السواء ، ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كما لو كانت سياتا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة ، من البدء إلى الختام << 1 .

وكذلك في قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا

عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ الإسراء الآية 58

وكذلك العدول عن "سَعِير" إلى "سُعْر" فاصلة الآية 47 لأنَّ المفرد "سَعِير" الأكثر استعمالاً في فواصل القرآن يغيب فيه المقطع المذكور ، وبالمقابل هو موجود في الجمع "سُعْر" لذلك فإنَّ الدُّبْر في هذه الآية معناه الأدبار² وإنَّ المقطع الصوتي ص ح ص يشكل الأساس الموسيقي الذي انبنى عليه إيقاع سورة القمر الموسوم بالخفة التي يستمدّها من المقطع نفسه ، وسبب الخفة في هذا المقطع هو تقارب الصوامت ذلك أنه لا يفصل بين الصامتين المتواليين إلاَّ صائت قصير واحد ، ولهذا السبب فإنه يُعدّل إليه في الشعر كذلك ، ومثاله بحر المتقارب الذي يتغير فيه كل من العروض والضرب من "فَعول" إلى "فَعَل" ليتحقق المقطع المذكور عند الوقف .

النموذج الرابع : قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ إبراهيم الآية 31

الشاهد فيه لفظ "خِلَال" المعدول عن "خَلَّة" أو "مُخَالَّة" لأنَّ "الخلال" معناه المُخَالَّة³ ، قال

¹ - سيد قطب ؛ في ظلال القرآن ، ص 3391

² - ينظر : الفراء ؛ معاني القرآن ، 244/3 .

³ - ينظر: الزمخشري ؛ الكشاف : 540/2 ، و مختصر تفسير الطبري : 288 .

الزركشي: >> فإنَّ المراد ولا خَلَّةٌ بدليل الآية الأخرى ولكن جمعه لأجل مناسبة رؤوس الآي <<¹ .

والذي جعل الزركشي يرى في لفظ "خلال" عدولا عن "خلة" إنما هو موسيقى السورة التي جاءت في اثنتين وخمسين آية ختمت كل فاصلة من فواصلها بالمقطع (ص ح ح ص) لم تشذ فاصلة واحدة عن هذا النظام فكان في التزام الأفراد "خلة" المنتهية بالمقطع (ص ح ص) ما يخدم النسق الإيقاعي الذي لزمته السورة ، وبخاصة إذا علمنا أنَّ آياتها تتصف بالطول نسبيا حيث تجاوز بعضها الأربعة أسطر بخط المصحف مثال ذلك : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَنِ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُنِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إبراهيم الآية 22

ولا يخفى أنَّ التزام المقطع الواحد أضبط للإيقاع في الآيات الطوال لأنه يشكّل غاية يُنتهى إليها وتنتظرها الأذن حتى إذا صار إليها القارئ بعد طول انتظار أدرجها الذهن ضمن الفقرة المشاكلة لها ، أمّا إذا تغير المقطع فإنَّ الفقرة اللاحقة تبدو أجنبية عن سابقتها ، وذلك بخلاف الآيات القصار التي يُعدُّ تنوع المقاطع في نهاياتها شكلا من أشكال تبطية التسارع الذي يفرضه قصر السجعات المتلاحقة.

¹ - الزركشي ؛ البرهان: 64/1 ، والآية الأخرى هي قوله تعالى : .. يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ لَظَلِمُونَ... البقرة الآية 254 .

أما معنى الآية فإنَّ قول صاحب التحرير : >> إنَّ المراد من خلال هنا آثارها بقرينة المقام وليس المراد نفي الخلّة ؛ أي الصحبة والمودة ، لأنَّ المودة ثابتة بين المتّقين بقوله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ >>¹ فيه نظر لأنَّ آثار الخلّة من الخلّة ؛ إذ لا معنى للخلّة بغير آثارها ، وأيُّ معنى للصحبة أو المودة إذا لم يكن فيهما ابتغاء الخير والنفع للخليل ، ولو كان بالرغبة والتمني ، ثم لماذا لا يكون قوله تعالى : ﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ إبراهيم الآية 31 معنيًا به الكفار أي لا بيع ولا مصاحبة بين الكفار بدليل قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ البقرة الآية 166 ، ولا يعدو الكافر أن يكون رأسًا متبعا ، أو تبعا لغيره ، و"تقطعت بهم الأسباب" تفيد انعدام كلِّ علاقة بينهم ، لذلك فإننا نخرِّج الآية على رأي الزمخشري الذي فسرها بقوله : >> "لا بيع فيه ولا خلال" إي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالّة >>².

وبذلك يكون لفظ "الخالل" معدولا عن "المخالّة" على رأي الزمخشري أو "الخلّة" على رأي الزركشي ، وتكون الغاية من العدول تحقيق التناسب بين رؤوس الآي الذي لا يحدده المقطع "ص ح ح ص" الحاضر في "خلال" الغائب في البديلين: "مخالّة" ، و"خلّة" فقط ، ولكن كذلك روي اللام الذي يوفره لفظ "خلال" حيث يعتبر صوت اللام من الأصوات المائعة "ل ، م ، ن ، ر" وهي الأكثر استعمالا في اللسان العربي بشكل عام وفي الفواصل بشكل

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 235/16 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف ، ، 540/2 .

خاص على خلاف صوت الهاء الذي تنتهي به "مخالّة" أو "خلّة" ، كما أنّ اللام من معانيه الوصل والارتباط¹ وهما ما يفيدهما ضمنا معنى الخلّة والمودة .

النموذج الخامس : قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴾ الشمس الآية 10 ، قال ابن خالويه : >> الألف في دَسَّى مُبدلة من سين كراهية اجتماع ثلاث سينات والأصل دَسَّها أي أخفاها <<² ، وقال الزمخشري >> التدسية النقص والإخفاء بالفجور وأصل دسىّ دَسَس كما قيل في "تقضّض" "تقضّى" <<³

وكما أنّ دَسَّها عدول عن دَسَّها فإنّ >> طغوى بمعنى طغيان والطغيان في اللغة مجاوزة الشيء حدّه ... ، فإن قال قائل: فلم قيل "بطغواها" فقل: لتوافق رؤوس الآي كما قال تعالى: "إلى ربّك الرجعى" يريد الرجوع ولكنه أتى به على الرجعى ليوافق الفواصل<<⁴.

وسورة الشمس من السور المكية القصار جاءت في خمس عشرة آية قائمة على المطابقة بين جميع فواصلها ؛ حيث كانت جميعها منتهية بصوت الهاء الممتول بالألف وهي : (ضحاها ، تلاها ، جلاها ، يغشاها ، بناها ، ضحاها ، سواها ، تقواها ، زكاها ، دساها ، طغواها ، أشقاها ، سقياها ، سواها ، عبقاها) ، والهاء في كل هذه الفواصل هو ضمير المفرد الغائب المؤنث مبني على النصب ، إنّ في محل نصب على المفعولية : (تلاها ، جلاها ، يغشاها ، بناها ، طحاها ، سواها ، زكاها ، دساها ، سواها) ، أو في محل جر على الإضافة : (ضحاها ، تقواها ، طغواها ، أشقاها ، سقياها ، عبقاها) .

¹ - ينظر: إياد الحصني ؛ معاني الحروف العربية

² - ابن خالويه ؛ إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، تح محمد سليمان حسن ، شركة القدس للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2009م ، ص 108 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف : 598/4 ، وينظر : مختصر تفسير الطبري : 692 .

⁴ - ابن خالويه ؛ إعراب ثلاثين سورة ، ص 109 .

وبالتالي فإنَّ صفة البناء في الضمير "ها" مكَّنت من التسوية بين المنصوب والمجرور فاستقام إخراج النص في هذا الشكل الجميل الممتع القائم على تكرار المقطع (ص ح ح) مرتين نهاية كل فاصلة فكان في التزام الأصل دسَّسها ذي النهاية (ص ح + ص ح) تفويت لفرصة تطابق الفواصل وكسر للإيقاع المنسجم بين المقاطع المتشابهة .

ولا يمكن أن تغادر هذه السورة المعجزة دون الوقوف على بعض ما فيها من أسرِّ موسيقي وإعجاز صوتي قائم على انتخاب عجيب للأصوات والمقاطع ، وقد وجدت من ذلك أن :

1- التركيبية المقطعية للفواصل كالتالي :

ضحاهها: (ص ح + ص ح ح + ص ح ح) ، تلاها: (ص ح + ص ح ح + ص ح ح) ،
 ص ح ح) ، جلاها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ، يغشاها: (ص ح ح
 ص + ص ح ح + ص ح ح) ، بناها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ،
 طحاهها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ، سواها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح)
 ص ح ح) ، تقواها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ، زكاها: (ص ح ح + ص ح ح
 + ص ح ح + ص ح ح) دساها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ،
 أشقاها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ، سقياها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح)
 ح + ص ح ح) ، سواها: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) ، عقباها: (ص ح ح
 ح + ص ح ح + ص ح ح) .

أي أنَّ الفواصل كلها إمَّا بالشكل: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) وعددها 11 فاصلة ، أو بالشكل: (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) وعددها 04 فواصل في إثبات الأصل "دسَّسها" إدخال تركيبية صوتية ثالثة هي (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) .

2- التركيبتان الصوتيتان (ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح ح) يشتركان في المقطعين الثاني و الثالث (ص ح ح) .

3- المقطع (ص ح ح) المشترك بين التركيبين الصوتيين هو صامت ممطول بصائتين كان يمكن أن يكون في ثلاثة أشكال ؛ (المطل بالألف ، المطل بالواو ، المطل بالياء) ولكنه التزم شكلا واحدا هو المطل بالألف وفي ذلك مزيد انسجام.

4- التزام روي واحد هو الهاء بما فيه من رخاوة

5- دور حرفي الربط ؛ الواو والفاء ، حيث تكرر الواو تسع مرات ، وتكررت الفاء ثلاث مرات.

كل ذلك أعطى نصاً فنياً طافحا بالجمال مُفْعَما بالأنس ليس العدول فيه إلا أداة ضمن جملة من الإمكانيات اللغوية الكثيرة الخادمة لموسيقى القرآن .

النموذج السادس: قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ .

فِيهَا جِثْيًا ﴿٧٢﴾ مريم الآية 72 قال : "جِثْيًا" ولم يقل: "جِثَاءً" .

وعند النظر في فواصل السورة نستبين أنها على النحو الآتي :

1- تشكل الآية الأولى ﴿ كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ﴾

برأسها فقرة صوتية كاملة هي :

[ص ح ح ص + ص ح ح ح + ص ح ح ح + ص ح ح ح]

2- تشكل الآيات : من الآية 02 ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ

رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾ إلى الآية 33 ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ

أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ فقرة صوتية تنتهي فيها كل الفواصل بالمقطع :

ص ح ص مثلوا بالمقطع: ص ح ح ،

3- تكون الآيات : من الآية 34 ﴿ ذَلِكَ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ ؑ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ إلى الآية 40 ﴿ إِنَّا خُنُنْرُهُ

الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ فقرة صوتية ثانية تنتهي فواصلها

بالمقطع : ص ح ح ص ،

4- تكون الآيات من الآية 41 ﴿ وَأَذْكُرْ فِي

الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ؑ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ إلى الآية الأخيرة 98 ﴿ وَكَمْ

أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٨﴾ ﴾

فقرة صوتية مماثلة للفقرة الثانية أي تنتهي فواصلها بالمقطع : ص ح ح ص ثم

المقطع : ص ح ح ؛

معنى ذلك أن بناء الفقرات حسب المقطع الأخير يكون على الشكل :

$$\underbrace{\dots \text{ ص ح ح الآية 2 } \dots}_{\text{ف 2}} + \underbrace{\dots \text{ ص ح ح الآية 1 } \dots}_{\text{ف 1}}$$

ف 2

ف 1

$$\underbrace{\dots \text{ ص ح ح الآية 41 } \dots}_{\text{ف 4}} + \underbrace{\dots \text{ ص ح ح ص 40 } \dots}_{\text{ف 3}} + \dots$$

ف 4

ف 3

ومن ثمَّ فإنَّ موسيقى السورة مبنية على التناوب بين نوعين من الفواصل ؛ الفواصل المنتهية بالمقطع ص ح ح ص ، والفواصل المنتهية بالمقطع ص ح ح ، وقد مرَّ بنا أن التناوب أساس الإيقاع .

هذا فيما يتعلق بموسيقى المقطع الأخير من الفاصلة ، أمَّا الروي فباستثناء الآية الأولى التي رويها صوت الصاد والآيات السبع (من 34 إلى 40) التي تناوب رويها بين النون والميم (ن 5 مرات ، م مرتان) فإنَّ صوت الياء رويًا هيمن على كامل السورة بنسبة 90 من 98 .

وإذا عدنا إلى اللفظ "جثيًا" فاصلة الآية 72 الواقعة في الفقرة الأخيرة وجدناه مكنوفا بست وخمسين فاصلة كلها منتهية بمقطع واحد وروي واحد .

لذلك فإنَّ البديل المفترض "جناة" الذي تقطيعه (ص ح + ص ح ح ص) لا ينتهي بالمقطع "ص ح ح" ، ولا بروي الراء ، ووقوعه فاصلة في الآية 72 سيكون نشازا مقطعا ورويا ، وبخاصة إذا كانت الحمولة الدلالية للفظين واحدة لأنَّ >> المعنى أنهم يُقبلون من الحشر إلى شاطئ جهنم عتلا ، على حالهم التي كانوا عليها في الموقف "جناة" على ركبهم غير مشاة على أقدامهم وذلك أنَّ أهل الموقف وُصِفوا بالجثوِّ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ

جَائِيَةً ﴿١﴾ ، على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقشات من تجافي أهلها على الركب لما في ذلك الاستيفاز والقلق <¹.

وحيث كان المعنى الذي يفيد "جثاء" يفيد لفظ "جُثِيًّا" فإنَّ الثاني يَفْضُلُ الأول بمناسبة إيقاعه ورويه لإيقاع السورة ورويهها ، فهو الأحقُّ بها ، وهي الأحقُّ به .

النموذج السابع : قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ اللَّبَنُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ الطور الآية 39 ؛

حيث إنَّ "الابن" يجمع على "أبناء" وعلى "بنين" ، فإنَّ في اختيار "بنين" تركاً لـ "أبناء" ، ولا يكاد يوجد فرق في الدلالة بين اللفظين ، فلم يبق إلا المبنى ؛ ذلك أنَّ لفظ "البنون" الذي يتكون من مجموع المقاطع : ص ح ص + ص ح ص - (باعتبار المقطع الأول " ص ح ص " مكوناً من صوت الميم في لفظ "لكم" مضافاً إليه لام التعريف من "البنون") - منتهياً بالكتلة الصوتية [ص ح ص + ص ح ص] التي تنتهي بها أربع وأربعون فاصلة من أصل تسع وأربعين فاصلة تتكون منها سورة الطور لم تشذَّ إلا خمس فواصل هي : " واقع " فاصلة الآية السابعة ، و " دافع " فاصلة الآية الثامنة ، و " موراً " فاصلة الآية التاسعة ، و " سيراً " فاصلة الآية العاشرة ، و " دعاً " فاصلة الآية الثالثة عشر .

وإذا أمعنا النظر في هذه الفواصل ضمن آياتها وجدنا أن :

- الفواصل الثلاث : " موراً " في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ﴿٤١﴾ ، و " سيراً " في قوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ ﴿٤٢﴾ ، و " دعاً " في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا ﴾ ﴿٤٣﴾ فضلاً عن كونهن جميعاً من تركيب صوتي واحد هو [ص ح ص + ص ح ص] وبالتالي فإنهن يشكلن فقرة موسيقية قائمة بذاتها ، فإنهن واقعات موقع المفعول المطلق ، المؤكِّد لفعله أو المبيِّن لهيئته ، فكل واحدة هي الأنسب في آيتها ، ولا

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 119/3 .

سبيل لاستبدالها بغيرها لما في ذلك من تضحية بالمعنى طلبا للمبنى وهو مما ينتزعه عنه القرآن .

أما الفاصلتان " واقع " في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ، و"دافع" في قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فإنهما كذلك من تركيب مقطعي واحد هو [ص ح ح + ص ح ص] ويشكلان رتلا موسيقيا مستقلا ، كما أن الأولى واقعة خبرا في صيغة اسم الفاعل من الفعل الثلاثي " وقع " الذي لا يحقق التركيب المطلوب (ص ح ح + ص ح ح ص) من مادته إلا جمعه " واقعون " وهو لا يشكل بديلا مقبولا لمفرده في هذه الآية إذ الجملة " إن عذاب ربك لواقعون " هي جملة غير صحيحة نحويا ، وكذا اللفظ "دافع" في قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ لأن الذي يقيم الإيقاع من مادته هو كذلك جمعه "دافعين" لكن المقام يأباه لأن دخول "من" - التي تفيد التنقيص على العموم¹ - على المفرد النكرة أوقع للعموم وهي إنما >> زيدت في النفي لتحقيق عموم النفي وشموله أي نفي جنس الدافع >>² ذلك أن نفي الجمع قد يفهم منه ذات الجمع بحيث لو قيل : (فماله من الله من دافعين) توجه الفهم إلى انتفاء الدافعين مجتمعين ، وليس في ذلك انتفاء للدافع المفرد ، لكن حين يُنفى الدافع الواحد يتوجه النفي نصاً إلى المفرد ، وضمنا إلى الجماعة ، وبالتالي فإنّ الجمع "دافعين" لا يشكل بديلا للمفرد "دافع" .

أما في الشاهد من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾ فإنّ الحمولة الدلالية للفظ المذكور " البنون " هي نفسها في البديل المتروك " أبناء " إلا أنّهما يختلفان مقطعيًا ، لذلك فإنّ لفظ " البنون " معدول إليه لمناسبة تركيبه المقطعي لإيقاع السورة المؤسس على تتابع

¹ - علي الحمد ويوسف الزعبي ؛ المعجم الوافي في النحو العربي ، دار الجماهيرية للنشر ، الجماهيرية الليبية ، ودار الآفاق الجديدة ، المغرب ، ط1 ، 1992 ، ص 316 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 41/11 .

المقطعين ص ح و ص ح ح ص ، ويعضد هذا أن اللفظ نفسه مستعمل في سورة عبس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ وواضح أن اللفظ "بنيه" يستجيب تركيبه المقطعي لهذا الإيقاع لأنه واقع ضمن ثلاث فقرات تنتهي كل واحدة بالتركيب ص ح ح + ص ح ، وأن البديل "أبنائه" لا يستجيب تركيبه لإيقاع هذه الفقرات .

النموذج الثامن : لفظ "كفوراً" من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ الإسراء 89 ، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ الإسراء 99 .

الكُفْرَ والكُفْرَ والكُفُورَ والكُفْرانَ بمعنى واحد هو ضد الإيمان ، و الكُفُورَ جحود النعمة ¹ ، لذلك فإن استعمال "كفوراً" هو اختيار من ضمن أربعة بدائل كلها بمعنى ، ولتعليل هذا الاختيار لابد من العودة إلى نص السورة التي انتظمت اللفظ الشاهد والبحث في طبيعة إيقاعها.

جاءت سورة الإسراء المكية في إحدى عشر ومئة آية منها الآية الأولى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا

¹ - الفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط : ك.ف.ر ، وينظر: ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب : 418 ، والطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 222/6 .

حَوْلَهُ لِزِيَرِهِ مِنْ ءَايَتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٠٦﴾ تنتهي بالفاصلة "البصير" ذات
النهاية المقطعية (ص ح + ص ح ح ص) ،

والآية 107 ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ التي تنتهي بالفاصلة "سُجَّدًا" ذات التركيب المقطعي
(ص ح ص + ص ح + ص ح ح) ، وباقي الآيات كلها (109 آية) تنتهي فواصلها
بالمقطع ص ح ح مكرر مرتين ، فإذا استثنينا الآية الأولى التي يمنع وقوعها صدرا للسورة
من اعتبارها كسرا لإيقاعها الموحد فإنَّ السورة كلها تشكل نسقا إيقاعيا واحدا منسجما
متاغما ، وحتى الفاصلة 107 "سُجَّدًا" بينها وبين باقي الفواصل تشكل في المقطع الأخير؛
فهي تنتهي بالمقطع ص ح ح إلا أنه ليس مكررا ، لذلك فهي ليست ناشزة تماما عن باقي
الفواصل.

أما اللفظة "كُفُورًا" فاصلة الآيتين 89 ، 99 فإنها تقيم مع باقي فواصل السورة تناسقا
إيقاعيا تاما قوامه تكرار المقطع ص ح ح في نهاية كل الفواصل الأمر الذي لا يوفره
البديلان "كُفْرًا" و "كَفَرًا" اللذان يتركبان من مجموع المقطعين ص ح ص + ص ح ح ، أمَّا
البديل الثالث "كُفْرَانًا" فإنه لا يختلف عن لفظ "كُفُورًا" في النهاية المقطعية (ص ح ح +
ص ح ح) ولكنه يحمل شحنة دلالية زائدة عما في الألفاظ "كُفُورًا" ، "كُفْرًا" و"كَفَرًا" لأنه على
صيغة "فعلان" التي تفيد الامتلاء بالوصف وهي إضافة دلالية على مطلق الكفر.

النموذج التاسع: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ طه 12
، حيث اختلف المفسرون في معنى "طوى" فـ>> قيل اسم لذلك المكان ، وقيل هو اسم
مصدر مثل "هدى" وصف بالمصدر بمعنى اسم المفعول أي طواه موسى بالسير في تلك

الليلة ، كأنه قيل له إنك بالوادي المقدس الذي طويته سيرا <<¹ ، فيكون بذلك "طوى" معدولا به عن اسم المفعول "مَطْوِيٍّ" ، وأنه معدول عن اسم الفاعل "طاوٍ" مثل عمر عن عامر² و << ليس يجيء مصدر على "فعل" إلا في المعتل >>³ ، وفعل "طوى" معتل .

والتلخيص أن لفظ "طوى" الوارد في الآية معدول به إمّا عن اسم فاعله "طاوٍ" ، أو اسم مفعوله "مَطْوِيٍّ" ، وحيث إنَّ المعنى واحد ؛ إذ في استعمال اسم الفاعل يكون المتحدث عنه هو الفاعل موسى عليه السلام ، وفي استعمال اسم المفعول يكون المتحدث عنه هو الوادي وبالتالي فإنَّ الفاعل في التعبيرين هو موسى والمفعول فيهما هو الوادي فإنَّ المصدر "طوى" يحقق من الإيقاع ما لا يحققه المشتقان "طاوٍ" و"مَطْوِيٍّ" لأنَّ تركيبه المقطعيّ ص ح + ص ح جاءت عليه أغلب فواصل السورة (135/131 فاصلة) .

النموذج العاشر : الألفاظ : (مَسْغَبَةٌ ، مَقْرَبَةٌ ، مَتْرَبَةٌ ، مَرَحَمَةٌ ، مَيْمَنَةٌ ، مَشَامَةٌ) في سورة البلد حيث شكّلت الصيغة الصرفية "مَفْعَلَةٌ" التي عليها هاته الفواصل المتوالية رتلا موسيقيا واحدا ؛ ذلك أنَّ سورة البلد وهي من القصار المكية يمكن تقسيمها حسب فواصلها إلى ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَلْحَسَبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَلْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾ سبع آيات منتهيات كلهن برويِّ الدال ومن تركيب مقطعي واحد هو (ص ح + ص ح ص) عدا الفاصلة "لُبَدًا" المكونة من (ص ح + ص ح)

1 - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 198/7 .

2 - نفسه : الصفحة نفسها .

3 - ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب : 417 .

+ ص ح ح) ، وهي - وإن اختلفت عن باقي فواصل الفقرة مقطوعيا- فإن روي الدال يكفل لها جزءا من الانسجام معها .

الفقرة الثانية : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

﴿١٠﴾ فواصلها : عينين ، شفنتين ، النجدين وهي كلها تنتهي بالمقطع المزدوج الإغلاق :

ص ح ص ص تشكّل كذلك رتلاً موسيقيا مستقلا .

الفقرة الثالثة : مكونة من الآيات : من 11 إلى 20 ﴿ فَلَا أَقْتَحَمَ الْعُقْبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ

مَا الْعُقْبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةٌ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ

مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ

مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾ وواصلها هي : (... عَقَبَةٌ ، ... عَقَبَةٌ ، ... رَقَبَةٌ ، ... مَسْغَبَةٌ ، ...

مَقْرَبَةٌ ، ... مَتْرَبَةٌ ، ... مَرْحَمَةٌ ، ... مَشْأَمَةٌ ، ... مُؤَصَّدَةٌ) تنتهي جميعها بالمقطع

ص ح ص وتشكل إيقاعا ثالثا في السورة .

والشاهد في هذه الفواصل هو مجيء لفظ "مَسْغَبَةٌ" في قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ

ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ مكان المصدر "سَغَب" إذ الأصل "في يوم ذي سغب" لأنه هو المصدر

الصريح وكذا مجيء لفظ "مَقْرَبَةٌ" من قوله تعالى : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ مكان "قَرَابَةٌ" ¹

¹ - ينظر : مختصر تفسير الطبري : 692 .

ومجيء لفظ "مُتْرَبَةٌ" من الآية ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ﴿١١﴾ عوضاً عن الصفة الصريحة "تَرَبٍ" ، ومجيء لفظ "مَرْحَمَةٌ" مكان "رحمة" ¹ في الآية 17 ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ﴿١٧﴾ ولفظ "المَيْمَنَةُ" مكان "اليمين" ² في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ﴿١٨﴾ ، يفسره قوله تعالى في سورة الواقعة : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ﴿١٩﴾ .

وواضح أنّ البدائل : سَغْبٌ ، قَرَابَةٌ ، تَرَبٌ ، رَحْمَةٌ ، الْيَمِينُ ليست من نسيج مقطعي واحد ولا تتناغم وإيقاعَ السورة القائم على الصيغة "مَفْعَلَةٌ" التي عليها: "مسغبة" ، "متربة" ، "مرحمة" ، "ميمنة" ، "مشئمة" التي تتميز بالخفة الناتجة عن المراوحة بين الحركة والسكون وسورة البلد من >> السور القصار [التي] يأتي إيقاعها قصيرا مبرقا تزدحم فونيماته ازدحاما وتندافع مقوماته اندفاعا <<³

¹ - ينظر: الزمخشري ؛ الكشاف : 596/4 .

² - ينظر : الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 363/12 .

³ - شارف مزارى ؛ جمالية التلقي في القرآن الكريم : 94 .

المبحث الثاني

العدول الصرفي الذي يجمع بين الإيقاع والدلالة

نعرض في هذا المبحث جانبا من العدول يجمع بين الأثرين ؛ الإيقاعي والمعنوي ، وهو لا يكون إلا عند توظيف صيغ تحقق غاية دلالية وأخرى إيقاعية لا يتوفر عليهما البديل المفترض لتلك الصيغة ، وقد حددنا البحث في الإيقاع باقتصاره على >> الفاصلة [التي] تَرِدُ وهي تحمل شحنتين في آن واحد شحنة من الوقع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمم للآية<<¹ ، كما أن >> للفاصلة وظيفتين إحداهما فنية موسيقية والأخرى بلاغية دلالية تجعل الفاصلة تتعاقب مع الآية من غير قلق ولا تنافر فيجمع القرآن بذلك بين التناسق

¹ - بكري شيخ أمين ؛ التعبير الفني في القرآن ، دار الشروق ، ط4 ، 1980 ، ص 203 .

الموسيقي والتناسق الموضوعي ، بين الغرض الفني والغرض الديني <<¹ ؛ ذلك أن >> المعنى دائماً يعظم شأنه ويرقى إذا ما صاحبتة المؤثرات الصوتية التوقيعية الخالصة <<² وهي الغاية التي تجعل لفظ الفاصلة متمكناً في موضعه وزناً ومعنى وتترك سياقه يطلبه دون سواه ، وفي ما يلي نقدم جملة من النماذج نحاول من خلالها الوقوف على هذا الضرب من العدول وذلك بمنهج المقارنة بين اللفظ المعدول إليه واللفظ المعدول عنه ، معنى وتركيباً مقطعيًا .

النموذج الأول : لفظ "كُبَّاراً" من قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ ﴿ نوح الآية 22 حيث قال : "كُبَّاراً" ولم يقل: "كبيراً".

المعنى : قال أبو عبيدة . >> إذا أرادوا المبالغة شددوا فقالوا "كُرَّام" ، و"كُبَّار" و"ظُرَّاف" ، و"عُجَّاب" ، "فالكُرَّام" أشد كراماً من "الكُرَّام" ... <<³ .
وذكر ابن عصفور أن صيغة "فُعَّال" تكون اسماً وصفة ؛ فالاسم نحو "خُطَّاف" و"كُلَّاب" ، والصفة نحو "حُسَّان" و"عُوَّار"⁴ .

وقال في الكشف : >> قرئ بالتخفيف والتنقيح ، و"الكُبَّار" أكبر من "الكبير" ، و"الكُبَّار" أكبر من "الكُبَّار" ، ونحوه "طُوَّال" ، و"طُوَّال" <<⁵ .

وإذا عدنا إلى موقع الآية في السورة وجدنا أن نبيَّ الله نوحاً - عليه السلام - لم يصف مكر قومه بأنه مكر كُبَّارٌ إلا بعد أن استفرغ الجهد في دعوتهم ولم يجد منهم إلا العناد

¹ - صالح ملا عزيز ، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 323 .

² - ستيفن أولمان ؛ دور الكلمة في اللغة ، ص 87 .

³ - ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب ، ص 365 .

⁴ - ينظر : ابن عصفور ؛ الممتع : 99/1 .

⁵ - الزمخشري ؛ الكشف : 471/4 .

والصدود ؛ ذلك أن هذا التعبير جاء بعد قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ ﴿٨﴾ ثم إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ؛ أي أنه دعاهم بكل الاحتمالات الممكنة ؛ سرًّا مرة ، وجهراً مرّة ، وسرًّا وجهراً مرّةً ثالثة ، ثم إنه رَغِبَهُمْ بقوله : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿١٠﴾ وقوله : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ﴿١١﴾ ، وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهْرًا ﴾ ﴿١٢﴾ ، ثم بتذكيرهم بآلاء الله عليه من أنه خلقهم أطواراً وهيئاً لهم السماوات وجعل فيهن القمر نورا والشمس سراجا وهيئاً الأرض وما فيها من عشب وكلاً... ، ومع كلِّ هذا ظلُّوا متمسكين بكفرهم وعنادهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، وتنادوا بأن لا يذروا معبودهم الذي ذكروه بالنص : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ ﴿١٣﴾ .

من أجل كلِّ ذلك كان وصف مكرهم بأنه متناهٍ في الكبر ، وأبلغ صيغة تفي بهاته الحاجة البيانية من المادة ك.ب.ر هي "كُبَّاراً" والدليل على إرادة المبالغة ، المبالغة في الدعاء عليهم حين أردف نوح عليه السلام بُعِيدَ الآية قوله : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكُفْرِينَ دَيَّارًا ﴾ ﴿١٤﴾ ، وزاد بأن علَّلَ هذا الدعاء فقال : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ﴿١٥﴾ ، والتعليل هنا يدخل كذلك في المبالغة لأنه يُحْمَلُ على الحجاج وكأنه عليه السلام لم يعد يرى من سبب لبقائهم ، فدعا الله أن يزيلهم من على الأرض لأنه - فضلا عما في إبقائهم من إضلال للمؤمنين - فإنه لا يرجو أن

يخرج الله من أصلا بهم من يوحد¹ ، وفي ذلك وجه آخر للمبالغة مُؤدَّاه أنه عليه السلام انقطع عنده كلُّ أمل في قومه وفي كلِّ ما يتناسل منهم ، وفي هذه المبالغة مقابلة للمبالغة في المكر الصادر عنهم التي تضمنتها صيغة "كُبَّار" قال الزمخشري : >> فإن قلت بم علم أن أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ، قلت لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول احذر هذا فإنه كذَّاب وإنَّ أبي حذرنيه ؛ فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك <<² ، فهل من مكر أكبر من مكر الذي يحرص على توريث عقبة الكفر بالأنبياء ويجعله وصية السلف للخلف؟! إنه بحق لمكر كُبَّار ، وكم أوجزت صيغة "فُعَّال" من معاني الكِبَر والخطرسة وكم فيها من اقتصاد لغوي .

وصيغة "فُعَّال" التي عليها كُبَّار أكثر أصواتا من بديليها "فُعَّال" التي عليها "كُبَّار" و "فُعَّال" التي عليها "كبير" ، ومعلوم أن الزيادة في المبنى توجب الزيادة في المعنى ؛ قال ابن جني : >> إنَّ استعمال "فُعَّال" في معنى "فُعَّال" صفةً يفيد تكثير الصفة في نحو "جَمَّال" و "وُضَّاء" لتكثير "جميل" و "وضيء" <<³ فيكون لفظ "كُبَّار" قد أفاد المبالغة لأنه بمعنى "كبير جدًا" قال في التحرير : >> "كُبَّار" مبالغة أي كبير جدًا <<⁴ ، وأفاد كذلك اقتصادا لغويا بتقديمه المعنى في لفظ واحد بدل لفظين .

¹ - الإشارة إلى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخرجته قريش من مكة وجاءه جبريل ومعه ملك الجبال قال : >> يا محمد - صلى الله عليه وسلم - إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا << ، مسلم بن الحجاج النيسابوري ؛ صحيح مسلم ، تح محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت دت 1420/3 ، و البخاري ، صحيح البخاري ، 1180/3 .

² - الزمخشري ؛ الكشف : 472/4 .

³ - ابن جني ؛ الخصائص : 269 ، 271 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 207/12 .

الإيقاع: نتبين الأهمية الإيقاعية للفظ بإيراد تركيبه المقطعيّ وتركيب بدليّه ، ثمّ مقارنتهما بالنسق العام لفواصل السورة مقطعا وروياً :

التركيب المقطعي للفظ "كُبَّاراً": ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

التركيب المقطعي للبديل "كُبَّار" . ص ح + ص ح ح + ص ح ح

التركيب المقطعيّ للبديل "كبيراً" : ص ح + ص ح ح + ص ح ح

النسق الإيقاعي للسورة : تكوّن إيقاع سورة نوح ثمان وعشرون فاصلة نوردها في الجدول التالي :

الرقم	الفاصلة	التركيب المقطعي
01	أليم	ص ح + ص ح ح ص
02	مُبِين	ص ح + ص ح ح ص
03	أطِيعُونَ	ص ح + ص ح ح + ص ح ح ص
04	تَعْلَمُونَ	ص ح ص + ص ح + ص ح ح ص
05	نهاراً	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
06	فراراً	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
07	استكباراً	ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

08	جهارا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
09	إسرا را	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
10	غفّارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
11	مذرا را	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
12	أنهارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
13	وقارا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
14	أطوارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
15	طباقا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
16	سراجا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
17	نباتا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
18	إخراجا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
19	بسّاطا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
20	فجاجا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
21	خسارا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
22	كُبّارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
23	نسرّا	ص ح ص + ص ح ح
24	ضيلالا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح
25	أنصارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
26	ديّارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

27	كفّارا	ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح
28	تَبَّارَا	ص ح + ص ح ح + ص ح ح

إنّ تحليل الجدول أعلاه يعطي النتائج التالية :

1- أشكال التركيب المقطعي للفواصل هي :

أ - ص ح ص + ص ح ح مرة واحدة

ب - ص ح + ص ح ح + ص ح ح مرة واحدة

ج - ص ح ص + ص ح + ص ح ح مرة واحدة

د - ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح مرة واحدة

هـ - ص ح + ص ح ح ص تكرر مرتين

و - ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح 10 مرات

ز - ص ح + ص ح ح + ص ح ح تكرر 12 مرة

2- التركيب الغالب هو : ص ح + ص ح ح +

ص ح ح الذي جاءت عليه اثنتا عشرة فاصلة هي : نهارا ، فرارا ، جهارا ، وقارا ،

طباقا ، سراجا ، نباتا ، بساطا ، فجاجا ، خسارا ، ضلالا ، تبارا ، ثم يليه التركيب :

ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح الذي جاءت عليه عشر فواصل هي : إسرارا ،

غفّارا ، مدرارا ، أنهارا ، أطوارا ، إخراجا ، كُبَّارَا ، أنصارا ، ديَّارا ، كفّارا .

3- تشكل البنية (ص ح ح + ص ح ح) نهاية

لثلاث وعشرين فاصلة أي أكثر من 90% من فواصل السورة .

-4

سبع عشرة فاصلة رويها صوت الراء .

وبناء على ذلك فإن الفاصلة "كُبَّاراً" تحقق النهاية (ص ح ح + ص ح ح) التي عليها اثنتان وعشرون آية وكانت هي تمام الثلاث والعشرين ، وهذه النهاية ليست إلا تتابعا لفتحتين طويلتين يمكن الربط بين تتابعهما وموضوع السورة بأنه >> في الخطاب القرآني تكثر المدود عادة في مجال الأدعية ، لأن الدعاء بطبيعته ضرب من التشديد الصاعد إلى السماء ولا يكون وقعه حلوا في نفس المتضرع إلا بأن يكون مصحوبا بشيء من التقطيع الصوتي والرتة الخاصة والامتداد المناسب ليناسب ما في نفس الداعي من مشاعر إنسانية ولعل كثرة الدعاء في القرآن الكريم سبب من أسباب تنخيمه وتطريبه <<¹ ، والسورة كلها دعاء من نبي الله نوح عليه السلام موجّه إلى الله تعالى .

وتحقق الفاصلة "كُبَّاراً" كذلك الانتهاء بصوت الراء ؛ فهي تنسجم مع باقي الفواصل ، وينبغي التذكير هنا بأن صوت الراء المعتمد رويًا في أغلب فواصل السور هو الروي الذي افتتحت به سورة الطور التي نزلت بعد سورة نوح مباشرة² ، وهو مما يمكن أن يسلك ضمن التناسب الإيقاعي بين السور .

ونلاحظ أن كلاً من البديلين " كبيراً " و " كُبَّاراً " يحققان شرطي الانتهاء بالمقطع المكرر ص ح ح وروي الراء ، ففيم يفضل "كُبَّاراً" بدليله؟ ؛

أما البديل "كبيراً" فإن نهايته ص ح ح + ص ح ح تختلف عن "كُبَّاراً" في المقطع الأول ص ح ح لأنه محقق في "كُبَّاراً" بالفتحة الطويلة وفي "كبيراً" بالكسرة الطويلة ، وكل

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني : ص 337 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 185/12 .

الفواصل التي نهايتها من الشكل (ص ح ح + ص ح ح) هي بالفتحة الطويلة دون الكسرة الطويلة وبالتالي فإن "كُبَّارًا" هو الأنسب .

وأما البديل "كُبَّارًا" فإنه متماثل مع "كُبَّارًا" في النهاية المقطعية وفي الفتحة الطويلة وكذلك في روي الراء إلا أن قراءة الفاصلة "كُبَّارًا" في مكانها من آيتها (مَكْرُوًا مَكْرًا كُبَّارًا) يعطينا أن المقطع الأوّل من "كُبَّارًا" (ص ح ص) هو نفسه المقطع الأخير من اللفظة السابقة عليها (مَكْرًا) ذلك أن "مَكْرًا" مكونة من تكرار المقطع: ص ح ص مرتين فيكون التركيب المقطعي للصفة والموصوف من الشكل: ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح ، والانسجام فيه واضح في المراوحة بين الحركة والسكون في تتابع المقاطع الثلاثة الأوّل وهو ما يغييه استعمال "كُبَّارًا" حيث يكون التركيب المقطع للصفة والموصوف من الشكل ص ح + ص ح ح + ص ح ح ، وبذلك يكون كُبَّارًا الأنسب إيقاعا ودلالة من "كبير" و"كبار" ، أمّا دلالة المدّ فإنها تتناسب >> شكوى الحزين ومناجاة المتعب ، ويلاحظ أن الدعاء يأخذ في التصاعد نحو الشدة والتوتر حين يوشك على الانتهاء فيكثر من صيغ المبالغة المشددة في الفاصلة مثل : "كُبَّارًا" ، " دِيَّارًا" ، " كَفَّارًا" ، ممّا يحدث ضغطاً قوياً على اللسان يشير إلى ارتفاع حدة الغضب وامتلاء نفس نوح عليه السلام من قومه<<¹

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 337 .

النموذج الثاني : العدول عن "فعليل" إلى "فُعال" في قوله تعالى : ﴿ أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ ص الآية 05 أي عجيب¹ ؛ حيث عدل عن صيغة "عجيب" إلى صيغة "عُجاب".

وصيغة "فُعال" تكون في الأسماء مثل : غلام و غراب ، وفي الصفات مثل : شجاع وطُوال² .

المعنى : "عُجاب" بليغ في العجب وقرئ "عُجَاب" بالتشديد³ و>> "عُجاب" وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيرا لأنَّ وزن "فُعال" بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل طُوال : المفرط في الطول ، وكُرام بمعنى كثير الكرم ، فهو أبلغ من كريم⁴

وعليه فإنَّ صيغة "عُجاب" طُلبت لما فيها من مبالغة ليست في "عجيب" ، وما يؤكد استهداف أقصى معاني المبالغة ورود اللفظ "عُجاب" خبرا إنكاريا حيث قال الكافرون: " إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ " إشارةً إلى الجملة المتقدمة : " أجعل الآلهة إلها واحدا؟" حيث وردت الجملة مؤكدة بالأداتين "إنَّ" و"اللام" ، وكذا ما في اسم الإشارة من دلالة القرب والحسيَّة لأنَّه لا يشار إلَّا للشيء الحاضر المحسوس ، وقد اختص الاسم "هذا" بالإشارة إلى القريب ، وتقريب البعيد من طرق المبالغة التي جاءت صيغة "فُعال" لتأكيدھا واستكمالھا ، فيكون الخبر مؤكِّدا بجميع أساليب التأكيد ، ويكون الكُفَّار قد أبانوا عن كفرهم بما لا أمل بعده في عودتهم إلى الجادَّة لذلك فإنَّه إنَّما >> عدل عن صيغة "عجيب" القياسية إلى صيغة "عجَاب" لسببين ؛ الأول رعاية الفاصلة وهذا سبب أسلوبى ، والثاني أن صيغة "فُعال" من صيغ الأدواء مثل الصُّدَاع والزُّحَار ، فلربما أراد القائلون بأنَّ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم

¹ - ينظر : القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 149/15 .

² - ينظر : ابن عصفور ؛ الممتع ، و أحمد عبد المنعم هريدي ؛ تصريف الأسماء ، ص 88 .

³ - ينظر : الزمخشري ؛ الكشاف 4/4 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 210/9 .

من الأمر بالتوحيد كان مكروها عند المشركين كراهية الداء <¹ ، وهذا ما أفادته الآية بعدها ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخْرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْتَلِقُ ﴾ ﴿ ص الآية 07 أي من اختلاق النبي صلى الله عليه وسلم .

الإيقاع:

البنية الإيقاعية لـ "عُجاب" هي : ص ح + ص ح ح ص

البنية الإيقاعية لـ "عجيب" هي : ص ح + ص ح ح ص

فهما متشابهتان مقطعيًا لكن الاختلاف بينهما كالاختلاف بين "كبير" و "كَبَّار" ذلك أن المقطع الأخير في "عجيب" تحققه الكسرة الطويلة ، أمّا في "عُجاب" فهو محقق بالفتحة الطويلة ، فعلى أيهما كانت فواصل السورة ؟

سورة ص تكونها ثمان وثمانون آية يمكن تقسيمها حسب طبيعة فواصلها إلى ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى: تكونها الآية الأولى ﴿ صَّ وَالْقُرَّانِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ﴿ المنتهية بالمقطع

المزدوج الإغلاق ص ح ص ص .

الفقرة الثانية: قوامها خمس وستون فاصلة ؛ من الفاصلة 02 إلى الفاصلة 66 تنتهي جميعها بالمقطع ص ح ح ص والصامت الأول منه ممطول بالفتحة .

الفقرة الثالثة: من الآية 67 إلى الآية 88 تنتهي فواصلها بالمقطع نفسه (ص ح ح ص) إلا أن الصامت الأول يمطل مرة بالضمّة وأخرى بالكسرة وتغيب فيه الفتحة تماما.

¹ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن: ص 433 .

ويقع اللفظ "عُجاب" فاصلةً للآية الخامسة في الفقرة الثانية مما يجعله يتناغم مع باقي فواصلها لوجود الفتحة الطويلة في صوت الجيم .

وبالنظر إلى أنّ بلاغة الأسلوب وأسرّه إنّما >> يتحدد من زاوية علاقة الألفاظ بالأشياء ، ومن خلال روابط الألفاظ بعضها ببعض ، وكذلك من خلال علاقة مجموع الألفاظ بجملة الجهاز اللغويّ الذي تنتزل فيه <<¹ فإنّ الفقرة الثانية تكون قطعة موسيقية غاية في التناغم والانسجام الذي يصنع إيقاعه تماثلُ جميع فواصلها في الانتهاء بالمقطع ص ح ح ص المعتمد على الفتحة الطويلة التي يقتضي النطقُ بها أنّ يُفتح الفم أقصى ما يكون الانفتاح فاسحا الطريق لخروج دفق الهواء وكأنّه بذلك يُخرج معه شحنة الانفعال والغيظ الذي سكن أفئدتهم وكأنّه نوع من التنفيس عمّا بدواخلهم ، وبخاصة لما ينتهي من هذا الانفتاح إلى صوت الباء الذي يتحقق بإطباق الشفتين وكأنّ المتحدث قد استفرغ شحنة الانفعال ثم أوصد الباب إيذانا بتمامها ، ولأنّ >> للحرف حظّه في تحقيق أدبية الإعجاز <<² فقد أسهم صوت الباء في تحقيق انسجام هذه الفقرة ؛ حيث كان رويّاً في خمس وثلاثين فاصلة من أصل خمس وستين فاصلة بما يزيد عن نسبة 50 % .

كذلك فإنّ لطبيعة المقطع ص ح ح ص الذي انتهت به سبع وثمانون فاصلة (من أصل ثمان وثمانين فاصلة) دورا جوهريا في صناعة إيقاع السورة كلّها لأنّه مقطع مغلق و>> استخدام المقاطع المغلقة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة<<³ ، وتجدر الإشارة كذلك إلى أنّ المقطع المغلق (ص ح ح ص) انتهت به فواصل سورة الصافات وبدأت به سورة الزمر لتتسجم بذلك سورة ص إيقاعيا مع ما قبلها وما بعدها .

¹ - الأسلوبية والأسلوب، ص 91 ، نقلا عن صالح ملا عزيز؛جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص: 283 .

² - شارف مزارى ؛ جمالية التلقي في القرآن الكريم ، ص 100 .

³ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص337 .

النموذج الثالث : قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ

مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ يوسف الآية 58 ؛ حيث عطف الاسم على الفعل وقال : "وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ"

ولم يقل : "أُنْكَرُوهُ" كما قال : "عَرَفَهُمْ" .

المعنى : هم له منكرون أي جاهلون ذلك أنهم لم يتعرفوا عليه كما تعرّف عليهم وقد اختلفوا في سبب ذلك فقيل >> لأنهم خلفوه صبيا ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدة وهي أربعون سنة <<¹ ، و >> يُحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه ، وقيل أنكروه لأمرٍ خارق امتحاناً امتحن الله به يعقوب <<² ، وقيل >> رأوه على زيّ فرعون ، وقيل ما رأوه إلا من بعيد ، بينه وبينهم حجاب وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج <<³ .

وقال الزمخشري : إنه >> إنما عرفهم لأنه فارقههم وهم رجال ورأى زيّهم قريبا من زيّهم إذ ذاك ، ولأنّ همّته كانت معقودة بهم وبمعرفةهم فكان يتأمل ويتفطن <<⁴ فضلا عن قوة فراسته وزكاته عقله دونهم⁵ .

وأيا كان السبب فإنّه عرفهم و لم يعرفوه ، وقد عبّر القرآن على تعرّفه عليهم بالفعل "عَرَفَهُمْ" ، وعن جهلهم إيّاه بالاسم "مُنْكَرُونَ" بما يفيد أنّ جهلهم به ثابت متمكن ، وأنّ تعرّفه عليهم كان سريعا لم يسبق بتفرّس أو استيضاح ؛ نستدل على ذلك بحرف الفاء حيث قال تعالى : "فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ" ؛ أي أنّه تعرّف عليهم بمجرد دخولهم ومن النظرة الأولى

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 220/11 ، وينظر: جلال الدين السوطي وجمال الدين المحلي ؛ تفسير الجلالين ، دار الحديث ، القاهرة ، ط1 ، د.ت ، 312/1 .

² - القرطبي ؛ تفسير القرطبي ، 221/11 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف ، 477/2

⁴ - السابق : 477/2 .

⁵ - ينظر : الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 12/6 .

لأنَّ الفاء تفيد التعقيب وهو ضد التراخي ، أمَّا عن جهلهم به فقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس أنَّه قال >> لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون ، قال جاء بالصُّوَّاع فوضعه على يده ، فطنَّ فقال إنه يخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يُدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجبِّ ، قال ثم نقره فطنَّ قال فأتيتم أباكم فقلتم: إنَّ الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب قال: فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الجام يخبره بخبركم <<¹ وهو خير يمكن أن يفيد - إن صحَّ - أنَّ فعل يوسف كان تعريضاً بإخوته بما يُفهم منه أنَّهم إمَّا أنَّهم حقًّا لم يتعرَّفوا عليه ؛ فهو يستحث عقولهم ، أو أنَّهم عرفوه وتظاهروا بجهله ؛ فاستوجب معاملتهم بالتعريض ليكون أبلغ في تفريرهم ولكن من طرف خفيّ .

وأيًّا كان الأمر فإنَّ >> الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أنَّ عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكِّن منهم وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة على أنَّ معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل ، وقرن مفعول "منكرون" الذي هو ضمير يوسف عليه السلام بلام التقوية ولم يقل "وهم منكرون" لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته <<² .

ويمكن أن نقرأ في التعبير بالاسم "منكرون" إثباتاً لجهلهم الذي ما كان ليُقبل بسهولة لأمرين ؛ الأول أنَّ >> شمائل يوسف عليه السلام ليست ممَّا شأنه أن يُجهل ويُنسى <<³ ، والثاني أنَّهم عشرة إخوة إن نسي واحد تذكر الآخر ، لذلك فإننا نرجِّح ما ذهب إليه القرطبي وتبعه عليه الطاهر بن عاشور من أنَّهم أنكروه >> لأمر خارق امتحانا امتحن الله به يعقوب

¹ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، د.ط ، 1401 هـ : 472/2 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 12/6 .

³ - نفسه: الصفحة نفسها.

عليه السلام <<¹ ومن ثمَّ فإنَّ التعبير عن الإنكار بالاسم أنسب لما فيه من دلالة على تمكن جهلهم به أيًا كان سببه .

الإيقاع :

التركيب المقطعي للشاهد "منكرون" : ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص

التركيب المقطعي للفعل "أنكروه" : ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص

إيقاع السورة :

تتكون سورة يوسف عليه السلام من إحدى عشرةَ ومئةَ آيةٍ تنتهي جميع فواصلها بالمقطع المغلق ص ح ص ، ومنها سبع آيات ومئة فواصلها متماثلة في المقطعين الأخيرين وهي من الشكل ص ح + ص ح ص + ص ح ص تمامًا مثل اللفظ الشاهد وحتى بديله المفترض ، وشدَّت في السورة كلها ثلاث فواصل فقط هي : "يَبْكُون" ، و"حين" ، و"القَهَّار" فواصل الآيات 16 ، و 35 ، و 39 على الترتيب ، ممَّا يعني أنَّ السورة منسجمة كلَّ الانسجام من حيث إيقاع الفواصل ، وهو انسجام لا يعود إلى طبيعة المقاطع حسب ، ولكن كذلك لروِيَّ النون الذي انتهت به اثنتان وتسعون فاصلة (111/92) وهي الصفة التي يحققها لفظ "مُنْكَرُونَ" ولا يحققها لفظ "أَنْكَرُوهُ" ذلك أنَّ الهاء لم ترد رويًا في السورة ولو مرة واحدة ، ولا يخفى أنَّ صوت النون أثيرٌ جدًّا في فواصل القرآن لما يتميز به من غنة مشحونة بنغم وديع يخرج من الأنف يضفي على الجمل المسموعة حلية صوتية لا تقاوم² ، وقد لاحظ بعض الدارسين أنَّ صوت النون من الحروف التي يكثر ورودها في نهاية الفواصل لأنها والميم والألف والواو والياء تحمل لحنا إيقاعيا لا يتوافر في الحروف الأخرى³ ولا أدلَّ على الخصوصية

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 221/11 ، وينظر : التحرير والتنوير 12/6 .

² - ينظر : شارف مزارى ؛ جمالية التلقي في القرآن الكريم : ص 77 .

³ - ينظر : بكري شيخ أمين ؛ التعبير الفني في القرآن الكريم : ص 203 .

الصوتية التي يتضمنها صوت النون من وروده رويًا في أكثر من 51% من فواصل القرآن كله¹ ، و>> استعمال النون فاصلة يسبقه في جميع المواضع تقريبًا أحد حروف المدّ الثلاثة ، وذلك في الأسماء والأفعال على حدّ سواء ؛ ففي الأفعال يُفَضَّلُ الفعل المضارع المرفوع المسند إلى واو الجماعة على وزن "يفعلون" أو "تفعلون" ، وفي الأسماء يُفَضَّلُ اسم الفاعل المجموع جمعًا سالما مرفوعًا ، أو مجرورًا ، أو منصوبًا <<² كما هو الحال في الشاهد "منكرون" الذي جاء اسم فاعل مجموعًا جمع مذكر سالم .

والنون أكثر خصوصية في هذه السورة من غيرها لما في غنتها من إحياء بالحزن يفي بالحاجة التعبيرية للقصة التي تمثل مأساة إنسانية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، كما أنّ العبارة التي انتظمت اللفظة أشدّ ما تكون التصاقًا بالحزن إذ إنكار الإخوة أخاهم - عمداً أو جهلاً - لهو مما يتمزّق له القلب حزناً وكماً ، فكيف إذا كان الإخوة إخوة يوسف فيغدو جهلهم به إذ ذاك استكمالاً لسابق شرّهم وإحياءً لأوجاع دفينه .

ومن ثمّ فإنّ التعبير عن هذا المعنى تتضافر فيه الدلالات فيُعَضَّدُ المعجم بالصوت ، والصرف بالتركيب ، واللغة بالإيقاع ، و>> تتحول النهاية المجتلبة للتوافق الصوتي ضرورة تحتمها ضرورة التداعي الدلالي بحيث إذا ذَهَبَتْ تَبَحُّثٌ عن بديل له بغضّ النظر عن الرويِّ لم تعثر على أوفق من نفس الكلمة <<³ .

النموذج الرابع: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾ الليل الآية 19

¹ - ينظر : سيد خضر ؛ فواصل الآيات القرآنية - دراسة بلاغية دلالية ، ص 78 .

² - نفسه ، ص: 81 .

³ - صلاح فضل ؛ ظواهر أسلوبية في شعر شوقي ، مقال بمجلة فصول ، مج 1، ع 4 ، جويلية 1981 م ، ص 215 .

حيث عدلت الآية عن البناء للفاعل وبنيت للمفعول >> وكان أصلها أن يقال "تجزيه إيَّاه" أو "تجزئها إيَّاه" مثل ما ذكر بعض المفسرين حاملين تخصيص الصيغة إلى رعاية الفاصلة حسب البحر المحيط <<¹ .

المعنى : الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حتى أن أحدهم حكى إجماع المفسرين على ذلك ² >> روى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : عَذَّبَ المشركون بلالا ، وبلال يقول أحد أحد ، فَمَرَّ به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أحدٌ ينجيك ، ثم قال لأبي بكر: إنَّ بلالا يُعَذَّبُ في الله ، فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنصرف إلى منزله ، فأخذ رطلا من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف ، فقال له : أتبيعني بلالا ؟ ، فقال: نعم ، فاشتراه فأعتقه ، فقال المشركون : ما أعتقه إلا لِيَدٍ كانت له عنده ، فنزلت : " وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ؛ أَي من يَدٍ وَمِنَّةٍ تُجْزَى <<³ .

فيكون العدول إلى البناء للمفعول حسب سبب النزول لضرب من الإيجاز ؛ أي ليس على أبي بكر يدٌ تستوجب الجزاء فيجزي هو صاحبها أو يترك جزاءه على الله ، فيكون في البناء للمفعول إضمارٌ لذكر الفاعل حتى يحتمل فعلُ الجزاء كلَّ فاعلٍ ممكن فضلاً عمَّا فيها من رعاية الفاصلة .

لكن بنت الشاطي اعترضت على الغاية الإيقاعية حين قالت: >> هذا ملحظ شكلي من الزخرف البديعي لا نقول بمثله في البيان الأعلى ، إنما جاء البناء للمجهول لمقتضى معنوي وهو أنَّ البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحد أو من أحد على الإطلاق ، وإنما هو خالصٌ لوجه الله تعالى <<⁴ .

¹ - صالح ملا عزيز ، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 331 .

² - ينظر : تفسير ابن كثير : 4/522 ، وتفسير الجلالين : 1/811 ، والتحرير والتنوير : 12/391 .

³ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 20/88 ، وينظر: التحرير والتنوير : 12/391 .

⁴ - بنت الشاطي ؛ التفسير البياني : 2/117 .

لكننا لا نسلم لعائشة عبد الرحمن إنكار الغاية الإيقاعية والتهوين من شأن التناسب بين الفواصل بهذا الإطلاق ؛ إذ الإيقاع ركن ركين في نصوص القرآن لا يمكن تجاهله أو الادعاء بعدم جدواه ، كيف و>> المناسبة الصوتية هي المبدأ الذي تقوم عليه الفاصلة القرآنية <<¹ ، كيف ونحن نجد سورا بكاملها متماثلة الفواصل ، بل إن السورة تتماثل فاصلة وروياً مع التي قبلها أو التي بعدها ² ، والقرآن كتاب بيان وكتاب فن كذلك ، وقد ذهب نصر حامد أبو زيد إلى أن الجانب الفني في القرآن الكريم هو المقصد الأول ³ ، و>> إدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني <<⁴ ، لذلك فإن البناء للمفعول في "تجزى" يحقق الاقتصاد والإيجاز لاحتماله أكثر من فاعل كما تقدم ، وكذلك يخدم الإيقاع كما سيأتي .

الإيقاع:

التركيب المقطعي للفظ "تجزى" هو: ص ح ص + ص ح ح

التركيب المقطعي للبديل "تجزيه" هو: ص ح ص + ص ح ح

إيقاع السورة : تتكون السورة من واحد وعشرين آية كل فواصلها تنتهي بالتتابع المقطعي ص ح ص + ص ح ح ، وهما المقطعان اللذان يكونان اللفظ "تجزى" ، ولذلك فإن تغييره ببديله "تجزيه" من شأنه أن يفوت هذا التناسب ويجعل اللفظة قلقة في مكانها ، وما أبعد التنزيل عن هذا الوصف ، كما أن انتهاء اللفظة بالفتحة الطويلة - كباقي الفواصل - فيه

¹ - تمام حسّان ؛ البيان في روائع القرآن : 216/1 .

² - مثل سورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة مريم .

³ - ينظر : نصر حامد أبو زيد ؛ دراسة في علوم القرآن ، المركز الثقافي العربي ، 1987 م ، ص 10 .

⁴ - سيد قطب ؛ التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، القاهرة ، دت ، ص 117 .

إيحاء بالإطلاق ، وكأنَّ الإطلاق في الصوت تمثيل للإطلاق في الجزاء حيث لا حدود لجزاء الله ، ولا لعلوّه كما الفاصلة الموالية "الأعلى" ، ولا لرضاه كما الفاصلة اللاحقة "ترضى" .

النموذج الخامس: العدول عن الفعل إلى المصدر في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ

تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ الكهف 86 ؛ حيث عبّر عن العذاب بالفعل وعن

الإحسان بالمصدر .

المعنى: قال الطبري: >> إِمَّا أَنْ تَقْتُلَهُمْ إِنْ هُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَيُذْعِنُوا لَكَ بِمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا : يَقُولُ إِمَّا أَنْ تَأْسِرَهُمْ بِالْجَبَّارِينَ<<¹.

والآية خطاب من الله تعالى إلى ذي القرنين يُخَيِّرُهُ فِيهَا بَيْنَ أَنْ يَعَذِّبَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ - وَهُمْ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَجَدَهُمْ عِنْدَ الْعَيْنِ الْحَمِيَّةِ - أَوْ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِمْ ، فَأَفَادَ الْحَرْفَ "إِمَّا" أَنَّهُ مَخَيَّرَ بَيْنَ أَنْ يَعَذِّبَ أَوْ يُحْسِنَ ، وَأَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ مَطْلَقَ الْحَرِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ الْإِحْسَانِ بِالمصدر ، فَضلاً عمّا فيه من مبالغة ، رأى فيه صاحب التحرير تلقينا لذي القرنين بأن يختار الإحسان ويترك التعذيب لأنه >> عدل عن: "أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِمْ" إلى : " أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا" مبالغة في الإحسان إليهم حتى جعل كأنه اتخذ فيهم نفس الحسن مثل قوله تعالى : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" ، وفي هذه المبالغة تلقين لاختيار أحد الأمرين المخير بينهما <<² .

ولقوله "تتخذ فيهم حسنا" توجيه آخر لا نرى في النصّ أو السياق ما يمنع قبوله ، وهو أنّ الحسن - وإن كان موجّهاً منه إليهم - ، بأيّ طريق من طرق الإحسان ، إلا أنّ فيه عائداً عليه هو ، وكأنه قال: "تتخذ فيهم حسنا لنفسك" ، لأنّ لكلّ إحسانٍ جزاءً ؛ قال تعالى : ﴿هَلْ

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري ، 12/16 ، وينظر : تفسير الجلالين : 393/1 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتوير : 27/7 .

جَزَاءٌ إِلَّا إِحْسَانًا إِلَّا إِلَّا إِحْسَانًا ﴿٦٠﴾ الرحمن الآية 60 ، والتعبير عنه بفعل الاتخاذ يشير إلى ما في الإحسان من جهد يستوجب مقابلته بالأجر ، يدلُّ على ذلك مقابلة العبارة "تتخذ فيهم حسنا" بالعبارة "تحسن إليهم" ؛ لأنَّ زيادة المبنى تقتضي زيادة المعنى ، ويمكن أن نستأنس لهذا الفهم بجواب ذي القرنين نفسه حين قال: ﴿ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ حيث صاغ جوابه على منوال الأمر الذي تلقاه فقابل الفعل في: "إِذَا أَنْ تُعَذِّبَ" بالفعل في: "فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ" ، والاسم في: "تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا" بالاسم في: " لَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ " ، وفي: "تَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا" ، وكان يمكن أن يقول: "تُحَسِّنُ إِلَيْهِ" ، و"تُيسِّرَ لَهُ" ، فنفهم من ذلك أنَّ في التعبير عن الإحسان بالاسم في الحاليين غايةً دلاليةً قد لا تنحصر في المبالغة وحدها بل تتعداها إلى تضمين المصدر دلالة الجزاء المترتب عن الإحسان ، فيكون الإحسان بذلك إحسانين ؛ إحسان من ذي القرنين إلى هؤلاء القوم ، وإحسان منه إلى نفسه بحملها على طلب الجزاء بفعل الخير ، وتتعداها أيضا إلى مفهوم التلقين ؛ فيكون في التخيير الذي صيغت وفقه الآية توجيه ضمني بوساطة العدول الصرفي إلى أحد الأمرين ؛ فتجمع الآية - بذلك - ، في فنيَّة عالية جدًا ، بين مفهوم الحرية ممثلا في الاختيار ، والتوجيه الذي يتنافى ظاهره مع جوهر الحرية ، فيكون في البنية السطحية للخطاب تسويغٌ لبنيته العميقة .

الإيقاع:

التركيب المقطعي للمصدر "حُسْنَا" : ص ح ص + ص ح ح

التركيب المقطعي للفظ البديل : لا يعدو البديل أن يكون : " تُحْسِنَ إِلَيْهِمْ " كما خرَّجها ابن عاشور، أو "تُحْسِنَ" بالاجتزاء بالفعل دون متعلِّقه كما طُوِيَ ذِكْرُ المفعول في قوله "تُعَذِّبُ".

فتركيب "إِلَيْهِمْ" هو : ص ح + ص ح ص + ص ح ص

وتركيب "تُحْسِنُ" هو : ص ح ص + ص ح ص (باعتبار الوقف)

إيقاع السورة: جاءت فواصل السورة التي بلغ تعداد آياتها عشر آيات ومئة على النحو الآتي:

- تسع وستون فاصلة نهايتها من الشكل : ص ح + ص ح + ص ح ح

- ست وثلاثون فاصلة نهايتها من الشكل: ص ح ص + ص ح ح

- أربع فواصل نهايتها من الشكل : ص ح ص + ص ح + ص ح ح

- فاصلة وحيدة نهايتها من الشكل : ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

ويمكن أن نلاحظ أن :

1- النهاية المقطعية المهيمنة هي : ص ح + ص

ح + ص ح ح

2- النهاية المقطعية التي تليها هي: ص ح ص +

ص ح ح

3- الفواصل جميعها تشترك في المقطع الأخير ص

ح ح

4- التركيب المقطعي للمصدر "حُسناً" يتطابق مع

الشكل الثاني(ص ح ص + ص ح ح)

5- البديلين المفترضين "تُحْسِنُ" و"إِلَيْهِمْ" لا

يستجيبان لأي نوع من أنواع النهايات المذكورة لأنَّ النهاية المقطعية لكل منهما (ص ح + ص ح ص + ص ح ص أو ص ح ص + ص ح ص) تبدو غريبة عن إيقاع السورة ولا تشابه أيًّا ممن النهايات السابق ذكرها .

6- المصدر "حُسناً" رويُّه صوت النون ، وهو >>

من الأصوات التي يحسن السكوت عليها للغنة التي تحصل في النطق ، غناءً أم ترسلاً في القول ، ومن أجل هذا لزمها الفواصل القرآنية المسجوعة <<¹ ، وتختلف نون "حُسناً" عن نون "تُحْسِنُ" في أنَّ الأولى ممطولة بالفتحة مما يحقق النهاية المقطعية المطلوبة ، وهو الأمر الغائب في نظيرتها ، و>> استعمال النون فاصلة يتبعه في جميع الفواصل تقريباً أحد حروف المد الثلاثة ، وذلك في الأسماء والأفعال على حدٍّ سواء <<² ، كما أنَّ الفتحة الطويلة في "حُسناً" تتناسب مع الفتحات المتوالية في اللفظين المواليين لها (" قَالَ " ، " أَمَّا ") فتبدو فتحة النون في "حُسناً" كالتوطئة للفتحات اللاحقة وهو ما لا يحققه البديلان المفترضان لانتهائهما بالسكون .

النموذج السادس: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ الرحمن الآية 05

¹ - إبراهيم السامرائي ؛ فقه اللغة المقارن ، ط2 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 ، ص 126 .

² - السيد خضر ؛ فواصل الآيات القرآنية : ص 81 .

المعنى : أنَّ الشمس والقمر يجريان إلى منازلهما وفق تقدير مُعَيَّن محسوب لا تُجاوزانه ، وأنَّ ذلك جارٍ وفق حكمة الله التي منها ضبط معاملات الناس بالتاريخ والحساب ¹.

وتركيب العبارة جارٍ على حذف الخبر الذي يدل عليه متعلِّقه "بحُسابان" و التقدير "الشمسُ والقمرُ يجريان بحسبان".

جاء في القاموس : << حَسَبَهُ حَسَبًا وَحُسَبَانًا بِالضَّمِّ وَحِسْبَانًا وَحِسْبَةً وَحِسَابَةً >> ² ،

وقال في التحرير: << الحُسبان مصدر حسب بمعنى عدَّ مثل الغفران >> ³ ، وهي

<< مصدر من قول القائل: حسبت الحساب أحسبه حسابا وحسبانا >> ⁴ ، وقال ابن

عباس: << " الشمس والقمر بحسبان " أي بحساب " >> ⁵.

و"فُعْلان" التي عليها "حُسبان" تكون اسما كـ :عثمان ودُكَّان، وتكون صفة كعُريان ⁶ ، ومثَّل لها ابن قتيبة بـ : كَفَرَ كُفْرَانًا ، وَشَكَرَ شُكْرَانًا .

هذا كلُّه معناه أنَّ "حسبان" أحدُ مصادر الفعل "حَسِبَ" التي وصل بها ابن قتيبة في أدب الكاتب إلى ثمانية عشر بناءً ، (باعتبار اللغتين في حسب أي : حسب على "فَعَلَ" ، وحسب على "فَعِلَ") ، هي : فَعَلُّ كـ: ضَرَبٌ ، فَعِلُّ كـ: حَرَمٌ ، فَعَالٌ كـ : نِكَاحٌ ، وَفُعْلان كـ : حَرَمَانٌ ، وَفِعَالَةٌ كـ: حِمَايَةٌ ، وَفِعْلَةٌ كـ : حِمِيَةٌ ، وَفَعْلَةٌ وَفَعْلٌ كـ : غَلَبَةٌ وَغَلَبٌ ، وَفُعْلان كـ: لِيَانٌ ، وَفَعْلان كـ: مِيلانٌ ، وَفُعُول كـ: وَثُوبٌ ، وَفَعِيل كـ : صَهِيلٌ

¹ - ينظر : مختصر تفسير الطبري : 706 ، والزمخشري ؛ الكشف : 318/4 ، والطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 234/11 .

² - الفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط : ح. س. ب.

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 234/11 .

⁴ - الطبري ؛ تفسير الطبري : 285/7 و 116/27 .

⁵ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 45/7 ، وينظر : الثعالبي ؛ فقه اللغة : ص 225 .

⁶ - ابن عصفور ؛ الممتع : 123/1 . وينظر : عبد المنعم أحمد هريدي ؛ تصريف الأسماء : 105 ، و ينظر : ابن قتيبة ؛ أدب الكاتب : 418 .

، وَفَعَالَ ك: قضاء ، وَفَعَلَ ك: هُدَى ، وَفَعَلَ ك: نَكَرَ ، وَفَعَلَ ك: شُكِرَ ، وَفَعَلَ ك: شُكِرَان ، وَفَعَلَ ك: نَعَّاس .

وهذا يعني أنّ لصيغة "حُسابان" بدائل كثيرة ، وتوظيفها دون غيرها هو عدول له حتماً مسوغ وحاجة دلالية لعلّ منها ما صرّح به صاحب القاموس من أنّ >> "الحُسابان" بالضم جمع الحساب << ¹ فيكون في المصدر "حُسابان" ما في المصدر "حساب" وزيادة ؛ أي أنه أكثر من حساب ، أو هو حساب على حساب وفي ذلك فضل دلالة ومزيد بلاغة.

ويمكن أن نقيس "حُسابان" على "قُرآن" بوصفهما مصدري الفعلين الثلاثين "حَسَبَ" و"قَرَأَ" وكلاهما على "فَعَلَ" إذ القرآن في أشهر تعريفاته >> مصدر لـ: قرأت كالرجحان والغفران ، سُمِّيَ به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر ، وقال آخرون منهم الزجاج هو وصف على "فُعَلان" مشتق من القَرءَ بمعنى الجمع ، قال أبو عبيدة : سمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض << ²

فإذا كان "قَرَأَ" و"حَسَبَ" من باب واحد فإنَّ "حُسابان" و"قُرآن" كذلك من باب واحد ولذلك فإنَّ إفادة المفعول من المصدر "حُسابان" لا مانع من قبولها ؛ فتُخَرَّج الآية عندئذ على أنّ: جريان الشمس والقمر محسوب ، لكن في استعمال صيغة المفعول تفوت الفائدة المفهومة من حرف الملابس (الباء) التي يفهم من التصاقها بالمصدر (حُسابان) أنّ حركة الشمس والقمر ومنازلهما لا تتفك عن الحساب بحال ، وأنَّ هذين الكوكبين مرهونان كلَّ الرهن بحساب الله وتقديره ، وفي هذا تعليل للعدول عن اسم المفعول إلى المصدر ، أمّا في اختيار هذا المصدر دون سائر المصادر فلأنه من ضمن خمسة أبنية هي : فِعَلان ، فَعَلان ، فَعَلان ، فُعَلان ، فِعَالَة ، هي الأكثر حروفاً من باقي المصادر ؛ ومعلوم أنّ الزيادة في المبنى توجب الزيادة في المعنى ، أمّا بناء "فِعَالَة" فإنَّه لا يفي بالحاجة الإيقاعية فضلاً عما بينهما من فرق في

¹ - الفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط: ح . س . ب .

² - السيوطي ؛ الإتيقان في علوم القرآن : 146/1 .

الدلالة لتضمن "فِعَالَة" زيادة عن المصدرية معنى الحِرْفَة ك: الصناعة ، والتجارة ، والزراعة ...

وأما "فَعْلَان" فَإِنَّ فِيهِ كَذَلِكَ مَعْنَى زَائِدًا قَدْ لَا يَكُونُ مَقْصُودًا هُوَ دَلَالَتُهُ عَلَى الْحَرَكَةِ لِأَنَّ << "فَعْلَان" إِنَّمَا هُوَ بِنَاءُ الْحَرَكَةِ وَالْإِضْطِرَابِ >>¹.

وأما "فَعْلَان" فَإِنَّ فِيهِ كَذَلِكَ مَعْنَى آخَرَ هُوَ دَلَالَتُهُ عَلَى امْتِلَاءِ الْمَوْصُوفِ بِالصِّفَةِ ك: عطشان ورحمن وغضبان ، وَأَمَّا "فَعْلَان" فَلَمْ أَعْثُرْ لَهَا فِي مَا قَرَأْتُ عَلَى فَرْقٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ "فَعْلَان" إِلَّا أَنَّ تَكُونُ لُغَةً فِيهَا .

الإيقاع:

التركيب المقطعي للفظ "حُسْبَان" هو: ص ح ح ص + ص ح ح ص

إيقاع السورة: سورة الرحمن من السور التي لا يحتاج القارئ إلى مهارة أو إطالة نظر من أجل اكتشاف إيقاعها الأسر الذي تتفرّد به وكأنها معزوفة موسيقية واحدة يتجاوب آخرها مع أولها في تراتبية عجيبة قوامها تكرار آية البأثرة إحدى وثلاثين مرة ؛ فكان إيقاع السورة من إيقاع هذه الآية ، ونهض التكرار بضبط الإيقاع وتجنيس الفقرات بحيث لا يكاد القارئ يشعر بفرق بين آية وأخرى وذلك لأسباب أهمها :

- الموسيقى الداخلية لهذه الآية (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) التي جمعت حروف الذلاقة ل، م، ن، ر وهي الحروف المائعة التي تعتبر الأكثر وضوحا سمعيا بعد الصوائت ولذلك يكثر ورودها في الفواصل والقوافي .

¹ - الحسن بن حيدر بن عالي القرشي ؛ نغمة الصديان في ما جاء على الفعلان ، تح: علي حسين البواب ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط1 ، 1982 ، ص21/1 .

- اشترك كلُّ فواصل السورة (وعددها ثمان وسبعون فاصلة) - ما عدا فاصلة الآية 17 (الْمَغْرِبِينَ) - في النهاية المقطعية ص ح ح ص .

- انتهاء سبعين فاصلة من مجموع ثمان وسبعين فاصلة (95%) بصوت النون .

- القصر النسبي لآيات السورة التي بدت جميعها في طول آية البأثرة أو قريباً منه .

وتبدو لفظة "حسبان" موافقة لإيقاع السورة من جهتين ؛ الأولى انتهاؤها بالمقطع نفسه الذي تشترك فيه كل " الفواصل (ص ح ح ص) ، والثانية انتهاؤها بصوت النون ، وهو أمر غير محقق في كثير من المصادر الأخرى وبخاصة "حساب" كثير الاستعمال .

النموذج السابع: قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ خَلَقْتُمْهُمْ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ

﴿ ٥٨ ﴾ الواقعة الآيتان 58 و 59 ؛ حيث عبّر عن خلقهم بالفعل ، وعن خلقه تعالى ذكره

بالاسم ، والآية سياقها إفحام المشركين في إنكارهم البعث ، والاستفهام فيها استفهام تقريرى

لأنّ الإجابة عنه تقدمته في قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ الواقعة

الآية 57 ، فبعد أن أخبر صراحة وبالاسمية عن ردّ الخلق إليه تعالى ، دعاهم إلى الإقرار

به في قوله : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ بالتحضيض والتبكيث الذي يستفاد من الحرف "لولا"

، ثم أخذ الأسلوب منحى الحجاج فكان في قوله عزّ ذكره إلزام الحجة للمشركين واستدلال

على البعث بالخلق ، وقد روي عن عليّ كرم الله وجهه أنه كان حين يقرأ هذه الآية في

الصلاة يقول: "بل أنت يا ربّ" ويكررها ثلاثاً¹ ، فيكون أمام المشركين احتمالان ، إمّا أن

¹ - ينظر : محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ؛ المستدرک علی الصحیحین ، تح عبد القادر عطا ، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1411 هـ - 1990 م ، : 518/2 ، و أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي

؛ سنن البيهقي الكبرى ، تح عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، 1414 هـ - 1994 م :

311/2 ، و أحمد بن الحسين البيهقي ؛ شعب الإيمان ، تح محمد السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية

، بيروت ، ط1 ، 1410 هـ - 230/1 .

يَدَّعُوا الخَلْقَ لأنفسهم ؛ وهي مكابرة إن اجترأت عليها ألسنتهم كذبتهم عقولهم لظهور بطلانها ، وإما أن يُقَرُّوا بردَّ الخلق لله تعالى فتكون حجةً عليهم لأنهم ناقضوا أنفسهم في إنكار البعث وقبول الخلق ، و« الذي قَدَرَ على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى »¹ ، والله تعالى « إذا قدر على الخلق قدر على البعث »² ، وقد ورد الاستدلال على البعث بالخلق في أكثر من آية من ذلك قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ^ط قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ يس الآيات 77 ، 78 ، 79 ؛ وقوله: ﴿ أَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٨٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يَمِينِي ﴿٨٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٨٨﴾ القيامة الآيات 36 ، 37 ، 38 .

والمعنى في كل ذلك أنكم « إذا أقررتم بأننا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث »³. وموضوع البحث في هذه الآية هو الاستفهام عن خلق المشركين بالفعل " تَخْلُقُونَهُ " وعن خلق الله تعالى باسم الفاعل " الخَالِقُونَ " لأن صور التركيب هنا أربع ؛ إما التعبير بالاسم في الحالين ، وإما بالفعل في الحالين ، وإما بالفعل ثم الاسم ، أو بالاسم ثم الفعل ، فيكون في استعمال هذا التركيب عدول عن باقي الصور .

وقبل البحث في هذه الدلالة لابد من الإفادة أن فعل الخلق الذي هو ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه⁴ مما يختص به الله تعالى ذكره حتى أنه « لا تجوز هذه الصفة بالألف واللام

¹ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 296/4 .

² - القرطبي ؛ تفسير القرطبي 16/17 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها .

⁴ - ابن منظور ؛ اللسان ، والفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط : خ.ل.ق .

لغير الله عزَّ وجلَّ لأنه هو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة << 1 ، أما إطلاق الفعل على ما يقوم به البشر فهو من باب التجوز قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأعراف الآية 54 ، قال ابن سيده : << خلق الله الشيء يخلقه خلقا أحدثه بعد أن لم يكن >> 2 .

وفي هذه الآية عبّر الله تعالى عن خلق المشركين فقال " تَخْلُقُونَهُ " ، والتعبير بالفعل يحمل معنى الحركة والتجدد خصوصا وهو بصيغة المضارع ، ولعل التجدد والحركة إشارة إلى تكرار الفعل " تُمْنُونَ " المتقدم في الجملة (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ) لتكرار ذلك من جميع الناس وما يترتب عليه من فعل النسل والتكاثر ؛ وهو الوجه الوحيد الذي يمكن أن يصرف إليه خلق البشر، أمّا خلق الله تعالى الذي هو إحداثٌ بعد عدمٍ فعَبَّرَ عنه بالاسم لثباته ولكونه أشبه بالسَّنَنِ ، والتقديرُ أَنَّ الله عزَّ ذكره خلق الإنسان بِسَنِّ قانون التكاثر وهو قانون ثابت قارٌّ يَجْرِي على جميع الناس ، وهي سَنَةٌ مُطَّرِدَةٌ لا يمَسُّها التبدل والتغيير ، ومن أجل ذلك شُرعت سَنَةُ الزواج.

ثمَّ إِنَّ التعبير بالاسم في " الخالقون " فضلا عما تقدّم في اختصاصه بالله تعالى وعن دلالاته على الاستمرار والدوام ، مَكَّن من الإفادة من أداة التعريف " ال " التي أرى أنها لاستغراق جميع أنواع الخلق لما تَبَيَّن أَنَّ الخلق أنواع من قوله عزَّ ثناؤه " وهو بكلِّ خلقٍ عليم " ، أو للجنس >> وهي التي يعبر عنها بالجنسية ويعبر عنها أيضا بالتي لبيان الماهية ، وبالتي لبيان الحقيقة << 3 وهي بهذا التخريج لماهية الخلق وحقيقته التي يتفرّد بها الله دون سواه ، وبذلك نستبين أَنَّ التعبير بالاسم أعطى هذه المساحة الدلالية ، وأفاد أَنَّ "الخلق" الذي هو خلق

1 - نفسه ، وينظر: أحمد بن محمد المقرئ الفيومي ؛ المصباح المنير، المكتبة العلمية ، بيروت ، د. ط ، د.ت 180/1 .

2 - ابن منظور؛ لسان العرب : خ.ل.ق

3 - ابن هشام ؛ قطر الندى وبل الصدى ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط 11 ،

1383 هـ - 1963 م ، ص 113 .

على وجه الحقيقة إنما هو الله وحده ، وأنه ثابت قارٌّ من حيث هو ناموس لا يعتريه التبديل ، يعتضد هذا الفهم بمجيء الآيتين اللاحقتين على المنوال نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا

مَّحْرُوثٍ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴿

و قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٤﴾

؛ حيث عبّر عن زرعهم بالفعل " تَزْرَعُونَ " ، وعن زرعه - تعالى - بالاسم "الزارعون" وعن إنزال الماء كذلك بالفعل " أنزل " منسوبا إليهم ، وباسم الفاعل "المنزلون" مختصاً به نفسه ، وقد جاء في الحديث أنّ أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : << لا يقول أحدكم زرعت ، وليقل حرثت فإنّ الزارع هو الله >>¹ بما يعني اختصاص الله تعالى بالزرع دون المخلوق ، وكذلك يكون إنزال المطر ، وكذلك يكون خلق البشر .

الإيقاع : تركيب لفظ الفاصلة الخالقون :

يتركب لفظ الفاصلة "الخالقون" من أربعة مقاطع ؛ المقطع الأول : " ص ح ص " (باحتمساب النون الأخيرة من "نحن") ، والمقطع الثاني: " ص ح ح " والثالث " ص ح " والرابع " ص ح ح ص " فيكون ترتيبه على تتابع المقاطع المذكورة : ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح ص .

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 218/17 ، و علي بن أبي بكر الهيثمي ؛ مجمع الزوائد ، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، بيروت ، 1407 هـ/120/4 ، و ابن حجر العسقلاني ؛ فتح الباري ، تح فؤاد عبد الباقي ومحّب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، 1379 هـ : 4/5 ، و ابن حبان ؛ صحيح ابن حبان ، تح شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1414 هـ - 1993 ، 30/13 م ، و البيهقي ؛ سنن البيهقي الكبرى ، 1386 هـ .

تركيب اللفظ البديل : المفترض هو مقابلة " الخالقون " بالفعل " نَخْلَقُهُ " (بذكر المفعول)، أو " نَخْلُقُ " بحذفه اكتفاءً بذكره في الأول، فـ: " نَخْلَقُهُ " تركيبه : ص ح ص + ص ح + ص ح ص (بالوقف) ، و"نَخْلُقُ" تركيبه : ص ح ص + ص ح ص (بالوقف).

إيقاع السورة : تقع السورة في ستِّ وتسعين آية منها إحدى وسبعون آية تنتهي فاصلتها بالمقطع الذي تنتهي به " الخالقون " ص ح ح ص ، ويقع النون رويًا في خمس وخمسين فاصلة ، وتقع الفاصلة 59 مكنوفة بفواصل كلها من الشكل المذكور مقطعا ورويًا حيث سبقت بالفواصل ... الدين 56 ، ... تُصَدِّقُونَ 57 ، ... تُمْنُونَ 58 ، وتلتها الفواصل .. مَسْبُوقِينَ 60 ، ...تَعْلَمُونَ 61 ، ... تَذَكَّرُونَ 62 ... الْمُقْوِينَ 73 مما جعلها الأنسب في موقعها دلالة وإيقاعا خاصة وأنَّ انتهاءها بالنون ناسبَ افتتاح الآية الموالية لها بالحرف نفسه ، ﴿ ءَأَنْتُمْ خَلَقْتُمْهُنَّ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ .

ولعلَّه من المهمِّ كذلك الإشارة إلى أنَّ سورة الرحمن التي تقع في ترتيب التلاوة قبل سورة الواقعة مباشرة تنتهي جُلُّ فواصلها بالمقطع ص ح ح ص ، وكذلك بروي النون وفي ذلك مناسبة بينهما وكذلك الحال في سورة الحديد التالية لها التي تنتهي كلُّ فواصلها بالمقطع ص ح ح ص مع تنوع في الروي .

النموذج الثامن:

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ ۖ كُن فَيَكُونُ ۗ ﴾ آل عمران الآية 59 .

الآية نزلت >> احتجاجا للنبي صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران الذين حاجّوه في عيسى عليه السلام <<¹ ذلك أن النصارى ادّعوا أن المسيح عليه السلام ابنُ الله لأنه وُلِدَ من غير أب فنزلت الآيتان لتبين أن عيسى كآدم - عليهما السلام من حيث كونهما استثناء في الخلق ، فلو كان استحقاق الألوهية - كما زعموا - بانعدام الوالد لكان آدم عليه السلام أحقُّ بها لأنه وُلِدَ من غير أبوين >> وهو من تشبيهه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس ، خلقه من تراب ثم قال له كن بشرا فيكون ، أي فكان <<².

الشاهد في الآية العدول عن الماضي إلى المضارع في قوله تعالى: " فيكون " ، حيث عبّر عن حدث ماضٍ موعّلٍ في الماضي بصيغة المضارع ، و>> إنما قال "فيكون" ولم يقل "فكان" لاستحضار صورة تكوّنه ، ولا يُحمل المضارع في مثل هذا إلا على هذا المعنى مثل قوله تعالى: " والله أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا " وَحَمَلَهُ عَلَى غير هذا المعنى هنا لا وجه له <<³.

وقال القرطبي: >> "فيكون" أي "فكان" ، والمستقبل يكون في موضع الماضي إذا عرف المعنى <<⁴ ، وخرّج الطبري العدول على أن المعنى : " اعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فهو كائن " ... لأنّ في قوله : " كمثل آدم ... " دلالة على أنّ الكلام يُراد به إعلام النبي صلى الله عليه وسلم أنه كائن ما كونه ... فعطف بالمستقبل على الماضي

1 - الطبري ؛ تفسير الطبري ، 295/3 .

2 - الجلالين ؛ تفسير الجلالين : 74/1 .

3 - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 264/2 .

4 - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 103/4 .

على ذلك المعنى <<¹ ، وقد >> قال بعض أهل العربية " فيكون " رفع على الابتداء ومعناه : كن فكان ، فكأنه قال : فإذا هو كائن <<²

وأعود إلى استحضار صورة التكوين التي ارتأها الطاهر بن عاشور تعليلاً لهذا العدول لأرى أنها جزءٌ من التعليل لا كلَّ التعليل ؛ ذلك أنَّ إيراد التعبير بالمضارع يتجاوز به مجرد السرد - الذي كان سيقف عنده لو كان التعبير بالماضي - إلى سرد الحدث واستحضاره معاً ، ويبدو الاستحضار هنا إضافة دلالية أفادها المضارع ، لكننا لا نسلّم أنها الإضافة الوحيدة كما نصَّ على ذلك الطاهر بن عاشور ، ذلك أننا حين نقرأ الآية في سياق الحجاج الذي وردت فيه ونعرف أنَّ هذا الحجاج بلغ حد المباهلة بين نبيِّ مرسل ووفد مختار³ ، ونعرف كذلك أنَّ الآية إنما نزلت مدداً ونصرةً للرسول صلى الله عليه وسلم لتقوية موقفه بالحجة العقلية الماثلة في مقارنة خلق عيسى بخلق آدم - عليهما السلام - وهي المقارنة المفضية إلى بطلان تأليه عيسى - عليه السلام - من طريق العقل والمنطق ، لا لعدم التماس الحجّة لمعنى التحدي الذي يمكن أن تتحمّله صيغة المضارع ؛ بمعنى أنَّ خلق بشرٍ من غير أبٍ وأمٍّ كان ولا مانع من أن يكون كرامةً أخرى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يس الآية 82 ، ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكِ قَدِيرًا ﴾ النساء الآية 133 ؛ وهو صريح في أنَّ إذهاب البشر جميعاً واستبدالهم بغيرهم ليس بالأمر المستبعد في حق الله القدير .

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري : 296/3 ، 297 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

³ - ينظر القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 4/4 و الطبري ؛ تفسير الطبري : 424/1 ، و ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير :

وبذلك تنهض الحجة على الكفار في استحقاقه تعالى الألوهية دون سواه ، ذلك أن بقاء الحجة قائمة أقوى في الاستدلال وألزم لتبكيبت الخصم من مجرد سردها حدثاً تاريخياً وقع وانقضى ، والفعل المضارع من دلالاته >> أن العمل مستمر الحدوث في الماضي والحاضر والمستقبل <<¹ ، وقد >> لا يعبر في نفسه عن فكره الزمن <<² ، وقول الطبري إن المعنى " اعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فهو كائن " يتحمل هذا التخريج لأن في اسم الفاعل " كائن " امتداداً لدلالة الزمن إلى المستقبل ، والمستقبل لا الماضي هو موضوع الرسالة وهدفها ، لأن >> الإسلام يجب ما كان قبله <<³ ولا يعبأ به.

وما سرد الماضي إلا لإضاءة المستقبل وتعرّف معالمه ، ومقارنة الطاهر بن عاشور الآية بقوله تعالى : " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا " فيه استدلال على ما تقدم لأن إثارة الرياح السحاب مما شأنه أن يتكرر ويتجدد.

وبذلك نستبين أن المضارع " يكون " فيه من التكتيف الدلالي ما يفتقر إليه الماضي "كان " من حيث كونه يضيف إلى دلالة السرد والاستشهاد دلالاتي الاستحضار والتحدي .

الإيقاع:

التركيب المقطعي للفاصلة " فيكون " هو : ص ح + ص ح + ص ح ح ص

التركيب المقطعي للفعل الماضي " فكان " هو : ص ح + ص ح ح ص

إيقاع السورة : تعد سورة آل عمران من السور الطوال وتقع في منتهي آية تنتهي جميع فواصلها بالمقطع ص ح ح ص من أول فاصلة إلى آخر فاصلة لم تحد فاصلة واحدة عن هذه النهاية .

¹ - مهدي المخومي ؛ في النحو العربي - نقد وتوجيه - ، المكتبة العصرية ، بيروت ط1 ، 1964 م : 125 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

³ - مسند أحمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، د.ت 198/4 ، و علي بن أبي بكر الهيثمي؛ مجمع الزوائد ، 351/9 .

والملاحظ أنّ كلاً من الفعل المضارع " يكون " وماضيه يحققان هذه النهاية إلا أنّ الماضي يتحقق فيه هذا المقطع بالفتحة الطويلة التي لم تكن أثيرة في هذه السورة ولم يرد عليها إلا تسع وعشرون فاصلة ؛ ثلاث عشر فاصلة في بداية السورة من الفاصلة 07 (الألباب) إلى الفاصلة 20 (العباد) ، وتسع فواصل في نهاية السورة من الفاصلة 190 (الألباب) إلى الفاصلة 199 (الحساب) والباقي موزع في أثناء السورة .

وأنّه قد هيمن على السورة انتهاء فواصلها بالكسرة الطويلة (108 فاصلة) ، تليها الضمة الطويلة (63 فاصلة) .

وتقع الفاصلة "يكون" رقم 59 ، ضمن فقرة طويلة تمتد من الآية 42 إلى الآية 190 ؛ مئة وثمان وأربعون فاصلة ليس فيها فاصلة واحدة ممدودة بالألف وإنما هي المراوحة بين الضمة الطويلة والكسرة الطويلة ؛ وبين الضمة والكسرة صلة قرابة من حيث كونهما صوتين مستقلين مقابل الفتحة الطويلة وهي الموصوفة بالاستعلاء ، كما أنّ الضمة والكسرة وإن طالتا فإنهما الأكثر اقتصادا في الصوت من الفتحة التي يُصرف فيها هواء كثير لانفتاح الفم إلى مداه أثناء نطقها.

ثم إنّ الفاء في قوله تعالى: "فيكون" تفيد الترتيب والتعقيب أي أنّ تكوّن آدم عليه السلام كان مباشرة بعد فعل القول ، والتصاقها بالفعل المضارع الواقع فاصلة يجعله مكونا من ثلاثة مقاطع كما بينا ص ح + ص ح + ص ح ص ، بينما التصاقها بالفعل الماضي "كان" يجعله مكونا من مقطعين فقط هما ص ح + ص ح ص .

واستعمال الفعل المضارع يجعل الفاصلة 59 مغايرة لما قبلها ولما بعدها ؛ حيث إنّ ما قبلها فواصل من الشكل ... صرّين 56 ، ... لمين 57 ، ... حكيم 58 ، وما بعدها فواصل من الشكل ... ترين 60 ، ... ذبين 61 ، ... حكيم 62 ، ... سدين 63 ... وكلها ممطولة بالكسرة ما عدا الفاصلة " فيكون " الممطولة بالضمة التي ربّما أوحى اختلافها عن

فواصل جوارها (القريب) بما تضمنته دلالة آيتها من اختلاف خلق آدم وعيسى عليهما السلام عن خلق سائر البشر.

النموذج التاسع : قوله تعالى: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ

كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۖ ﴾ مريم الآيتان 81 و82 وذلك في وصف الجمع بالمفرد حيث قال "ضِدًّا" ولم يقل: "أضدادا" تبعاً لـ "يكونون" ؛ قال الطاهر بن عاشور: >> الضد اسم مصدر وهو خلاف الشيء في الماهية أو المعاملة ، ومن الثاني تسمية العدو ضدا ، ولكونه في معنى المصدر لزم في حال الوصف به حالة واحدة بحيث لا يطابق موصوفه <<¹

والنص يتحمل هذا الفهم لأنَّ المصدر أصل المادة ومن ثم فإنه يغني عما اشتق منه ولو جاء على الأصل "أضدادا" فإنَّ المعنى يؤول إلى المصدر لأنَّ الأضداد ، وإن اختلفوا ، فإنَّ العلاقة التي تربطهم بمقابلهم الذي هو ضدهم واحدة لا تتبدل سواء اجتمعوا أو اختلفوا، وإلى مثل ذلك ذهب الزمخشري حين قال : >> فإن قلت لم وحد ، قلت وحد توحيد قوله عليه السلام : "وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ" لاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ وَأَنَّهَمْ كَشِيءٌ وَاحِدٌ لِفِرْطِ تَضَامِهِمْ وَتَوَافُقِهِمْ <<²، فمفهوم التوحد والتضام والاتفاق هو شحنة معنوية أضافها التعبير بالمفرد "المصدر" لا يفيدها التعبير بالجمع "أضداد" الذي ربّما أفاد عكس ذلك مما يقوي مكانة الخصم .

والمعنى أن >> ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أي ينكرون أنهم عبدوا الأصنام أو تجدد الآلهة عبادة المشركين لها "تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ..." ويكونون عليهم ضداً أي أعوانا في خصومتهم وتعذيبهم ، وعن مجاهد والضحاك

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 164/7 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف : 126/3

يكونون لهم أعداء <<¹ ، وقيل: << قرناء في النار يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض >>² .

وفي تفسير "الضد" بالأعوان تأكيداً لما تقدّم من إفادة الوحدة والتضام ؛ أي أنّ الآلهة التي عبدها المشركون من أجل أن تكون لهم عزّاً تتوحد وتتعاون جميعها ضد من عبدها لتشكل جبهة واحدة موحدة هدفها الانتقام من المشركين بل لعل التعبير سيفيد وهنّ الآلهة الناتج عن تعدد مواقفها ، على أنّ الكلام جارٍ مجرى الحجاج الهادف إلى إفحام المخاطبين، وإلا فإنّ الآلهة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا في الدنيا بله الآخرة ولو اجتمعت وتوحدت.

وقد << اختلف أهل العربية في وجه توحيد الضد وهو صفة لجماعة ؛ فقال بعض نحوي البصرة وُحِدَ لأنه يكون جماعة وواحداً مثل الرصد والأرصاد، قال : ويكون الرصد أيضا للجماعة ، وقال بعض نحوي الكوفة وُحِدَ لأنّ معناه عونا >>³ .

والذي نستفيده من النص هو الوظيفة الدلالية المشتركة بين المعجم والصرف والتركيب وكيف تشترك مستويات اللغة في تأدية المعنى ؛ ذلك أنّنا لم نكن لندعي أنّ في الآية عدولا لو لم تُخرق القاعدة النحوية التي توجب المطابقة بين الصفة وموصوفها ، (والخبر من باب الصفة) ، وما كان ليتسنى فهم "الأضداد" من "الضد" لو لم يسمح بذلك المعجم ، وكذا استنباط الجمع من المفرد لو لم يتحمّل المفرد (المصدر) - وهو مفهوم صرفي - معنى جميع ما يشتق منه ، لأجل ذلك فإنّ الفصل بين هذه المستويات هو عمل إجرائي لا غير وإلا فإنّ اللغة تؤدّي وظائفها بما هي لغة متلاحمةً مستوياتها .

2/ الإيقاع:

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 148/11 ، وينظر : الطبري ؛ تفسير الطبري : 123/16 ، 124 ، وينظر ابن كثير ؛

تفسير ابن كثير : 137/3 ، والجلالين ؛ تفسير الجلالين : 404/1 .

² - الطبري ؛ تفسير الطبري : 123/16 ، 124 .

³ - نفسه: الصفحة نفسها.

التركيب المقطعي للفاصلة "ضدا" : ص ح ص + ص ح ح

التركيب المقطعي للبديل "أضداد" : ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

البنية الإيقاعية للسورة :

سورة مريم من السور التي يبدو فيها الإيقاع جلياً وتتعانق آياتها ، الواحدة مع الأخرى في تناسق موسيقي عالٍ فيه الكثير من الفنية ، وفيه الكثير من الدلالة ؛ فهي تقع في ثمان وتسعين آية يمكن توصيف فواصلها حسب المقطعين الأخيرين من كل فاصلة على النحو التالي:

- النهاية المقطعية (ص ح ص + ص ح ح) مثل : ...زَكِيًّا ، ...خَفِيًّا ،...وُدًّا ،...لُدًّا... عدد فواصلها 98/88.

- النهاية المقطعية (ص ح + ص ح ح ص) : سبع فواصل (98/07) هي : يَمْتَرُونَ ، 34 ، يَكُونُ ، 35 ، مُقِيمٌ ، 36 ، عَظِيمٌ ، 37 ، مُبِينٌ ، 28 ، يُؤْمِنُونَ ، 39 ، يَرْجِعُونَ ، 40 .

- النهاية المقطعية (ص ح + ص ح ح) : ثلاث فواصل هي "وَلَدًا" : 88 ، 91 ، 92 .

- النهاية المقطعية (ص ح ص ص + ص ح ح ص) : فاصلة واحدة هي عنوان السورة "كهيِص" .

ويمكن تصنيفها حسب رويِّ فواصلها كالاتي :

روي الياء : 98/67 ، روي الدال 22 / 98 ، روي النون 05 / 98 ، روي الزاي 2 / 98 روي الميم 2 / 98 .

وبذلك نستبين أنّ النهاية المقطعية ص ح ص + ص ح ح هي المهيمنة على السورة وبالتالي فهي التي تصنع إيقاعها ، وأنّ روي الياء كذلك هو المهيمن ، يليه رويُّ الدال ،

كما نلاحظ أنّ نسبة التضعيف في روي هذه الفواصل مرتفعة جدًا ذلك أنّ ثلاثا وسبعين فاصلة جاء رويها مضعفاً ، وأنّ التضعيف موجود في الفواصل التي نهايتها ص ح ص + ص ح ح ورويها إمّا ياء ، أو دال باستثناء فاصلتين رويهما الزاي (عزّا 81) و(أزّا 83) ، وهذا معناه تكثيف آخر لهذه الأصوات وبخاصة الياء والدال لأنّ كل حرف مُضَعَّف يُنطق مرتين ؛ الأولى ساكنا والثانية متحركا.

ثم إنّنا نجد اللفظ " ضِدًّا " فاصلة الآية 82 يحقق الشروط الثلاثة ؛ النهاية المقطعية (ص ح ص + ص ح ح) ، وروي الدال ، الذي يأتي ثانيا بعد الياء في نسبة التكرار، وتشديد الدال.

وبالتالي فإنه كما تفوق على البديل " أضداد " في الكثافة الدلالية فإنه يفضله إيقاعا في توفره على النهاية المقطعية المطلوبة وتحمل الدال التضعيف الذي لا يمكن للجمع "أضدادا" تحمله وقد تبيننا من الإحصاء أنه أساس في أغلب فواصل السورة.

النموذج العاشر:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبٰٓلٰسَ اَبٰٓى ۝۱۱۶ ﴾

فَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اِنۡ هٰذَا عَدُوُّكَ وَاِلٰٓزَمُكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ۝۱۱۷ ﴿ طه

الآيتان 116 و 117 ، والمعنى >> إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتصب وتعنّى وتشقى في طلب رزقك فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة << ¹.

والعدول واضح في قوله تعالى " فتشقى " ؛ حيث خاطب آدم دون حواء والسياق التركيبي يقضي بأن يُسند فعل الشقاء إلى المثنى كما أُسند إليهما فعل الخروج ، و>> وإنما أُسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج لأنّ في ضمن شقاء

¹ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 168/3

الرجل - وهو قِيمُ أهله وأميرُهم - شقاءهم ، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة ، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه <<¹ ، معنى ذلك أن أفراد فعل الشقاء له قراءتان ؛ فإمّا أن يكون المعنى تضمين شقاء آدم شقاء حواء من حيث كان القِيمَ عليها ، وبالتالي فإنّ في الآية عدولا لأنّ النتيجة و المحصلة أنهما يشقيان معاً ، وإمّا أن يكون الشقاء خاصاً بآدم ، ومن خلاله كل رجل ، ومن ثمّ فإنه لا عدول ، و>> أسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازاً لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاءً للآخر لتلازمهما في الكون ، مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة <<² .

فالغاية من العدول عند ابن عاشور هي الإيجاز ؛ لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاءً للآخر لتلازمهما في الكون ، ومن قوله: "في شقاء أحد الزوجين شقاء للآخر" نجد أنّ ابن عاشور لم يعصِبْ الشقاء والتعب في طلب القوت برأس الرجل كما فعل الزمخشري وإنما تركه شركة بين الرجل والمرأة بحيث إذا شقيّ شقيّت ، وإذا شقيّت شقيّ ، ولعلّ في ذلك قيمة اجتماعية ، وتاريخية ترتبط بطبيعة الأسرة ، ولعلها عائدة إلى ما بين الرجلين من بونٍ زمني ، وأياً كان القصد فإنّ الطاهر بن عاشور لم يغفل أنّ في ذلك إيماءً إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة.

ورأى الطبري بأنّه >> لم يقل : "فَتَشَقَّيَا" ، وقد قال: " فلا يُخْرِجُنَا " لأنّ ابتداء الطلب من الله كان لآدم فكان في معصيته إيّاه فيما نهاه عنه من أكل الشجرة الكناية عن ذكر المرأة إذ كان معلوماً أنّ حكمها في ذلك حكمه كما قال عن اليمين وعن الشمال قعيد<<³

¹ - الزمخشري ؛ الكشف : 170/3 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 321/7 .

³ - الطبري ؛ تفسير الطبري : 222/16

وهو تفسير لا يختلف عن سابقه في رده العدول إلى الإيجاز المفهوم من السياق اللغوي حيث كان الخطاب ابتداءً موجهاً لآدم وهو مضمون جملة النداء " يا آدم " ، والمفهوم كذلك من السياق الثقافي ؛ ذلك أنّ القوامة في الإسلام - ومن ثمّ الشقاء - موكولة للرجل دون المرأة ، وهذا معنى لم نستفده من الدلالة المقالية للعبارة وإنما من سياقها.

وإلى السياق اللغوي وحده استند ابن عطية حين قال >> إنما أفردته بالشقاء من حيث كان المخاطب أوّلاً والمقصود في الكلام <<¹ .

وهذا كذلك لا ينفك عن سابقه لأنّ في فحواه تضميناً لخطاب آدم خطاب حواء ؛ ذلك أنه قال : " من حيث كان المخاطب أوّلاً " ، بمعنى أنّ المخاطب ثانياً أو تابعا هو حواء ، ومعنى ذلك أنّ المفرد " تشقى " متضمن المثنى " تشقيان " .

وإلى مثل ذلك ذهب القرطبي حيث علل العدول بقوله: >> يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد ، ولم يقل: "فتشقياً" لأنّ المعنى معروف وآدم عليه السلام هو المخاطب وهو المقصود ، وأيضا لما كان الكادّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخصّ <<² ، ورأى أنها شقاوة البدن لأنه عقب بقوله: " إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى " أيّ الجنة³ ، ولم يفتّه أن يستنبط من الآية حكماً فقهياً هاماً جداً ، حين قال >> لم يقل فتشقياً يعلمنا أنّ نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية <<⁴ وعلى الآية كذلك كان قياسه في تحديد قيمة النفقة فقال: >> إنّ النفقة التي تجب للمرأة على

¹ - الزركشي ؛ البرهان : 258/2 .

² - القرطبي، تفسير القرطبي : 253/11 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها.

⁴ - نفسه : الصفحة نفسها.

زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن <<¹ أخذها من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ طه

الآية 119 .

وبذلك يظهر وجه آخر للإفادة من هذا العدول وما يترتب عليه من حكم فقهي يتمثل

في إلزام الزوج بنفقة زوجته وذلك لا من حيث التشريع فحسب ، لأنَّ تشريع النفقة فيه

آيات أخرى مباشرة الدلالة كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

﴿ لَا تَكُلْفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، البقرة الآية 233 ، ولكن من جهة تأصيل هذا التشريع

وأنَّ قوامه الرجل على المرأة ليس مما ابتدعه الإسلام ولكنها الفطرة التي عليها خلق

الرجل ، وعليها كذلك خلقت المرأة.

ومن ثمَّ فإنَّ العدول إلى المفرد في هذه الآية مكنَّ من الإيجاز وهو مطلب بلاغي ،

وأفاد أن الشقاء طلبا للعيش وظيفه الرجل ، وأنَّ النفقة على العيال منوطة بالرجل دون

المرأة ، كما أنه أدى وظيفة أخرى هي التتبيه الحاصل من كسر القاعدة ؛ ذلك أنَّ الذي

دعا إلى كلِّ هذا إنما هو كسر للقاعدة والعدول عن الأصل إذ لو جرى الكلام على

الأصل لما كان فيه انتباه إلى هذه المعاني ؛ ذلك أنَّ مثل هذه الدلالات >> على قدر

كبير من الرهافة والخفاء لا يلفت المتلقي إليها أو إلى البحث عنها إلا إدراكه للتغيير

الحادث في النسق اللغوي للخطاب <<² .

الإيقاع:

التركيب المقطعي للفاصلة " تشقى " : ص ح ص + ص ح ح

¹ - نفسه: الصفحة نفسها.

² - عز الدين إسماعيل ؛ قراءة جديدة لتراثنا النقدي ، ص: 879 .

التركيب المقطعي للبديل " تشقيا " : ص ح ص + ص ح ح

البناء الموسيقي للسورة :

لا تختلف سورة طه في طبيعة إيقاعها كثيرا عن سابقتها سورة مريم ، ولا عن سورة الكهف ، ولا عن سورة الإسراء إذ إنَّ هذه السور الأربع متقاربة في الطول (الإسراء: 111 آية ، الكهف : 110 آية ، مريم: 98 آية ، طه: 135) ، والأمر الجامع بين هذه السور هو أنَّ أغلب فواصلها تنتهي بالمقطع الطويل المفتوح ص ح ح المعتمد على الفتحة الطويلة .

وسورة طه لم تشذ عن نظام هذه السور حيث هيمنت هذه النهاية ص ح ح على 126 فاصلة من 135 ، ومن ضمن هذه الفواصل توجد 109 فاصلة نهايتها " ص ح ح معتمدة على الفتحة الطويلة تليها سبع عشرة فاصلة تعتمد مقاطعها الأخيرة على الكسرة الطويلة أما الضمة الطويلة فلم ترد إلا مرة واحدة في الفاصلة " ضلّوا " .

ومن ضمن الفواصل التي تعتمد النهاية ص ح ح (109 فاصلة) يوجد سبع وسبعون فاصلة يسبق المقطع الأخير من فواصلها ص ح ح) المقطع المتوسط المغلق ص ح ص أي أنَّ نهاياتها من الشكل ص ح ص + ص ح ح وهي النهاية نفسها التي تنتهي بها الفاصلة " تشقى " ولا ينتهي بها البدل " تشقيا " .

وثمة تناغم آخر بين روي الفاصلة " تشقى " ودلالاتها تشي به صفات صوت القاف وهي جميعا صفات قوة لأنَّه مجهورٌ ومستعلٌ ومفخَّمٌ ، ولا يفوتنا أنَّ الأصوات القوية يعبرُ بها عن المعاني القوية¹ ، وواضح أنَّ رويَّ البدل "تشقيا" لا يحقق هذا المعنى ، وكذلك فإنَّ تحريك القاف بالفتحة الطويلة يتناسب ومعنى الحركة طلبا للرزق ، وفي طول الحركة إحياء باتساع مجال الرزق .

¹ - ينظر : ابن جني ؛ الخصائص : 157/2 ، 158 ، و Marsel cresso , le style et ces thécnéques , p :21

المبحث الثالث: ارتباط المعنى بإيقاع الفاصلة

نتناول في هذا المبحث قضية ارتباط المعنى بإيقاع الفاصلة وروبيها ، وهي قضية ، وإن لم يكن لها مساسٌ مباشر بالعدول في بنية الفاصلة ، إلاَّ أنَّها تتصل به من طريق غير مباشر كما سنتبين ذلك .

وهذا الارتباط - في واقع الأمر - تتحقق فيه وبه الوظيفة الأساس للفاصلة بما هي

فاصلة ؛ قال الله تعالى ﴿ كَتَبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢﴾

ولعلَّ من معاني التفصيل ما ذكره القاضي أبو بكر من أنَّ >> الفواصل حروف متشكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني <<¹ ، ومعنى قوله: " يقع بها إفهام المعاني " أنَّ للفاصلة وظيفةً دلاليةً ، أيَّ أنه يمكن اعتبارها دليلاً ، بكلِّ المواصفات اللسانية للدليل ، وقد ثبت أنَّ >> الإيقاع فيها حين يتغير يتغير معه المعنى على الفور، حتى ولو لم يبرز

¹ - الزكشي ؛ البرهان : 53/1 .

ذلك لمن عهده بالقرآن حديث <<¹ ؛ معنى ذلك أن في تغيُّر الإيقاع إيماءً إلى تغيُّر الموضوع ، ومن ثمَّ فإنه يمكن تقسيم السورة إلى فقرات بحسب الموضوعات التي تتناولها انطلاقاً من تغيُّر الفاصلة ، أو بالأحرى يمكن اتخاذ تغيُّر الإيقاع معلماً على تغيُّر الموضوع ، بحيث تُحقَّق هذه الفقرات وحدة الموضوع ووحدة الإيقاع ، وحتى تتحقَّق وحدة الإيقاع في الفقرات نجد أن بعض فواصلها يُعدل فيها عن الصيغ التي لا تستجيب للإيقاع المطلوب إلى صيغ تستجيب له ، وبذلك يكون العدول في هذه الفواصل أداة لتحقيق الانسجام في الإيقاع خدمة للدلالة ؛ قال سيد قطب تعليقا على تغيُّر الإيقاع في فواصل سورة مريم من النهاية المقطعية : (ص ح ص + ص ح ح) في نبياً (الفاصلة 30) حياً (الفاصلة 31) شقياً (الفاصلة 32) ، ... حياً (الفاصلة 33) إلى النهاية المقطعية (ص ح ح ص) في يمترون (الفاصلة 34) ، فيكون (الفاصلة 35) >> كأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يُصدر حكماً بعد نهاية القصة مستمداً منها ، ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً بدل إيقاع القصة الرخيِّ المسترسل ، وكأنما لهذا السبب كان التغيُّر <<² ، وقد مرَّ بنا في المبحث السابق³ أن النهاية المقطعية ص ح ص + ص ح ح تمثل ما نسبته 98/88 من فواصل السورة ، وهي التي وصفها بأنها إيقاع رخيِّ مسترسل يتناسب مع القصة >> لأنَّ المقاطع المفتوحة تتناسب إلى حد كبير مع الحالات الشعورية الممتدة ، وخاصة حالات التطهير النفسي لأنَّ النفسَ يمتد ويطول فيحدث تطهيراً وتفرغاً للشحنة النفسية <<⁴ على نحو ما نجد مثلاً في : " انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا " ، " فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا " ، " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 128 .

² - سيد قطب ؛ التصوير الفني في القرآن ، ص 169 .

³ - ص : 142.

⁴ - رجاء عيد ؛ القول الشعري ، منظورات معاصرة ، منشأة المعارف ، مصر 1995 م ، ص 222 .

"؛ حيث يترجم المقطع المفتوح زفرات مريم - عليها السلام - وهي في أحلك الظروف وأشدّ البلاء ، ولو استعرضنا فواصل هذه الفقرة لوجدنا لبعضها بدائل لا تحقق الإيقاع المطلوب فعدل عنها إلى بدائلها التي تحققه من ذلك:

- العدول عن اسم الفاعل "أتيا" إلى اسم المفعول "مأتيا" في قوله تعالى: ﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ

الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ ﴿٦١﴾ مريم الآية 61 ؛ قال

الفراء: >> معناه أنه هو الذي يأتي ، ولم يقل: " وكان وعده أتيا " لأن كل ما أتاك فأنت تأتية ، ألا ترى أنك تقول أتيت على خمسين سنة ، وأتت علي خمسون سنة وكل ذلك صواب <<¹ ، ومادام كل ذلك صوابا فإن في "مأتيا" ما ليس في أتيا من الإيقاع ؛ ذلك أنه وإن حقق النهاية المذكورة أعلاه ، فإنه يختلف في جميع تركيبه المقطعي فهو مكون من : ص ح ح + ص ح ص + ص ح ح ، وهو تركيب معدوم تماما في جميع فواصل السورة ، بينما تركيب اسم المفعول "مأتيا" (ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح) له نظائر في السورة كـ : "شَرَفِيًّا" فاصلة الآية 16 ، و"مَقْضِيًّا" فاصلة الآية 21 ، و"مَنْسِيًّا" فاصلة الآية 23 ، و"إِنْسِيًّا" فاصلة الآية 26 ، و"مَقْضِيًّا" فاصلة الآية 71 .

- العدول عن اسم المفاعل "عال" إلى الصفة المشبهة "عليًا في الفاصلة 50 والفاصلة 57 ،

قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ ﴿٥٧﴾ ، وقال

كذلك: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ﴿٥٧﴾ مريم الآيتان 50 و 57 .

وزيادة عما في الصفة المشبهة من دلالة الثبات والاستمرارية التي يفنقر إليها اسم

الفاعل فإن التركيب المقطعي لاسم الفاعل "عاليا" (ص ح ح + ص ح ص +

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري : 101/16 .

ص ح ح) لم تأت عليه أيُّ من فواصل السورة عكس تركيب الصفة المشبهة "عليًّا" الذي عليه أغلب فواصلها .

- العدول عن الجمع "جُثَاة" أو "جَاثِين" إلى الجمع "جُثِيًّا" في الفاصلة 68 قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿٦٨﴾ مريم الآية 68 ؛ وواضح أن الفاصلة "جُثِيًّا" تستجيب تماما للإيقاع الغالب على السورة وأنَّ الجمعَيْن "جثاة" ، و"جاثين" لا يستجيبان لذلك .

- العدول عن المصدر "اسم" أو اسم المفعول "مُسَمَّى" إلى الصفة المشبهة في قوله تعالى: ﴿يَزَكَّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ﴿٧٥﴾ أي لم يتسمَّ باسمه "يحي" من قبله و"السَّمِي" هو المشابه في الاسم¹ ، وواضح كذلك أن كلاً من "اسم" و"مسمَّى" لا يستجيب تركيبهما المقطعي لإيقاع السورة ، ولا حتى رويهما لأنَّ الميم لم يرد رويًا في السورة إلا مرتين ، أمَّا "سَمِيًّا" فإنَّها تستجيب لإيقاع السورة مقطعا ورويًّا ، وكذلك فيها إمكانية الوقوف على الروي مضعًا كحال كثير من فواصل هذه السورة ، وأرى في التضعيف الذي جاءت عليه أغلب الفواصل (98/75) صلة وطيدة بموضوعاتها من حيث إنَّ التضعيف هو تشديد وتأکید على الصوت الواقع عليه ثم إطلاق له بمقطع طويل مفتوح ، والتشديد يتطلبه المقام ويلجُّ عليه لأنَّ كلَّ الموضوعات التي تناولتها السورة موعلة في الغرابة يستعصي تصديقها ؛ من ذلك ميلاد يحي عليه السلام من أمِّ عاقر وأب عجوز ، وميلاد عيسى -عليه السلام- من غير أب ، وإعراض آزر على نبوءة ابنه عليه السلام وكان الأحقَّ باتِّباعه ، ونبوءة إسحاق ويعقوب التي عوّضت إبراهيم كفر أبيه ، وجعلت النبوءة أصيلة في بيته ، وتكليم الله موسى عليه

¹ - ينظر : الطبري ؛ تفسير الطبري 342 ، والزمخشري ؛ الكشاف : 94/3 ، والطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 69/7 .

السلام ، والإيمان بالبعث ، والتماس المشركين العزة عند آلهتهم ، وأكبر من ذلك كله وأغرب ادعاء الولد لله تعالى .

وهي أحداث أقرب إلى الخوارق منها إلى الوقائع ، فكان في التضعيف شكل من أشكال التأكيد على حدوثها فعلا ، وذلك انطلاقا من حركة الشفتين في تحقيق النطق بالياء مضعفة ثم الإطلاق بالفتحة الطويلة الذي يبدو امتدادا للتضعيف وكأنه تطويل لمدته وإلحاح عليه ومن ثم تأكيده ، و>> لطول درجة الصوت أثر دلالي حيث إنَّ تغيير درجة الطول يؤدي إلى تغيير المعنى <<¹ ومن هنا كان في العدول إلى "سَمِيًّا" إضافة دلالية لمعنى التأكيد من خلال قبوله التضعيف في صوت الياء.

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلاَءٌ ﴾ إبراهيم الآية 31 تغير الروي من الراء إلى اللام على النحو التالي:

..... البوار (28) ، القرار (29) ، النار (30) ، الخلال (31) ثم كانت العودة إلى الراء في الأناهار (32) ، النهار (33) ، كفار (34) .

وإذا عدنا إلى موضوع هذه الآيات (28 ، 29 ، 30) وهي: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْقَرَارُ ﴿ ٢٩ ﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿ ٣٠ ﴾ إبراهيم الآيات : 28 ، 29 ، 30 تبين أنها تصف حال الكفار وما هم عليه

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني : ص 288 .

في الآخرة ، وما كانوا عليه في الدنيا ، أما الآية 31 ... فإنها توجيه للمؤمنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن ثمَّ فإنَّ الموضوعين متباينان ، فكان في العدول الملحوظ في الفاصلة "خلال" تنبيه إلى أنَّ الكلام قد انتهى في موضوع وبدأ في آخر.

والعدول في الفاصلة "خلال" هو عدول عن "خلة"¹ ، أو عن "مخاللة"² إلى الجمع كما رأى الزركشي ، أو إلى المصدر عند من رأى أنَّ >> الخلال مصدر من قول القائل خاللت فلانا أخاله مُخَالَّةً وخلالاً <<³ .

هذا العدول حقق الانسجام في الإيقاع بين فواصل السورة لأنَّ تركيبه المقطعي (ص ح + ص ح ح ص) هو الذي عليه أغلب فواصل السورة ، لأنَّ فواصل السورة نهاياتها إمَّا من الشكل (ص ح + ص ح ح) وعددها 52/43 أو من الشكل (ص ح ص + ص ح ح ص) وعددها 52/09 .

فكان في العدول عن "خلة" ذات التركيب المقطعي (ص ح ص + ص ح ص) أو "مُخَالَّة" ذات التركيب المقطعي (ص ح + ص ح ح ص + ص ح ص) تحقيق لهذا الانسجام و تنبيه بتغيير الرُّويِّ من الراء إلى اللام إلى الانتقال من الحديث عن الكفار إلى الحديث عن المؤمنين ، وقد نصَّ الطاهر بن عاشور على أنَّ هذه الآية >> استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقَّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله ، وهو الفريق الذي حقَّت عليه الكلمة الطيبة ، فلمَّا ابتدأ بالفريق الأول لقصد الموعظة والتخلي ، ثنى بالفريق الثاني عن طريق الاعتراض بين أغراض الكلام <<⁴ فيكون في العدول إلى

¹ - الزركشي ؛ البرهان : 255/2 .

² - الطبري ؛ تفسير الطبري: 210/13 ، و ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 540/2 .

³ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 540/2 ، والطبري ؛ تفسير الطبري : 210/13 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 231 /6 .

روي اللام عضدً لمفهوم الاستئناف المذكور ، ومددً للوظيفة الانتباهية للغة بما يحقق غاية استدعاء انتباه المتلقي التي هي صمام التواصل الناجح.

وفي قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ الكهف الآيتان 44 ، 45 ؛ نلاحظ أنّ تغير الروي من الباء إلى الراء إيذان بانتهاء قصة صاحب الجنتين وما تضمنت من حوار بين الكافر والمؤمن ، وابتداء الحديث في موضوع آخر مقتضاه التهوين من شأن الحياة الدنيا وزخارفها وأن ليست زهرة الحياة كلها إلاّ ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ، ونرى أنّ اللفظ "مقتدر" معدول عن "قادر" لأنّ أصل الفعل المزيد "اقتدر" هو الفعل اللازم "قدر" فيكون أصل اسم الفاعل "مقتدر" هو اسم الفاعل "قادر" ، كما أنّ المبالغة التي تضمنها اللفظ "مقتدر" الناجمة عن زيادة مبناه وأنه الأقوى في التعبير عن معنى القدرة من "قادر" ¹ يمكن أن تؤدّي بصيغة المبالغة "قدير" ، يدلّ على ذلك أنّ صيغة "قدير" تكررت في القرآن أكثر من اثنتين وخمسين مرة ، بينما لم تتكرر صيغة مقتدر غير أربع مرّات ؛ واحدة هي هذه ، والثانية في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿ أَوْ نُرِيْنَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ الآية 42 والثالثة هي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ

¹ - ينظر: ابن جني ؛ الخصائص : 264/3 ، 265 .

مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ القمر الآية 42 ، والرابعة قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ القمر الآيتان 54 ، 55 .
 وزيادة على تكثيف صيغة "قدير" يمكن أن نلاحظ أنها ارتبطت باللفظ "شيء" ¹ من مثل: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ البقرة الآية 109 ، و﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ آل عمران الآية 26 ... إلخ في خمس وثلاثين آية من مجموع تواترها ، وهو اثنتان وخمسون مرة مما يؤكد أنها الأكثرُ اطرادا ، وأنَّ "مقتدر" عدول عنها.

ونقرأ في هذه الإحصائية اطراد صيغة "قدير" في التعبير عن المبالغة من مصدر القدرة ، فيكون بذلك في كلا اللفظين معنى المبالغة ؛ "قدير" من صيغة المبالغة "فعل" وهي مطردة فاشية ، و"مقتدر" من القاعدة العامة التي مؤدّاها أن كلَّ زيادة في المبنى تقتضي زيادة في المعنى ، و إذا تساوت الصيغتان في الدلالة بقي الاختلاف في الإيقاع ، ويمكن أن نستأنس لهذا بأنَّ ورود "مقتدر" في سورة القمر تستجيب استجابة تامة لإيقاع السورة الموحد المنتهي بالمقطع (ص ح ص) وقد فصلنا فيه في المبحث السابق ، وأنَّ "قدير" المنتهية بالمقطع (ص ح ح ص) لا يحتملها السياق الإيقاعي لهذه السورة .
 وكذلك في سورة الزخرف فإنَّ آياتها ، وعددها تسع وثمانون آية ، تنتهي كل فواصلها بالمقطع (ص ح ح ص) الذي ينتهي به جمع مقتدر "مقتدرون" .

¹ - ورد ذلك في الآيات : البقرة: 20 ، 106 ، 109 ، 148 ، 259 ، 284 ، و آل عمران : 26 ، 29 ، 165 ، 189 ، والمائدة : 17 ، 19 ، 40 ، 120 ، والأنعام : 17 ، والأنفال : 41 ، والتوبة : 39 ، وهود : 04 ، والنحل : 77 ، والحج : 06 ، والنور : 45 ، والعنكبوت: 20 ، والروم: 50 ، والأحزاب : 27 ، وفاطر: 01 ، وفصلت: 39 ، والشورى: 09 ، والأحقاف : 33 ،، والفتح: 21 ، والحديد : 02 ، والحشر 06 ، والتغابن 01 ، والطلاق : 12 ، والتحريم : 08 ، والملك : 01 .

وفي سورة الكهف كل الفواصل ، وعددها عشر فواصل ومئة ، تنتهي بالمقطع نفسه الذي ينتهي به "مقتدرا" (ص ح ح) ، وأكثر من ذلك فإن في الوظيفة الإعرابية خدمة للإيقاع حيث إنها وردت في الكهف خبرا للفعل الناقص بما يحقق الفتحة الطويلة التي عليها كل فواصل السورة ، وفي القمر صفة مجرورة قي الآيتين " أخذ عزيز مقتدر " ، " عند ملك مقتدر " وفي كليهما تحقيق للنهاية (ص ح ص) ، وكذلك في الزخرف وقوعها خبرا للناسخ "إن" (إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ) يحقق الضمة الطويلة التي عليها أكثر من نصف فواصل السورة 89/50 .

والتركيب المقطعي للفظ "مقتدرا" (ص ح ص + ص ح + ص ح ح) له نظائر في السورة من ذلك : مُلْتَحِدًا 27 ، مُرْتَفَعًا 29 ، مُنْقَلَبًا 36 ، مُنْتَصِرًا 43 ، بينما التركيب المقطعي " لـ "قدير" (ص ح + ص ح ح ص) ليس له أي وجود في فواصل السورة كلها .

وما يؤكد أن من غايات هذا العدول - زيادة عن دلالة تغيير الروي - الغاية الإيقاعية هي قوله تعالى في سورة البقرة الآية 20 : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن الإيقاع هنا يتطلب المقطع ص ح ح ص الذي عليه جميع الفواصل المجاورة لهذه الآية .

ومن النتائج التي توصل إليها المشتغلون بدراسة الصوت من علماء اللغة المحدثين أن الرءاء حرف رشيق مرّن أشبه ما يكون بالمفصل ؛ لذلك فإن القرآن قد استنفذ كل

خصائصه الحركية¹ ، والانتقال من فكرة إلى فكرة أو من موضوع لآخر هو تمفصل للكلام تشترك فيه كل مستويات اللغة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ الحج الآية 26 عدول عن جمع المذكر السالم "الساجدين" إلى جمع التكسير "السجود" لأنَّ الجمع السالم "ساجدين" هو المطرد الأفشى .

وقد شكل هذا العدول معلماً فارقاً بين موضوعين ؛ الأول هو الحديث عن حال الكافرين ومقارنته بحال المؤمنين ؛ فذكر حال الكافرين تضمنه قوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ

كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ يصهرُ به ما في بُطُونِهِمْ وَأَجْلُودٌ ﴾ وَهُمْ مَقْمَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا

مِنْ غَمٍّ أَعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الحج الآيات 19 ، 20 ، 21 ، 22 وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي

جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ الحج الآية 25 .

¹ - ينظر : حسن عباس ؛ معاني الأصوات العربية 18 ، 19 وإبراهيم أنيس ؛ الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ط5 ، 1979 ، ص 66 .

وذكر حال المؤمنين تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُتْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾^{٢٣} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾^{٢٤} الحج الآيتان 23 ، 24 .

بعد هذا العرض المستفيض لحال الفريقين والمقارنة بين نعيم هؤلاء وجحيم أولئك بدأ الكلام في موضوع آخر هو عرض قصة إبراهيم عليه السلام وتهيئة البيت له ثم أذانه في الناس بالحج قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾^{٢٦} وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾^{٢٧} الحج الآيتان 26 ، 27 .

فكان في لفظ "السجود" >> الذي هو جمع ساجد مثل الرقود والعود <<¹ إضافة متأتية من شبه هذا الجمع بمصدر فعليه² لأنَّ السجود تصلح جمعا لـ "ساجد" ومصدرا لـ: "سَجَدَ" .

وكذا فيه إفادة إيقاعية لراعيته الفاصلة بتركيبه المقطعي المنتهي بتتابع المقطعين ص ح + ص ح ح ص الذي عليه أغلب فواصل السورة 78/75 حيث لم تشذ عن هذا التتابع إلا ثلاث فواصل هي : الزور (30) ، تعدون (47) ، مطلوب (73) .

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 242/7 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

وفيه كذلك - وهو المقصود هنا - تنبيهه إلى بداية موضوع جديد هو الحديث عن تهيئة البيت الحرام لإبراهيم عليه السلام وانتداب الناس إلى حجّه ، يفهم هذا التنبيه من أمرين ؛ الأول تغير حرف الروي من الميم في الفاصلة "أليم" (25) إلى الدال في الفاصلة "السجود" (26) ، والثاني الانتقال من الكسرة الطويلة في "أليم" وهي قوام الفقرة المكونة من خمس آيات ... حديد (21) ، ... الحريق (22) ، ... حرير (23) ، ... الحميد (24) ، ... أليم (25) إلى الضمة الطويلة في "السجود" ، ثم العودة إلى الكسرة الطويلة في الفواصل الثلاث الموالية ... عميق (27) ، ... الفقير (28) ، ... العتيق (29) ، ثم العودة مرّة أخرى إلى الضمة الطويلة في الفاصلة 30 "الزور" ، وكأن الضمّات الطويلة في هذه الفقرات فواصل بين الكسرات الطويلة ، فينهض بذلك هذان المقومان ؛ روي الدال والضمة الطويلة بوظيفة التنبيه إلى تغير الموضوع .

ولفظ "الساجدين" الذي كان يمكن أن يكون فاصلة هذه الآية ، إن هو انتهى بروي النون المباين لروي فواصل الفقرتين ، فإنّه يفتقر إلى الضمة الطويلة ، كما أنّه دون "السجود" في المعنى لما في الأخير من شحنة مبالغة ليست فيه .

الفصل الثالث

الدلالة المعنوية

المبحث الأول: الدلالة المعنوية في العدول الاسمي

المبحث الثاني: الدلالة المعنوية في العدول الفعلي

المبحث الثالث: الدلالة المعنوية في العدول بين الاسم والفعل

نبحث في هذا الفصل البعدَ المعنويَّ للعدول من خلال تتبع آثار الشحن الدلالي في العبارة مستهدفين المساحة الدلالية التي يغطيها اللفظ المعدول إليه ومقارنتها بنظيرتها في اللفظ المتروك لنلامس ما في العدول من آلية بيانية تمكّن من تغطية جوانب من المعنى تقصّر دونها الصيغ المتروكة .

وتجدر الإشارة - ابتداءً - أنّ البعد المعنوي للعدول يشكل البؤرة في الظاهرة كلها ، سواء من حيث بناء العبارة ، أو تحليلها وفهمها أي عند كل من طرفي الخطاب ، ذلك لأنّ دلالات الألفاظ هي موضوع الاصطلاح والتواضع ، وما باقي الدلالات بإزائها إلاّ دلالات إحياء وإشارة .

لذلك فإنّ الدلالة المعنوية هي دلالة قصدية لا تقبل التأويل ولا تخضع للرأي والترجيح بالقدر الذي يحكم باقي الدلالات لأنّ الدّوال تحيل على مدلولاتها بصورة أكثر مباشرة ، وتبقي وظيفة الباحث هي الكشف عن هذه المدلولات التي لا ينفي وصفها بالمباشرة صعوبة الوقوف عليها في بعض الصور التعبيرية والسياقات المختلفة .

وسبيلنا إلى كشف هذه الدلالات هو عرض نماذج وقع فيها العدول وتحليلها وفق المنهج المقارن القائم على استبدال الصيغ الحاضرة في النص بما يمكن أن يحل محلّها ممّا تسمح به قواعد اللغة ويقبله سياق الخطاب ، ثمّ وضع المعاني بإزاء بعضها للوقوف على الإضافة الدلالية التي تقدمها الصيغ المستعملة ، وأقول الإضافة لأننا نقارن اللفظ الحاضر باللفظ الغائب لا من أجل الموازنة بينهما لاكتشاف أيّهما أليق بالمكان لأننا عندئذ نبقى الاحتمال قائماً بأفضلية المتروك على المستعمل وهو ما ترفضه صفة القداسة التي

يتصف بها القرآن كونه نصاً "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ" ،
ويوقع في التناقض المنهجي المفضي إلى خطأ النتائج من حيث إنَّ القرآن هو
مصدر قواعد اللغة ومن ثمَّ فإنَّه لا يمكن أن يخالفها .

لذلك فإنَّنا إنَّما نبحث القرآن من أجل الوقوف على مواطن البلاغة والإعجاز
(الإعجاز اللغوي هنا) فيه .

ومن ثمَّ فإنَّنا نقارن اللفظ الحاضر بالغائب للكشف عن الحيِّز الدلالي الذي
يضيفه اللفظ الحاضر ولا يشمل اللفظ الغائب لو هو حلَّ محلَّه ، لذلك فإنَّ
قراءتنا للنص القرآني هي قراءة استكشافية بالأساس ، ولا يمكن لأيِّ قراءة
إلا أن تكون كذلك .

وتتضمن مادة هذا الفصل ثلاثة مباحث ؛ يتناول الأول العدول بين الأسماء
، ويتناول الثاني العدول بين الأفعال ، فيما يبحث الثالث العدول بين الأسماء
والأفعال .

المبحث الأول : العدول الاسمي

1 العدول العددي:

قال الله تعالى في سورة ق : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
 وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَاقِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا
 فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا
 لَدَىٰ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
 مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ
 ﴿٢٦﴾ ﴾ الآيات من 20 إلى 26 ؛ حيث وقع الفعل " أَلْقِيَا " المسند للمثنى مواليا
 لفاعل القول المفرد "قَرِينُهُ"، وكان السياق يوجب الإفراد تبعا لإفراد الفاعل إلاَّ
 أنَّ الجمل: " لقد كنتَ في غفلة من هذا " ، " فكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ " ، " فَبَصَرُكَ
 اليوم حديد " ، " وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد " متفرعة عن الجملة : "وجاءت
 كلُّ نفسٍ معها سائق وشهيد" ، فنشأ عن ذلك إمكانية أن يكون الإسناد في "أَلْقِيَا"
 إلى "السائق والشهيد" لذلك كان للمفسرين في تأويل هذه الآية احتمالان إمَّا
 حمل الفعل على الفاعل الأول ، أو على الفاعل الثاني ، حيث إنَّ >> أَلْقِيَا
 يجوز أن تكون مستعملة في أصلها فيكون الخطاب للسائق والشهيد ؛ ويجوز
 أن تكون مستعملة في خطاب الواحد ، وهو الملك الموكَّل بجهنم ؛ خوطب
 بصيغة المثنى جريا على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم
 لأنهم يكثر فيهم أن يرافق السائرَ رفيقان ، وهي طريقة مشهورة كما قال امرؤ

القيس : " قفا نبك " ، وقولهم: " يا خَلِيلِي " ، و "يا صاحِبِي" ، والمبرد يرى أنَّ تنثية الفاعل نُزِلَتْ منزلة تنثية الفعل لاتحادهما كأنه قال ألق ألق للتأكيد <<¹ .

وقال الإمام البغوي : << هذا خطاب للواحد بلفظ التنثية على عادة العرب يقولون: ويلك ارحلها ، أمرا للسائق والشهيد ، وقيل للمتقين >>² .

وقال في الكشاف هو << خطاب من الله تعالى للملكين السابقين : السائق والشهيد ، ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد أنَّ تنثية الفاعل نُزِلَتْ منزلة تنثية الفعل لاتحادهما كأنه قيل : ألق ألق للتأكيد ، والثاني أنَّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان فكثُر على ألسنتهم أن يقولوا: خليلي ، وصاحبي ، وقفا ، واسعدًا حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثني، عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسِيَّ اضرب عنقه (يقولها للواحد)>>³ .

ورأى الإمام الطبري للعبارة تخريجا آخرًا انتزعه من معنى "القرين" الذي يمكن أن يدلَّ على الواحد أو الاثنين أو الجماعة حيث قال: << في ذلك وجهان من التأويل ؛ أحدهما أن يكون القرين بمعنى الاثنين كالرسول ، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتنثية والجمع ، فردَّ قوله "ألقيا في جهنم" إلى المعنى ، والثاني أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ؛ فتقول للرجل: "وَيْلَكَ الْإِحْتِبَاكَ" ، و"ازجُراها" وأنشد :

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 149/12 .

² - البغوي ؛ تفسير البغوي (معالم التزيل) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1423 هـ - 2002 م ، ص : 1228 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف: 271/4 .

" وَإِنْ تَزْجُرَانِ يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدَعَانِ أَحْمَ عَرْضًا مُمَّنَّعًا >>¹

وإذا كان التطابق بين الفعل وفاعله في إسناد الإلقاء إلى السائق والشهيد ، أو تحميل لفظ القرين معنى التثنية - كما تقدم - يمنعاننا من إدراج الآية في بحثنا باعتبارها جارية على أصل القاعدة فإنَّ الوجه الثاني في تأويل الآية وهو إسناد الفعل المثنى "ألقيا" إلى الفاعل المفرد "قرينه" صميم في العدول خصوصا وأنه من فصيح كلام العرب كما تتطرق به شهادة الخليل والأخفش قالوا : >> هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول ويالك أرحلاها وأزجراها، وخذاه وأطلقاه للواحد >>² وتشهد به النصوص الفصيحة.

والذي نلاحظه أن في العدول بالفعل "ألقيا" إلى المثنى إضافة معنى التأكيد بالتكثير لأنَّ >> "ألقيا في جهنم" معناه : ألق ألق >>³ وهو ما يشبه التأكيد اللفظي إلا أنه غير منصوص عليه بإعادة اللفظ المؤكد أو مرادفه كما العرف اللغوي ، وإنما أفاده كسر القاعدة ، وقد رأينا من قبل أن من أغراض العدول شدَّ الانتباه إلى معانٍ خفية ما كان المتلقي لينتبه إليها لو لم يستوقفه كسر القاعدة ، وتبدُّل النسق اللغوي .⁴

ومن الطبيعي أنَّ توكيد المعنى وعدم توكيده لا يستويان ، ولا هما من الإفادة بمنزلة واحدة ، ولا يؤكد المتكلم إلا ما يهتمُّ به وما كان ذا شأن معتبر ، وليس أهمَّ ولا أكد في الدنيا والآخرة مقامٌ كمقام هذه الآية ذلك أنَّ الموقف الذي تتناوله - موقف إقامة الحجة على الكفار - هو مناط الرسائل

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري: 165/26 .

² - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 16/17 .

³ - نفسه: 149/12 ، والجلالين ؛ تفسير الجلالين: 690/1 .

⁴ - ينظر: عز الدين إسماعيل ؛ قراءة جديدة لتراثنا النقدي: 879 .

الساوية كلها ، وعلى تصديق لحظة الجزاء والعقاب هذه ، أو تكذيبها ينبني الإيمان أو الكفر ، ولا يقف هذا الموقف إلا من كفر بمفهوم الجزاء والعقاب ، فناسب أن يكون في التعبير عنها ما يشير إلى هذه الأهمية ، ونظرا لهذه الأهمية البالغة فإن تأكيدها ينبغي أن يتجاوز أساليب التأكيد المعروفة إلى التأكيد بالعدول ، ذلك أن هذا التأكيد من شأنه أن يثبت المعنى في الذهن بطريقة أكد من غيره لما فيه من كدّ الذهن في إدراك المعنى وقد قال الجرجاني إنه >> من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيّله أحلى وبالمزية أولى ؛ فكان موقعه في النفس أجلّ وألطف وكانت به أضنّ وأشغف <<¹ ، كما أن كسر نظام اللغة من غاياته تجاوز المعنى المباشر إلى زيادة الاحتمالات الدلالية الممكنة للعبارة .²

والتنثية في "ألقيا" هي التي فتحت باب التأويل ؛ إذ لو جاء على الأصل مفردًا لما كان ممكننا حمل الآية على أكثر من معنى واحد هو توجيه الأمر للقرين بإلقاء الكافر في النار .

أما التنثية فإنها تُشرك في فعل الإلقاء كلاً من القرين - أو القرناء بتخريج الطبري - والسائق والشهيد ، وفي ذلك تكثير للفاعلين ، وفي تكثير الفاعلين وما يُفهم منه من تحامي الكافر والاجتماع عليه المشعر بالرعب ما يناسب المقام الذي هو لتخويف المخاطبين من هول العقاب ، وقد قال تعالى في هذا المعنى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرَدَّادَ الَّذِينَ

¹ - الجرجاني ؛ أسرار البلاغة: 138 .

² - ينظر: صلاح فضل ؛ نظرية البنائية في النقد الأدبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط3 ،

1987 م ، ص:375.

ءَامَنُوا إِيْمَانًا ... ﴿ المدثر الآية 31 ؛ فيكون في هذا العدول إفادة التأكيد إمَّا بتكثير الفاعلين ، أو بتكثير الفعل كما تقدم في تكرار الفعل "ألق" وهو ما يفهم من قول المبرد المتقدم " تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما "، وفي كل ذلك ما ليس في التزام الأصل .

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴿٦٣﴾ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٤﴾ الكهف الآيات من 60 إلى 63 .

الشاهد في الآية قوله تعالى: " نَسِيًا حُوتَهُمَا " ؛ حيث رأى بعض المفسرين أنَّ >> إسناد النسيان إليهما حقيقة لأن يوشع ، وإن كان هو الموكل بحفظ الحوت فكان عليه مراقبته ، إلا أن موسى هو القاصد لهذا العمل فكان يهمله تعهده ومراقبته ، وهذا يدل على أن صاحب العمل أو الحاجة إذا أوكله إلى غيره لا ينبغي له ترك تعهده ، ثم إن موسى - عليه السلام - نام وبقي فتاه يقظانا فاضطرب الحوت وجعل لنفسه طريقا في البحر <<¹ .

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 366/6 ، وينظر: الزمخشري ؛ الكشاف: 76/3 .

ورأى آخرون أنّ >> يوشع هو الذي نسي ، وأضيف النسيان إليهما كما قال "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ" ، وإنما يخرج من الملح دون العذب >>¹ وأنه >> إنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل المعنى : نسي أن يُعلم موسى عليه السلام بما كان من حاله فنُسب النسيان إليهما للصحبة >>² .

وقال النسفي: >> نسيا حوتهما أي أحدهما وهو يوشع لأنه كان صاحب الزاد ، دليله "فإنّي نسيتُ الحوتَ" وهو كقولهم : نسوا زادهم وإنما ينسأه متعهد الزاد >>³ .
واستدلال الإمام النسفي بإسناد النسيان إلى الفتى في الآية التي بعدها : "فإنّي نسيتُ الحوتَ" له وجأته وهو وحده ينهض شاهدا على أنّ الفتى هو الناسي وما التثنية إلا للصحبة كما تقدم ، يضاف إلى ذلك اعتذار الفتى بقوله "وما أنسانيه إلا الشيطانُ" الذي يحمل اعترافا صريحا من الفتى بالنسيان ، هذا إلى أنّ موسى - عليه السلام - وهو نبيُّ مرسل ، ومن أولي العزم أبعد الرجلين عن وساوس الشيطان ، يعضد هذا ما جاء في الحديث الصحيح من أنّ موسى عليه السلام >> قال لفتاه يوشع بن نون لا أكلفك إلاّ أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت قال - أي فتاه - ما كلفت كثيرا ، ثمّ إنّ موسى عليه السلام نام وبقي فتاه يقضانا فاضطرب الحوت وجعل لنفسه طريقا في البحر فقال فتاه : لا أوقفه ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار الماء عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى عليه السلام نسي صاحبه أن يخبره ... >>⁴ .

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري: 336 ، 337 .

² - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 12/11 .

³ - النسفي ؛ تفسير النسفي ، 19/2 .

⁴ - الحديث أورده القرطبي في تفسيره: 12/11 وابن كثير: 95/3 ، وهو في البخاري: 1755/4 بنصّ

قريب جدا من هذا .

والذي يفهم من الحديث أنّ مراقبة الحوت مهمة أناطها موسى - عليه السلام - مباشرة بفتاه ، ومن ثمّ فهو المسؤول عليه مسؤولية العامل والعبد عما يوكل إليه ، كما أنّ حركة الحوت وقعت أثناء نوم موسى - عليه السلام - فلم يشاهد ما حلّ به وبالتالي فليس ثمة شيء لاحظته حتى يُنسب إليه نسيانه هذا كُله يجعلنا نرجح أنّ في الآية عدولا عن الفعل المفرد "نسي" إلى المثنى "نسيًا".

وإذا عدنا إلى أصل القصة التي رواها ابن عباس¹ ، علمنا أنّ نسيان الحوت كان الغاية التي ينتظرها موسى - عليه السلام - لأنها الأمانة التي تدله على العبد الصالح ومن ثمّ فإنّ العدول في الفعل الذي يعبر عن هذا الحدث الجلل² لا يختلف عن سابقه من حيث هو دعوة للمتلقي كي يقف عند العبارة ويستحضر عظيم ما اشتملت عليه من معنى وهو أمر كان سيفوت لو التزم الأصل .

¹ - من أنّ أبيّ بن كعب (ض) سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول >> إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيّ الناس أعلم؟ فقال أنا ، فعتبّ الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى يا ربّ فكيف لي به ؟ قال تأخذ حوتاً فتجعله في مكثٍ فحيث ما فقدت الحوت فهو ثمّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مكثٍ ثمّ انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة فوضعا رؤوسهما فناهما ، واضطرب الحوت في المكث ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله تعالى عن الحوت جربة الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتها حتى إذا كان من الغد حتى جاوزا قال لفتاه أتتا غدائنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال - ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمره الله به - وقال له فتاه "أرأيت إذ أويينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً وقال موسى : ذلك ماكنّا نبع ، قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر عليه السلام وأنى بأرضك السلام ؟ فقال له أنا موسى فقال موسى بني إسرائيل؟ قال نعم ...<< ، البغوي ؛ تفسير البغوي: 783 .

² - هو جلل لأنه علامة التقاء العبد الصالح ، وهو جلل في نفسه لأنّ الحوت كان ميتاً ، وقيل مأكول بعضه ، ثمّ عادت إليه الحياة وتسرب إلى البحر .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا ۗ ﴾

تَلْكَ أَمَانِيهِمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ البقرة

الآية 111 >> يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ؛ ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتتها >>¹ .

والمعنى : >> قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً >>² ، وهي في حقيقة الأمر أمنية واحدة مفادها اشتراط اليهودية أو النصرانية لدخول الجنة ، فلماذا عبّر عنها القرآن بالجمع "أمانى" ؟

قال الطبري >> وأما قوله: "تلك أمانيتهم" فإنه خبر من الله - تعالى ذكره- عن قول الذين قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى أنه أمان منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان ولا يقين علم بصحة ما يدعون ولكن بادعاء الأباطيل وأمانى النفوس الكاذبة >>³ .

النص يتحمل أن الأمانى التي وردت جمعا هي أمانى الجماعة وهي مجموع أمنيات الأفراد ، لأن كل واحد يدين بدين الجماعة يعتقد معتقدها ويتمنى ما تتمنى فيكون كل يهودي له أمنية أن يكون اعتناق اليهودية شرطا لدخول الجنة ، وكل نصراني أمنيته أن يكون اعتناق النصرانية شرطا لدخول الجنة لكن هذه الأمانى في المحصلة هي أمنية واحدة ، ولأن هذه الأمنية لا تستند إلى حجة أو برهان ويقين فهي أمانى النفوس الكاذبة كما ذكر الطبري .

¹ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير: 155/1 ، وينظر الجلالين: 23/1 .

² - الطبري ؛ تفسير الطبري: 492/1 .

³ - نفسه: 492/1 .

وقد ردَّ أحد الباحثين المحدثين هذا العدول إلى >> أنهم عاشوا وهمهم هذا ليلَ نهار فكبر في عقولهم الجوفاء حتى صار أمانِيَّ وهو ما عبر عنه النصُّ الكريم <<¹ بالجمع "أمانِي".

وقوله تعالى: ﴿ فَالِمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ هود الآية 14 ؛ حيث نجد للمفسرين في تأويل ضمير الجمع في لكم ثلاثة آراء ؛ الأول : أن المخاطبين هم المشركون الذين يطلبون العون على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن >> قل يا محمد لهؤلاء المشركين : فإن لم يستجب لكم من تدعون من دون الله إلى أن يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات ، ولم تطبقوا أنتم وهم أن تأتوا بذلك ، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أنزل من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم بعلم الله وإذنه <<².

والرأي الثاني أنَّ المخاطب هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون لأنَّ المقصود: "يا أصحاب محمد"³.

والرأي الثالث - وهو الشاهد - أنَّ المخاطب هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه >> إنما جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله : "لكم" ، "فاعلموا" بعد قوله : "قل" لأنَّ الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم <<⁴.

¹ - محمد الأمين الخضري ؛ الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ - دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ، ط1 ، 1993 ، ص 122 .

² - الطبري ؛ تفسير الطبري: 10/12 .

³ - البغوي ؛ تفسير البغوي: 615 ، وينظر: النسفي ؛ تفسير النسفي: 183/1 .

⁴ - النسفي ؛ تفسير النسفي: 183/1 .

وقد صدر الإمام القرطبي جملة هذه الآراء بالرأي الأخير حيث قال: >> قال: **قُلْ فَأْتُوا** وبعده: **"فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ"** ولم يقل: **"لك"** هو على تحويل المخاطبة من الأفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً وقد يُخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة <<¹.

وحيث إنَّ حَمَلَ الجمع في **"لكم"** على المفرد منصوح عليه ، وعليه فصيح الكلام العربي إذ >> من سنن العرب في هذا الباب أن يقولوا للرجل العظيم والملك الكبير: انظروا في أمري ... والسادة والملوك يقولون: نحن فعلنا ونحن أمرنا ، والعرب تقول: **"ثوب أهدام"** ، و**"حبل أحذاق"** ، و**"أرض سباسب"** <<²، فإنه لا مانع من حمل النص عليه ، بل لعله التأويل الأوجه لما فيه من فوائد أهمها تعظيم شأن الرسول ، وليس تعظيمه - صلى الله عليه وسلم - بدعا في الذكر الحكيم ، بل إنه صريح في كثير من آي القرآن.

والمقام هنا يتطلب ذلك لأنه في موقف التحدي ، وأولى بالمتحدّي أن يكون عظيماً ، كما أن عجزهم عن الإتيان بسور كسور القرآن يحمل في طيه تعظيماً للرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي فقه القرآن وهو أميٌّ ، ثم إنَّ العدول إلى الجمع هو الذي جعل الآية تتحمل كل هذه التأويلات دون أن يلغى تأويل تأويلاً آخر ، فيفهم كل طرف أنه المقصود بالخطاب وفي ذلك مزيد اهتمام وعناية ، وفي ذلك خصوبة دلالية تغيب في حال الأفراد.

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 13/9 ، وينظر: البغوي ؛ تفسير البغوي: 165 ، و الطبري؛ تفسير

الطبري: 10/12 .

² - الثعالبي ؛ فقه اللغة: 253 . والسيوطي؛ اللزهر: 263/1 .

وللغرض نفسه كان العدول عن المفرد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ

أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ النور الآية 22 ؛ حيث >> المراد من أولي الفضل ابتداءً أبو بكر

(ض) ، والمراد من أولي القربى ابتداءً مسطح بن أثانة <<¹.

وقد نزلت هذه الآية عقيب تبرئة عائشة (ض) في حادثة الإفك بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا

هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ

فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ

بِالْسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بَأْفَوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ

عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 90/8 .

مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ

تُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ النور الآيات من 11 إلى 20 في سيدنا أبي بكر

الصديق الذي قطع نفقة كان يجريها على ابن خالته مسطح بن أثانة لخوضه في حديث الإفك حيث أقسم ألا ينفق عليه شيئاً بعد أن قال ما قال في عائشة¹ ، فكان الخطاب موجّهاً إليه في قوله تعالى "ولا يأتل" أي لا يقسم على ما أقسم عليه ، ودليل ترجيح هذا التوجيه للآية على أن يكون الخطاب فيها لجماعة من المسلمين كانوا قد وقفوا الموقف نفسه من بعض من كانوا ينفقون عليهم بسبب تعرضهم لحادثة الإفك² هو الحديث الصحيح الوارد في البخاري ومسلم حيث >> ... قال أبو بكر (ض) وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال في عائشة ، فأنزل الله " ولا يأتل أولوا الفضل... إلى قوله: "غفور رحيم" ؛ قال أبو بكر بلى والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبداً <<³ .

وقد أثبت هذا التوجيه أكثر المفسرين ؛ قال الإمام النسفي >> نزلت في شأن أبي بكر حين حلف ألا ينفق على مسطح بن خالته لخوضه في حديث عائشة (ض)

¹ - النيسابوري ؛ أسباب النزول ، تح وليد الزكري ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1424 هـ ، 2004م ، ص 188 .

² - ينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 207/12 .

³ - البخاري ؛ صحيح البخاري: 1521/4 ، ومسلم ؛ صحيح مسلم: 2136/4 .

وكان مسكينا بدريا مهاجرا ، ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال بل أحبُّ أن يغفر الله لي وردَّ لمسطح نفقته <<¹ .

فيكون في خطاب أبي بكر (ض) بضمير الجمع تعظيمٌ لشأنه ورفعٌ لقدره وهو حقيق بذلك ، يؤيِّده أن في السياق اللغوي ضميمة تؤيد هذا الفهم ، وهي قوله تعالى: "أولو الفضل" ؛ حيث وصف المخاطب بأنه صاحبُ فضلٍ ، وإنْ فلا بأس من تفضيله في لغة الخطاب ، كما أن مخاطبة الرسول (ص) أبا بكر بالآية فيها نصٌّ على أنه المعنيُّ بها ، واستجابته بالقول : " بلا أحبُّ أن يغفر الله لي " ، وبالفعل (ردّه النفقة والتعهد بعدم قطعها) دليل على أنه فهم أنه المعنيُّ بالخطاب.

ثم إن في الموضوع نكتةً لطيفةً مفادها أن في توجيه الخطاب لأبي بكر بصيغة التعظيم اجتماع تكريمه ، هو وابنته ، التي نصَّ القرآن على تبرئتها فتضمَّنت السورة بذلك تسريّةً لطيفةً للنبيِّ - صلى الله عليه وسلم - بعدما لحقه من أذى في أهله لأن في تكريم زوجه وأبيها تكريماً له وتنزيهاً للأسرة التي نالت شرف مصاهرتة ، وفي ذلك ما يؤكد فضله ويقطع السنة المنافقين .

وفي قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾

المؤمنون الآية 99 ؛ عدول عن المفرد إلى الجمع في قول المحتضر "ارجعون" ؛ حيث << خاطب الله - تعالى - بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك >>² ، واستشهد صاحب الكشاف بقول الشاعر :

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي: 137/2 ، وينظر: الزمخشري ؛ الكشاف: 279/3 ، والبغوي ؛ تفسير البغوي :

900 ، وابن كثير ؛ تفسير ابن كثير: 271/3 .

² - النسفي ؛ تفسير النسفي: 127/2 ، وينظر: الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 123/8 .

فَإِنْ شِئْتَ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أُطْعَمْ نَقَاحًا وَلَا بَرَدًا¹

وقيل : >> هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله لأنهم استغاثوا أولاً بالله ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا >>² ، وقيل >> إن معنى "ارجعون" على جهة التكرير أي : ارجعني ، ارجعني >>³ ، وقال السهيلي >> هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب فاختلفت ولا يدري ما يقول من الشطط ، وقد اعتاد أمرا يقوله في الحياة من رد الأمر إلى المخلوقين >>⁴ ، فيتلخص في المسألة أربعة آراء :

الرأي الأول : هو خطاب للملائكة ، وإذن فلا عدول .

الرأي الثاني : هو خطاب لله ، وفيه عدول غايته التعظيم .

الرأي الثالث : هو خطاب لله تعالى يقوله المحتضر وهو في حال الارتباك وعدم الوعي إذ يخاطب الله من خلال ما اعتاد من خطاب المخلوقين .

الرأي الرابع : هو خطاب لله على وجه التكرير وفيه اقتصاد في تضمين لفظ "ارجعون" مجموعة ألفاظ ارجعني ، ارجعني ... وما في ذلك من تضييع وقت هو العدو الأول للمحتضر ، لأن المحتضر الكافر حين يرى مقعده من النار يدخل في سباق مع الزمن وأقصى ما يتمناه أن يرجع به الزمن إلى الوراء ، ولو أمكنه أن يقتطع من زمن التلفظ زمنا - مهما كان ضئيلا - يوحد فيه الله لينجو من العذاب لفعل ، وأجد لهذا تأصيلا في الأساليب الفصيحة ؛ أقصد أسلوب الإغراء

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف: 263/3 ، وينظر: الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والنوير: 123/8 .

² - البغوي ؛ تفسير البغوي: 887 .

³ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 149/12 .

⁴ - الرزركشي ؛ البرهان: 325/2 .

والتحذير؛ حيث يعتمد المتكلم تحت وطأة الاستعجال إلى حذف الفعل وهو ركن الإسناد فيقول : الله الله ، أو: الأسد الأسد ، أو نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ... ﴾ غافر الآية 67 ؛ عدل عن الخطاب بالجمع إلى المفرد فقال: "يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً" ولم يقل : "أطفالاً" كقوله في سورة الحج :الآية 05 ﴿... وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ... ﴾ والمقصود أطفالاً¹ ، ولكنه >> اقتصر على الواحد لأنَّ المراد بيان الجنس <<² .

ورأى فيه آخرون أنَّ لفظ "الطفل" يجمع ما في جميع الأطفال من صفات البراءة ، والصفاء ، والفضيلة ، والبطولة السليمة ؛ لأنهم في هذه الحال جمع عدد لكن سماتهم النفسية وصفاتهم الشخصية تلتقي في فرد واحد حقيقةً ومعنى³ ، و>> كأن صيغة الأفراد تقول : مهما تعددت صور الأطفال وتباينت ألوانهم وتخالف أبائهم وأمهاتهم فإنهم لا يتخالفون ولا يتفاوتون في حقيقة نفوسهم ؛ فالطفل إذن بلفظ الأفراد أحق بهذا المقام وأصلح له من استمرار النسق على الجمع ؛ لأنه يوحي بإفراده ما لا يوحي بجمعه ، وبينه عليه ما لا ينبه الجمع عليه <<⁴ .

¹ - ينظر: البيهقي ؛ تفسير البيهقي: 1145 .

² - النسفي ؛ تفسير النسفي: 84/2 .

³ - ينظر: علي النجدي ناصف؛ مع القرآن في دراسة مستلهمة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1981م ،

ص180 ، نقلا عن: صالح ملا عزيز ، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: ص211 .

⁴ - المرجع السابق : الصفحة نفسها .

و >> يؤيد هذا التعليل أن "الأطفال" ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ

الْأَطْفَالَ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا أَسْتَعِذُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ النور الآية 59

بصيغة الجمع لأن ملامح شخصياتهم بدأت تتنوع وخصائص نفوسهم أخذت في التميز بدليل توجيه التكليف إليهم وطلب النزول منهم على حكم الشرع عندما تبدو عليهم ملامح الرجولة وأمارات البلوغ >>¹.

وحيث إن معنى المفرد "طفلاً" يتضمن معنى "أطفالاً" لأنه لا يمكن أن يكون جميع الأطفال طفلاً واحداً فإنه لا حاجة إلى استعمال "أطفال" لأنها تنافي قاعدة زيادة المبني توجب زيادة المعنى كما أن العدول إليها أضاف معنى آخر هو الإلماع إلى ما يشترك فيه جميع الأطفال من صفات البراءة مصداق الحديث >> ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه >>².

2 - العدول في الجنس

في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي

الْفُلِّ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظُنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۗ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْنَا

مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ يونس الآية 22 وُصفت الريح مرة

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني : ص 211.

² - مسلم ؛ صحيح مسلم: 2047 ، والبخاري ؛ صحيح البخاري: 465/1 .

بالوصف المؤنث "طيّبة" وأخرى بالوصف المذكر "عاصف" ، فأيهما أصل ،
وأيهما عدول عن الأصل؟

يتحدد ذلك بمعرفة جنس الريح الذي قال فيه الفراء >> الريح مؤنثة إلا عند
بني أسد وكأنهم اجترؤا على ذلك إذ كانت الريح ليس فيها هاء <<¹ يؤيد ذلك
ورود الريح مؤنثة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ
كِرْمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ
ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ إبراهيم الآية 18 ، ومن ثمّ فإنّ العدول واقع
في لفظ عاصف ، وكان حقّه أن يؤنث تبعاً للموصوف إلاّ أنّه >> لم تلحقه علامة
التأنيث لأنّه مختص بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث مثل عانس وحائض
ومرضع <<² .

وهو تخريج ، على ذكائه ، لا ينفي عن اللفظ صفة العدول لوروده صفةً للريح
وهو مؤنث لأنه يقال: "ريح عاصف" و"عاصفة" ، ومعصوفة وعصوف³ وقد قال
الله تعالى : "والعاصفات عصفا" وليس جمع عاصف عاصفات إنّما هو عواصف⁴ .
وقد رأى بعض الباحثين أنّ هذا العدول جاء ليعكس حالة ركّاب السفينة في
وضعين ؛ وضع الأمان ، ووضع الخطر حيث استعمل الوصف المؤنث "طيّبة" في
وضع الأمان ، والوصف المذكر "عاصف" في وضع الخطر لما في الأنوثة من

¹ - الفراء ؛ المذكر والمؤنث: ص39 ، 87 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 137/5 ، وينظر: الفراء ؛ المذكر والمؤنث: ص 105 .

³ - ابن منظور ؛ اللسان: ع.ص.ف.

⁴ - نفسه .

لُطْفٍ ورَقَّةٍ يَتَنَاسَبَانِ مَعَ الشُّعُورِ بِالأَمَانِ ، وَمَا فِي الذِّكُورَةِ مِنْ شِدَّةٍ وَغِلَظَةٍ تَلِيْقَانِ بِوَضْعِ الخَطَرِ¹.

وتخريج ذلك أَنَّ الوصف بالمؤنث حملٌ على المعنى ، والوصف بالمذكر حملٌ على اللفظ ، وإنما >> اختير وصف المعنى في الحالة الأولى لأنَّ معنى السياق كان إيجابياً ؛ كان يعني أَنَّ الذين في الفلك يتمتعون بنفسية طيبةٍ لأنَّ الريح كانت تجري رخاء فكانت الفلك تجري جريا سهلا هيئنا ، وهذه الحالة النفسية الرضية يناسبها الوصف بالتأنيث أكثر من التذكير لأنَّ في التأنيث من الرقة واللفظ أكثر مما في التذكير ، فوصفت بأنها طيبة ، واختير وصف اللفظ في الحالة الثانية لأنَّ معنى السياق كان سلبياً ، كان يعني أَنَّ الذين في الفلك قد انزعجوا وأصابهم الهلع لأنَّ الفلك أخذت تضطرب في عرض البحر فخافوا من الهلاك وهذه الحالة النفسية المضطربة الخائفة تناسب القوة التي يناسبها الوصف بالتذكير أكثر مما يناسبها الوصف بالتأنيث لما في التذكير من خشونة ترتبط في الذهن بالقوة ولهذا قيل ريح عاصف <<² .

وهو تخريج حسن والنص يتحمَّله لأنَّه من الدلالة الضمنية والإشارة الخفية التي تختص بها اللغة البليغة بله المعجزة ، وحيث إنَّ النصَّ يتحمَّله ، وفي السياق الخارجي من القرائن ما يثبت اللطف للأنوثة والشدة للذكور ما يعضده فلا مانع من قبوله.

¹ - ينظر: صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: ص 250 .

² - عودة الله منيع القيسي ؛ سر الإعجاز في تنويع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد ، دار البشير ، مؤسسة الرسالة، الأردن ، ط1، 1996 ، ص 170 ، نقلا عن صالح ملا عزيز ، جماليات الإشارة النفسية في القرآن الكريم ، ص 250 .

وزيادة على هذه الدلالة فإنَّ في العبارة فائدة أخرى ؛ هي أنها تهض شأها على أن القرآن جاء على أكثر من لهجة عربية ؛ فهي (العبارة) خطاب لمن يعتبر الريح مؤنثة (سائر العرب) ، وهي كذلك خطاب لمن يعتبرها مذكرا (بني أسد) إذ لهجة بني أسد من اللهجات الفصيحة .

ومما أشكل على المفسرين عدم مطابقة الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ النحل الآية 66 ؛ حيث لم يقل ممَّا في بطونها أي الأنعام .

قال الفراء: >> ردَّ الكناية إلى "النعم" ، و" النعم " و"الأنعام" واحد ولفظ "النعم" مذكر ، قال أبو عبيدة والأخفش : النعمُ يذكر ويؤنث ؛ فمن أنث فلمعنى الجمع ، ومن ذكر فلحكم اللفظ <<¹ ، ولكن لفظ "النعم" لم يُذكر في الآية ، ولا قبلها ، ولا بعدها فلسنا ندري ما وجه ردِّ الضمير إليه إلا أن يكون حملا على المعنى ، وقال في التحرير >> أفراد ضمير الأنعام في قوله تعالى : ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ مراعاة لكون اللفظ مفردا ... وقد يُراعى معناه فيعامل معاملة المجموع كما في آية المؤمنون "نسقيكم ممَّا في بطونها" <<² ، إلا أن هذا لا يقدم إجابة عن السؤال لماذا حُم على اللفظ هنا وعلى المعنى هناك ؟ .

وجاء في "الكشاف" أنه >> يجوز أن يقال: في"الأنعام" وجهان ، أحدهما أن يكون تفسير"نعم" كـ : "أجبال" في"جبل" ، وأن يكون اسماً مفردا مقتضيا لمعنى الجمع كـ: "نعم" فإذا ذُكر فكما يُذكر "نعم" في قوله:

¹ - البغوي ؛ تفسير البغوي: 713 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 202/6 .

فِي كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتُنْتَجُونَهُ

وإذا أنت ففيه وجهان : أنه تكسير "نَعَم" ، وأنه في معنى الجمع <<¹

والزمخشري في هذا النص يؤصل علة التذكير والتأنيث في لفظ "الأنعام" بشكل عام بما يؤكد أنّ الوجهين جائزان ، وليس في النص ما يبرر وجه اختيار التذكير عن التأنيث لأنّ صحة الوجهين لا تعني اعتبارية اختيار أحدهما.

ولعلّ الإجابة عن هذا التساؤل في قول البغوي : << الكناية مردودة على البعض والجزء كأنه قال: "نسقيكم مما في بطونه اللبن" إذ ليس لكلها لبن >>² وهو معنى خفي على غيره ؛ ذلك أنّ الأنعام ليست كلّها ذات لبن ، وإن كانت إناثا ، لأنّ اللبن لا يكون إلاّ بعد الولادة ، وليست إناث الأنعام دائما في حالة درّ ، وليست كلّها ولودة ؛ إذ يمكن أن يكون منها العقيم كالإنسان .

وزيادة على ذلك فإنّ لفظ "الأنعام" يشمل الذكور والإناث ؛ فمجيؤه بلفظ المذكر "بطونه" مقصودا به معنى البعض فيه استثناء للبعض الآخر الذي لا لبن فيه ؛ وهو الذكور وغير ذات الدرّ ؛ وفيه بالتالي تخصيص لإناث الأنعام التي هي في حالة إرضاع وفي هذا دقة بيان.

وقريب من هذا العدول العدول في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ

كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ

سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢٠﴾ الحج الآية 02 ؛

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 588/2 ، 589 .

² - البغوي ؛ تفسير البغوي: 713 .

حيث الإرضاع من خصائص الأنثى فلم زيدت علامة التأنيث ؟ ذلك لأنَّ >> "المرضعة" هي التي في حال الإرضاع ملقمةً ثديها الصبي ، و"المرضع" التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقيل "مرضعة" ليدلَّ على أنَّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد أَلقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة <<¹ .

فعلمة التأنيث تكون قد أضافت شحنة من المبالغة يتطلبها هول الموقف وفضاعته لأنَّ في إضافتها تمثيلاً لـ >> زهول الأمِّ في أبلغ صورته وأعنف شدَّته، ولو حلت "المرضع" محلها لكان زهولها أقلَّ دلالة على استفحال الخطب وهول المشهد لأنَّها حينئذٍ خليَّةٌ لا تمارس الرضاعة ولا يكون الطفل منها بمكان <<² .

ويكون العدول عن "مرضع" إلى "مرضعة" بمثابة ردِّ الفرع إلى الأصل ؛ لأنَّ الأصل أن يقال للأنثى "مرضعة" بالتاء لولا أنَّها تختص بالإرضاع دون الذكر، ولأنَّها كذلك فإنَّه اجتزئ بـ : "المرضع" عن "مرضعة" حيث لا لبس فالتاء هنا نتحفَّظ عن كونها علامةً للتأنيث لأنها لم تفد معناه ، ولكنها أفادت معنى التلبس بالفعل لأنَّ "مرضعة" في وِزَانٍ : "هي ترضع" .

وفي قوله تعالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۗ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ ﴿١٨﴾

المزمل الآية 18 ؛ لم يطابق الخبرُ "منفطر" مبتدأه "السماء" لأنَّ >> القرآن الكريم يعامل السماء تسعا وعشرين مرة معاملة المؤنث إسنادا إليها ووصفا لها وإعادة للضمير عليها ، ولم يستعملها مذكورة ولو مرة واحدة ، لا نصًّا ولا احتمالا ، فما

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف: 211/3 ، وينظر: النسفي 92/2 ، والبغوي: 857 ، والتحرير والتنوير : 189/7 .

² - علي النجدي ناصف ؛ بين "مرضعة" و "منفطر" في القرآن الكريم ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية الملكي سابقا ، القاهرة جمادى الآخرة 1400هـ ، ماي 1980م ، 31/20 .

للقرآن لا يدع منهجه في استعمالها إلا في هذه الآية خاصة وما كان القرآن ليصنع هذا الصنيع إلا لأمرٍ يراد <<¹

نعم لا بدّ من أمر مراد وراء هذا العدول ولا سبيل لاعتباره عفواً ، وأيُّ مكان للعفوية في كتاب الله؟

قال الفراء >> السماء تُذكَر على التأويل بالسقف لأنَّ أصل تسميتها سماء على أصل التشبيه بالسقف ، أي: والسَّقْفُ مذكَّر والسماء مؤنثة ، وتبعه الجوهري وأنشد:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ

وأنشد ابن بري:

وَقَالَتْ سَمَاءُ النَّبِيِّ فَوْقَكَ مَخْلُقٌ وَلَمَّا تَيْسَّرَ اجْتِلَاءُ الرِّكَائِبِ <<²

وروى المبرّد أنّ السماء مفرد سماوة أي أنّ السماء ليست اسماً مفرداً ولكنها اسم جنس جمع ؛ فلفظه مفردٌ ومعناه جمعٌ لما لا يعقل فيجوز تذكيره للفظه وتأنيثه لمعناه <<³ .

ويبقى السؤال مع ذلك لماذا اختير التذكير هنا ؟

يرى الدكتور علي النجدي أنّ "البناء" لا "السقف" هو تأويل معنى السماء في هذه الآية يقول: >> فإذا ارتضينا أن يكون "البناء" لا "السقف" هو مجاز السماء كان في كلمة "منفطر" على خلافها لكلمة السماء إشارة إلى البناء ودعوة إلى

¹ - السابق: ص 33 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 276/2 .

³ - ينظر: علي النجدي ناصف ؛ بين "مرضعة" و"منفطر" في القرآن الكريم ، ص 34 .

استحضاره وأنه ملحوظ فيه معنى وإن لم يذكر لفظا ... فتتَشَقُّ السَّمَاء طوعا لإرادته ، لا يُعني عنها أنها وثيقة البنية وأنها خلقت بأيد وليس فيها فطور <<¹ .

وهو معنى بليغ ليس في ظاهر العبارة تصريح به ولكنه من قبيل المعاني الضمنية التي غالبا ما يكون نصيبها أوفر من نصيب التصريحي² ، بل إنَّ الضمني في كثير من الأحيان هو القصد والهدف ، وكثيرا ما وجد فيه المفسرون ضالتهم عند استحالة قبول المعنى الظاهر كما في آيات الصفات .

ورأى الطاهر بن عاشور أنَّ العدول لا يتجاوز تجنب الثقل ، وأنه >> إيثار لتخفيف الوصف لأنه لما جيئ به بصيغة "منفعل" كانت الكلمة معرضةً للثقل إذ ألحق بها حرف زائد آخر ثالث وهو هاء التأنيث ؛ فيحصل فيها ثقل يجتنبه الكلام البالغ غاية الفصاحة ، ألا ترى أنها لم تجر على التذكير في قوله تعالى " إذا السماء انفطرت " إذ ليس في الفعل إلا حرف مزيد واحد هو النون <<³ .

وهو تعليل مقبول لأنَّ طلب الخفة غاية تقصد لذاتها - كما تقدّم - إلا أنَّ الرأي الأوّل أوجه لأنَّ المعنى مُقدّم على الإيقاع ، و"البناء" رمزٌ للتماسك ، يستفاد ذلك من دلالة اللفظة ، ومن استعماله مجازا في معنى الشدّ والانجماع والتماسك كما في الحديث: >> المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا <<⁴ ، والعرب تقول للمتزوج بنى بزوجه ، والزواج هو انجماع وتماسك ، والانفطار ضدُّ ذلك لأنه لا يكون انفطار إلا في التماسك وما سميت الفطور فطورا إلا لأنها تتشق عنها الأرض.

¹ - السابق : ص 36 .

² - ينظر: صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، دار صفحات للدراسة والنشر ، دمشق ، ط 1 ، 2011 ، ص 92 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 277/12 .

⁴ - البخاري ؛ صحيح البخاري: 2242/5 ، ومسلم ؛ صحيح مسلم: 1999/4 .

ومعنى الآية أنّ >> السماء على عظمها وإحكامها تتفطر به أي تنشق، فما ظنك بغيرها من الخلائق <<¹.

وفي العدول عن المؤنث إلى المذكر في قوله تعالى: ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ۖ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ التحريم ، الآية 12 ، رأي بعض المفسرين أنّ التعبير جارٍ على التغليب لأنّ >> القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على إناثه ، و"من" للتبويض <<² ، أو أنّ "من" >> لا ابتداء الغاية على أنّها وُلدت من القانتين لأنّها من أعقاب هارون أخي موسى عليه السلام <<³ .

وانفرد الطاهر بن عاشور برأي مقتضاه أنّ القنوت في الأمة الإسرائيلية من أعمال الرجال ولذلك حُمِل في الآية على المذكر قال: >> ونكتته هنا الإشارة إلى أنّها في عداد أهل الإكثار من العبادة ، وأنّ شأن ذلك أن يكون للرجال لأنّ نساء بني إسرائيل معفيات من عبادات كثيرة <<⁴ .

بمعنى أنّ مريم - عليها السلام - تجاوزت بعبادتها بنات جنسها وأنت من الطاعات ما لم تأت به النساء على عهدنا ، وهذه تركية يؤكدّها الحديث >> كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام <<⁵ .

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي: 305/2 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف : 429/4 ، وينظر: النسفي ؛ تفسير النسفي: 4/ 273 ، والتحرير والتنوير : 379/11 .

³ - النسفي ؛ تفسير النسفي: 4/ 273 ، وينظر: الكشاف: 429/4 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 379/11 .

⁵ - البخاري ؛ صحيح البخاري : 3/ 1252 و 3/ 1266 ، و 3/ 1374 ، ومسلم ؛ صحيح مسلم: 4/ 1866 ، وابن حبان ؛ صحيح ابن حبان: 51/16 .

ومن الباحثين من رأى أنّ إشادة الآية بمريم تتجاوز صبرها على العبادة والقنوت إلى صبرها على مواجهة قومها حيث جاءتهم تحمّل بين يديها ابنها - عيسى عليه السلام - وهي عذراء وهو موقف عصيب وتُهمة عظيمة تقصّر دونها عزائم الرجال بله النساء .

و>> لنا أن نتخيل من وراء الكلمات والسطور ما تزخر به نفس امرأة عذراء من مشاعر الخجل والانكسار حين تأتي قومها بطفل من غير زوج وهم يوجهون إليها أصابع الاتهام ، وقلّ ما نجد رجلا بله امرأة يقدر على مواجهة هذه المواقف العصبية بهذه الدرجة من الهدوء والطمأنينة وقوة الإيمان، ولذلك نسبت إلى جمع المذكر السالم حتى يعكس الأسلوب هذه العزيمة التي لا توجد إلاّ عند قلائل الرجال <<¹ ، وهو التأويل الذي نرجّحه لأنّ نسبتها إلى هارون - عليه السلام صريحة - في خطاب قومها لها : "يا أخت هارون" ، فلا حاجة إلى الإشارة إليها ، أمّا التغليب فإنّه غير مُقنع في هذا المقام ، لأنّ الأوّلَى أن يردّ الكلام بالنصّ عليها لأنها استثناء في جنسها من حيث انقطاعها للعبادة ، واستثناء في الأحياء جميعا من حيث إنجابها من غير زواج .

3 - العدول بين الضمائر

تناول القدامى العدول بين الضمائر تحت مصطلح "الالتفات" وخصّوه بعناية كبيرة لم تحظ بها صور العدول الأخرى ، ولم يققوا فيه عند رصد صورته وأشكاله وإنّما بحثوا غاياته وأغراضه واختلفت آراؤهم في ذلك ؛ قال الزمخشري >> إنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا

¹ - صلاح عبد الفتاح الخالدي ؛ لطائف قرآنية ، دار القلم ، دمشق ، ط2 ، 1998م ، ص 146 ، 147 ،
نقلا عن صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص251 .

للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد¹ ، وتعقّبهُ ابن الأثير بالقول إنَّ ذلك >> دليل على أنَّ السامع يملّ من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع وهذا قدح في الكلام لا وصف له ، لأنّه لو كان حسناً لما ملّ ... ، ولو سلّمنا للزمخشري ما ذهب إليه لكان إنّما يوجد ذلك في الكلام المطوّل ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك لأنّه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقلّ من ذلك >>² .

ورأى حازم أنه >> كلّما كان الكلام مقتصراً به على فنٍّ واحد من الإبداعات وإن كان حسناً في نفسه لم يحسن لأنّ ذلك مؤدّ إلى سامة النفس فإنّ شيمتها الضجر مما يتردد والولع بما يتجدد >>³ .

وقال ابن جنّي >> ليس ينبغي أن يقتصر في ذكره على الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب بما ألف أصحاب البلاغة أن يرددوه وهو قولهم إنّ فيه ضرباً من الاتّساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ ، وهذا ينبغي أن يقال إذا عرّيّ الموضوع من غرض متعمّد وسرّاً على مثله تتعدّد اليد >>⁴ ؛ ذلك أنّ تغيير مرجعية الضمير بإحلال المخاطب محلّ الغائب ، أو الغائب محلّ المخاطب ، أو نحو ذلك من شأنه أن تترتب عليه دلالات جديدة ؛ كتأنيس المخاطب أو

¹ - الزمخشري ؛ الكشف 12/1 ، وينظر الزركشي ؛ البرهان 361/3 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 5،4/2 .

³ - حازم القرطاجني ؛ منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ص 61 .

⁴ - ابن جنّي ؛ المحتسب ، 1386 ، 145/1 .

تحقيقه أو مواجهته ، أو التشهير به أو غير ذلك من معاني العدول التي يتولّى السياق الإبانة عنها .

ونظرا لكثرة الشواهد على هذه الحركة العدولية فإننا نجتزئ ببعض النماذج محاولين الوقوف على بعض ما فيها من إضافات دلالية .

قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿الفاتحة الآية 05﴾ ،

عدل السياق عن الغيبة إلى الخطاب لأنّ مفتتح السورة جاء على الغيبة في قوله تعالى "الحمد لله" ، حيث >> رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلويح لأنّ من أوّل السورة إلى ها هنا خبرا <<¹ ، وعلل ذلك ابن الأثير بأنّ >> العدول من الغيبة "الحمد لله" إلى الخطاب في قوله "إياك نعبد وإياك نستعين" لأنّ الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبدّه ، فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال "الحمد لله" ، ولم يقل "الحمد لك" ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال "إياك نعبد" ، فخاطب بالعبادة إصرارا بها وتقربا منه عزّ اسمه بالانتهاء إلى محدود منها ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال : "صراط الذين أنعمت عليهم" ، فأصرح بالخطاب لَمَّا ذكر النعمة ثمّ قال "غير المغضوب عليهم" عطفًا على الأوّل ، لأنّ الأوّل موضع التقرب من الله بذكر النعمة ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب فأسند النعمة إليه لفظًا وزوى لفظ الغضب تحننًا وتلطّفًا <<²

فيكون العدول قد أفاد أمرين ؛ الأوّل تقوية الدلالة المعجمية بالدلالة الصرفية لما في المواجهة بالخطاب من مظاهرٍ لاختصاص العبادة بالله ، والثاني لزوم

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 145/1 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر: 05/2 .

الأدب مع جناب الله تعالى لأنَّ الخطاب بالعبادة في معنى العهد والالتزام ، وذلك مع الحاضر المخاطب أقوى منه مع الغائب .

ورأى صاحب البحر المحيط أنَّ العدول إلى الخطاب >> توطئة للدعاء في قوله: "اهدنا">>¹ لأنَّ الدعاء يكون بفعل الأمر الذي لا يتوجه إلى الغائب بحال .

وقال الألوسي >> إنه لما كان الحمد لا يتفاوت غيبة وحضورا بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتم ، وكانت العبادة إنما يستحقها الحاضر الذي لا يغيب كما حكى سبحانه عن إبراهيم - عليه السلام - (فَلَمَّا أَفْلَقَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ) لا جرم عبَّر سبحانه وتعالى عن الحمد بطريق الغيبة وعنها بطريق الخطاب إعطاءً لكل منهما ما يليق من النسق المستطاب>>² .

ورأى فاضل السامرائي أنه >> لما وصف بأنه ربُّ العالمين عُلم بأنه حاضر في كلِّ مكان وزمان وليس غائبا ؛ ذلك لأنه ربُّ العالمين جميعا فلا يغيب عنهم ولا يغيبون عنه ، فلما عُلم حضوره نودي بندااء الحاضر المخاطب >>³ ، وهو أقوى من قوله: >> الكلام من أوَّل السورة إلا ههنا ثناء ، والثناء في الغيبة أولى ، ومن هنا إلى الآخر دعاء ؛ وهو في الحضور أولى >>⁴ .

والذي ينبغي التنويه إليه هو أنَّ استعمال لفظ الغائب مع الله - تعالى - ينبغي أن يلتزم فيه الأدب مع ذاته العليَّة لأنَّ ذلك ليس إلا من قبيل الصنعة الكلامية والقسمة المنطقية لأساليب الكلام ، وإلا فهو حاضر في كلِّ زمان ومكان ، ولذلك

¹ - أبو حيان ؛ البحر المحيط ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، 1328 هـ ، 24/1 .

² - الألوسي ؛ روح المعاني ، 89/1 .

³ - فاضل صالح السامرائي ؛ لمسات بيانية في نصوص التنزيل ، دار عمار للنشر ، عمان ، الأردن ، ط4 ، 1428 هـ - 2007م ، ص48 .

⁴ - نفسه : الصفحة نفسها .

فإنَّ البحث في دلالة العدول في مثل هذه الآيات ينبغي أن يتوجَّه إلى حال المتكلم الذي يجد في استعمال ضمير الخطاب تقريباً من الله تعالى وإِغَاءً للمسافة بينه وبين ربِّه ، لذلك فإنَّ الخطاب في : "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" هو تقرب من الله وتلطُّف معه استكمالاً لما في التركيب من نصٍّ على اختصاصه بالعبادة والاستعانة كما يفيد تقديم ضمير النصب، ذلك لتستوي العبارة دِقَّةً في الدلالة وكمالاً في الأدب.

وكما أنَّ العبد ينبغي أن يكون على تمام الأدب مع ربِّه فإنَّ خطاب الله لعباده المؤمنين كثيراً ما يتضمَّن ترفقاً بهم وعطفاً عليهم ؛ قال ابن جنِّي في قراءة الحس "يُرْجَعُونَ" من قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ البقرة الآية 281 >> إنه إنما

ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ مِنْهُم ... ﴾ يونس الآية 22 كأنه ، وهو أعلم ، إنما عدل عن الخطاب إلى

الغيبة فقال : "يُرْجَعُونَ" رفقا من الله سبحانه بصالحي عباده المطيعين لأمره فصار كأنه قال : "فاتقوا أنتم يا مطيعون يوماً يُعَذَّبُ فِيهِ الْعَاصُونَ" >>¹

وفي هذه الآية (يونس الآية 22) التي تكاد تكون علماً على الالتفات ، حتى أننا لا نكاد نجد كتاباً تكلم عن الالتفات إلا وهي في صلبه ، جعل صاحب الكشف ضمائر المخاطب والغائب كلها عائدة إلى المشركين >> فإن قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة قلت المبالغة كأنه يذكر لغيره حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتفويض >>².

¹ - ابن جنني ؛ المحتسب : 145/1 .

² - الزمخشري ؛ الكشف : 356/2 .

ورأى صاحب التحرير أنَّ الخطاب لجميع الناس ، والغيبة تخص المشركين فقال: >> لَمَّا كَانَتْ [العِبَارَةُ] بِصَدَدِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ جَاءَتْ بِضَمَائِرِ الْخَطَابِ الصَّالِحَةِ لِجَمِيعِ السَّامِعِينَ ، فَلَمَّا تَهَيَّأَتْ لِلانْتِقَالِ إِلَى ذِكْرِ الضَّرَاءِ وَقَعَ الْانْتِقَالُ مِنْ ضَمَائِرِ الْخَطَابِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ لِتَلْوِينِ الْأَسْلُوبِ بِمَا يَخْلُصُهُ إِلَى الْإِفْضَاءِ إِلَى مَا يَخْصُ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: "وَجَرَيْنَ بِهِمْ" عَلَى طَرِيقَةِ الْانْتِقَاتِ أَي: "وَجَرَيْنَ بِكُمْ"¹ .

ووافق النسفيُّ الزمخشري في اعتبار العدول إلى الغيبة طلباً للمبالغة² ، ولكنَّ كلاً منهما لم يبيِّن وجه اختصاص الغيبة بالمبالغة وكيف تكون المبالغة علَّةً في الحاليين ؛ أي في العدول عن الخطاب إلى الغيبة ، وفي العدول عن الغيبة إلى الخطاب .

وثمَّة من رأى >> أنهم حينما كانوا في الفلك كانوا في مقام الشهود والوجود فلما جرت بهم الرياح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب فلاءم هذا الحال طريق الغيبة <<³ ، ولكن هذا التعليل لا يتلاءم مع واو العطف الذي لا ينصُّ على التراخي وليس فيه دلالة على أنَّ الجري بركاب السفينة متأخراً كثيراً عن ركوبها بالقدر الذي يجعلهم غائبين عن مقام الخطاب ، والحقُّ أنَّ كلام الزمخشري المتقدم يمكن أن يُنتزع منه دليل آخر على المبالغة ؛ ذلك أنَّه لو أبقى الكلام على صيغة الخطاب لكان في النص طرفاً خطاباً فقط ، أمَّا عندما عدل به إلى الغائب فإنه صار في مقام الخطاب ثلاثة أطراف ؛ متكلِّم ، ومتكلَّم عنه (غائب) ، ومتكلَّم إليه (مخاطب) ، وفي ذلك قوة ظاهرة لأنَّ الخطاب بين اثنين يفتقر إلى شاهدٍ ،

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 135/5 ، 136 .

² - النسفي ؛ تفسير النسفي: 158/1 .

³ - محمد محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني - دار التضامن ، ط 2 ، 1980م ، ص 198 ، نقلاً عن صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 212 .

أمّا حديث المتكلم إلى المخاطب عن الغائب فإنه استشهاد له عليه بما يخيف المخاطب من نكث عهده ، ويشهرّ به إن هو فعل ، و يتضمن العدول كذلك حكاية حالهم لغيرهم من أجل اعتبار السامع بحال الغائب .

ومن شواهد العدول بين الضمائر قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا

﴿ ٨٨ ﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿ ٨٩ ﴾ مريم الآيتان 88 ، 89 ؛ حيث قال : "جِئْتُمْ"

(بالخطاب) بعد أن قال: "قالوا" ، وهو عدول >> حصل لفائدة حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه ، وتبئها لهم على عظم ما قالوه كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبّخًا لهم <<¹ ، والمقصودون بالخطاب في الآية هم أولئك الذين نسبوا الولد لله تعالى ؛ وهم النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله² ، وهي دعوى عظيمة وبهتانٌ كبير تستحق أن تظاهر فيها الدلالة المعجمية لـ : "الأد" - الذي >> هو أعظم الدواهي <<³ - الدلالة الصرفية في الخطاب الذي جاء >> لِقَصْدِ إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد <<⁴ ذلك أن في أسلوب الخطاب من القوة والمواجهة ما ليس في أسلوب الغائب وكلما كان المعنى أكثرَ جديةً كان الخطاب فيه أولى من الغيبة ؛ يُؤيّد ذلك أن المعنى في أسلوب الخطاب لا يُحمل على لغة الكلام وحدها ؛ وإنما تعضدُها لغة الإشارة والإيماء التي يُوفرها حضور المتلقي ، وربّ إشارةٍ أبلغ من عبارة .

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 7،6/2 ، وينظر : الكشاف 129/3 .

² - ينظر : النسفي : 46/2 ، والبغوي : 812 ، ، والتحرير والتنوير : 170/7 .

³ - البغوي : 812 ، والكشاف 128/3 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 170/7 .

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

﴿٩٣﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٤﴾ الأنبياء الآيات 92

و93 ، >> الأصل: " وَتَقَطَّعْتُمْ " إلاَّ أَنَّ الكلام حُرِفَ إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويُقبح عندهم فعلهم ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله <<1 ؛ ذلك أَنَّ >> المعنى : وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً وصاروا فرقاً وأحزاباً ، ثمَّ توعدهم بأنَّ هؤلاء الفرق المختلفة " كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ " <<2 ، >> فالالتفات هنا كانت له غاية معنوية هي تلطيف وقع الكلام على المخاطبين من المؤمنين <<3 .

فيكون في نقل الكلام من المخاطبين المؤمنين وهم : نبيُّ الله زكرياء وابنه يحيى - عليهما السلام - ، ومريم وابنها عيسى - عليهما السلام - 4 إلى الغائبين (الضمير في "تقطَّعوا") - وهم قطعاً غيرُ المخاطبين السابقين - معنى المقارنة بين الفريقين ؛ الفريق الأوَّل هم المؤمنون المذكورون ، والفريق الثاني هم الذين توفرت فيهم صفة (تقطَّعوا أمرهم بينهم) ، ومن الفريق الأخير المشركون الذين أنكروا رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولو جاء الكلام على الأصل بأسلوب الخطاب " تقطَّعتم " لكان فيه توهم أن يكون الفريق الأوَّل مشمولاً بالوصف ومقصوداً بالخطاب ، وفي ذلك تناقض بين آخر الكلام وأوله ، أمَّا إجراؤه على

1 - الزمخشري ؛ الكشاف: 205/3 .

2 - النسفي ؛ تفسير النسفي: 88/2 .

3 - أحمد محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقدي والبلاغي: ص 179 .

4 - لأنَّ قبلها قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ﴿٩١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٢﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٣﴾

أسلوب الغيبة فإنه يُذهب هذا اللبس ، ويُقدّم حال الفريق الثاني حكايةً ومزيد اعتبار للفريق الأول ولغيره ممّن يطلب الهداية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس الآية 22 ؛ إذ يقضي تركيب الكلام أن يقول : " وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ أُرْجَعُ " ، أو يقول : " وَمَالَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " حتى يتطابق آخرُ الكلام مع أوّله لكنه قال: ¹ "فَطَرَنِي" و" تُرْجَعُونَ " ، ومن ثمّ فإننا نبحت الدالّتين: لماذا لم يقل : "فَطَرَكُمْ" ؟ ، ولماذا لم يقل : " أُرْجَعُ" ؟

قال الزمخشري: >> لقد وضع قوله: " وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي " مكان قوله: " وَمَالَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ " ، ألا ترى إلى قوله: " وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " ، ولولا أنه قصد ذلك لقال: "الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ أُرْجَعُ" ... لأنّ العبارة لا تصحّ إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم <<² .

فالمكان إذن لـ: " وَمَالَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ " ولكنه أحلّ محله " وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي " ؛ ذلك أنه >> أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه <<³ يؤيد هذه الفكرة ما استخلصه الطاهر بن عاشور من قول الرجل المتقدم: "يا قوم" لأنّ >> افتتاح خطابه إياهم بندايم بوصف

¹ - هو الرجل الذي قال فيه الله تعالى قبيل الآية: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ

اتَّبِعُوا أَمْرًا سَلِيمًا... ﴾ وهو حبيب بن أوس النجار ، كما جاء في الكشف: 647/3 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

³ - نفسه : الصفحة نفسها .

القومية له قصد أن في كلامه الإيماء إلى أن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه <<¹ .

وإذن فإنه لم يقل "فَطَرَكُمْ" على الرغم من أنه يقصدها تلطفاً بالمخاطبين ورغبة في استجابتهم ، وحرصاً على حياة الرسل الثلاثة وكأنه يقدم المثل بنفسه ويدعو قومه إلى أن يحتذوا حذوه في عبادة الله الذي لو كانت عبادته ضلالاً لما ارتضاها لنفسه .

أما قوله : "تُرْجَعُونَ" بدل "أُرْجَعُ" أو "تُرْجَعُ" فلأنه يحذرهم من هذا الرجوع الذي لا خوف عليه منه - لعبادته الله - ، والخوف كلُّ الخوف عليهم لشركهم ، فتوجب إذن النصُّ على رجوعهم ، >> وفي الرجوع معنى الزجر وكان بهم أليق <<² ، فيجتمع في خطابه التلطف وإعطاء القدوة بنفسه في: "قَطَرَنِي" ، والزجر والتخويف عند الاقتضاء في: "تُرْجَعُونَ" ، >> كأنه يقول: " ومالي لا أعبد" ، "ومالكم لا تعبدون" الذي فطركم بقرينة قوله "إليه ترجعون" ، إذ جعل الإسناد إلى ضميرهم تقوية لمعنى التعريض ، وإنما ابتدأه بإسناد الخبر إلى نفسه لإبرازه في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، فيُسمعهم الحقَّ على وجه لا يثير غضبهم ويكون أعون على قبولهم إيَّاه حين يرون أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه <<³ .

وفي هذه الآية تمثيل لمعنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل الآية 125

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 366/9 .

² - البغوي ؛ تفسير البغوي: 1078 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 368/9 ،، وينظر: ابن الأثير ؛ المثل السائر: 8/2 و صالح

ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: 213 .

؛ لأنَّ غاية الدعوة التلطف مع المخاطب واستمالته إلى قبول الخطاب ورسالة الداعي توجب عليه استجماع كل الأدوات العقلية و اللغوية القمينة بالإقناع والقبول.

4 - العدول بين المشتقات

ومن صور العدول في الأسماء العدول بين المشتقات ؛ كإحلال اسم الفاعل محل اسم المفعول ، أو اسم المفعول محل اسم الفاعل ، أو الصفة المشبهة محل أحدهما ، وكالاستعاضة بالمصدر عن واحد من المشتقات ، أو حلول واحد منها محلّه ، أو نحو ذلك ممّا سنذكر.

وليس يقع شيء من هذا إلاّ ويترتب عليه تغير في المعنى ؛ ذلك أنّ >> الدراسات السياقية ترفض أن يكون هناك تغير في نظم الكلام تُستبدل معه كلمة بأخرى لا يتبعه تغيير في المقاصد والأغراض <<¹ ؛ قال ابن جني >> اعلم أنه ليس شيء يخرج من بابه إلى غيره إلاّ لأمرٍ كان وهو على بابه ملاحظاً له <<².

ومن أمثلة هذا النوع العدول عن اسم الفاعل إلى المصدر في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُرُ طَلَبًا﴾ ﴿الكهف الآية 41 ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ ﴿الملك الآية 30 ؛ قال القرطبي معناه >> قل أرايتم يا معشر قريش إن أصبح مأوكم غوراً أي

¹ - محمد أمين الخضري ؛ من أسرار حروف الجرّ في الذكر الحكيم ، ص 13 .

² - ابن جني ؛ الخصائص: 112/1 .

غائرا ذاهبا في الأرض لا تتاله الدلاء ، وكان مأوهم من بئرين ؛ بئر زمزم وبئر ميمون ، ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ أي جار << 1 .

و << الإخبار به [الغور] عن الماء من باب الوصف بالمصدر للمبالغة مثل عدل ورضى << 2 ، و << الغور مصدر بمعنى غائر ، وهو أبلغ منه << 3 .

وتكاد كلمة المفسرين تجتمع على أن العدول إلى المصدر في هذه الآية ومثيلاتها غاية المبالغة لأن المصدر هو أصل المعنى وجرثومتة ، وعنه تتشقق سائر المشتقات ومن ثم فإن الوصف به هو وصف بكل ما يُشتق منه ؛ << فإذا قيل "زيد عدل" فإن ذلك يحتمل وصفه بأنه عادل ومعدل وذو عدل ... وإذا قيل زيد رضى فإن المقصود بذلك أنه راضٍ ، مرضيٌّ عنه ، رضىٌّ، ذو رضى ، ونحو ذلك << 4 .

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ يونس الآية 05 ؛ حيث لم يقل: "مضيئة" أو "منيرا" مبالغة في الإضاءة والإنارة ، وقوله: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ۗ إِنَّ اللَّهَ

1 - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 222/18 .

2 - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 156/12 ، وينظر: الطبري ؛ تفسير الطبري: 294/15 .

3 - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير: 85/3 ، وينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 222/18 .

4 - أحمد عبد الستار الجوارى ؛ الوصف بالمصدر: ص 14 نقلا عن: محروس محمد محروس؛ البنية

الصرفية وأثرها في تغيير الدلالة ، ص 91 .

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ التوبة الآية 28 ؛ حيث جعل المشركين ذات النجاسة لأنه
>> إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل
وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه <<¹ ، وتعاطي المشركين النجاسة واعتيادهم
إيَّاهَا أظهر من أن يستدلَّ عليه .

ومن أمثله العدول عن اسم المفعول إلى اسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا
عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ هود الآية 43 ؛ قال ابن رشيق: >> من
غرائب هذا الباب أن يأتي بالمفعول بلفظ الفاعل كقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ أي : لا معصوم وكذلك ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾
أي : مَدْفُوقٍ و ﴿ عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أي : مَرْضِيَّةٍ ، و ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً
﴿ أَي : مُبْصِرٌ فِيهَا <<² ، قيل >> إنَّ عاصم بمعنى معصوم كما يقال : طاعمٌ
وكاسٍ بمعنى مطعومٍ ومكسوٌّ <<³

وفي إحلال اسم الفاعل محل اسم المفعول قوة في الدلالة لما في اسم الفاعل
من دلالة على إحداث الحدث والقيام به لأنَّ >> التعبير عن اسم المفعول بلفظ اسم
الفاعل يعطي اللفظ قوة معنوية لكون اسم الفاعل هو صاحب الأثر ومحدث الفعل
<<⁴ ، وتأمل الآية يؤيد توجه المعنى إلى اسم المفعول لسببين :

¹ - ابن جني ؛ الخصائص: 259/3 .

² - ابن رشيق ؛ العمدة: 279/2 .

³ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير 447/2 ، ، وينظر: تفسير الطبري: 46/12 ، والقرطبي 39/9 .

⁴ - مقبل عايد السالم ؛ العدول عن الأصول في الصرف العربي ، ص 06 .

الأول: كون الفعل "عَصَمَ" متعديًا ؛ بمعنى أنه حيث "لا عاصم" فإنه حتمًا لا معصوم لأنَّ لكلِّ معصوم عاصم وبالتالي فإنَّ غياب العاصم يستوجب غياب المعصوم .

الثاني : دلالة الاستثناء "إلا من رحم" ؛ ذلك أنَّ المستثنى "مَنْ رَحِمَ" هو معصوم لأنَّ الرحمة هنا معناها العصمة من الطوفان ، والمستثنى جزء من المستثنى منه "عاصم" ، فيتبين عندئذ أنَّ الذي جزؤه معصوم لابدَّ أن يكون كله معصوما كذلك .

والعدول عن اسم الفاعل إلى اسم المفعول كقوله تعالى : ﴿ جَبَّتْ عَدَنُ آلَّتِي

وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ ﴿ مريم الآية 61 ؛

حيث >> خرج الخبر على أنَّ الوعد هو المأتي ومعناه أنه هو الذي يأتي ولم يقل وكان وعده آتيا لأنَّ كلَّ ما أتاك فأنت تأتبه .. ألا ترى أنك تقول أَتَيْتُ على خمسين سنة ، وَأَتَتْ عليَّ خمسون سنة وكلُّ ذلك صواب>>¹ .

وعن اسم المفعول إلى المصدر في الآية نفسها لأنَّ >> وعده في هذا الموضوع موعودُهُ ، وهو الجنة >>² وفيه يتجلَّى تكثيف الدلالة في تجاوز محدودية المعنى في بناء اسم المفعول إلى خصوبة الدلالة في المصدر "وَعَدَّ" لتضمنه معنى كلِّ المادة : و.ع.د و>> كأنَّ العدول عن البنية الأصلية إنباء عن إرادة اعتبار معيَّن يخرج عن محض الإعلام والإخبار >>³ الذي يفيد ظاهر العبارة إلى ما يستبطنه نصُّها من كلِّ معنى يعرض لخاطر المخاطب ، بما يعني أنَّ العدول إلى المصدر فتحٌ للنص على كلِّ الدلالات الممكنة من المادة المعجمية .

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري: 101/16 ، وينظر: ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 130/3 .

² - الطبري؛ تفسير الطبري: 101/16 .

³ - صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، ص: 100 .

ومن أمثلة العدول في المشتقات العدول عن اسم المفعول إلى الصفة المشبهة كما في قوله تعالى : ﴿ ... كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ الطور الآية 21 ؛ لأنَّ "رَهِينٌ" بمعنى مرهون يؤخذ بالشرِّ ويُجازى بالخير¹ ، والمعنى >> كلُّ نفس بما كسبت وعملت من خيرٍ وشرٍّ مرتبهة ، لا يؤخذ أحد منهم بذنب غيره وإنما يعاقب بذنب نفسه <<² ، لأنَّ "فعليل" التي هي إحدى صيغ الصفة المشبهة كثيرا ما تدلُّ على معنى اسم المفعول ، وذلك حينما يُطلب ما في معنى الصفة المشبهة من دلالة على الثبات كما الحال هنا .

والعدول عن الصفة المشبهة إلى المصدر في قراءة الفتح في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، تَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام الآية 125 ؛ حيث تفيد قراءة الكسر في "حرجا" وصف قلب الكافر بالضيق³ على سبيل الصفة المشبهة التي من دلالاتها ثبوت الصفة في موصوفها وعدم انفكاكها منه ، وفي قراءة الفتح "حرجا" عدول عن الصفة المشبهة إلى المصدر ، وفيه مبالغة في إثبات المعنى حيث عدل عن وصف قلب الكافر بأنه ضيقٌ حرجٌ إلى جعله الضيق والحرج نفسيهما⁴ .

و>> الحرج في اللغة هو الشجرة العظيمة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا ماشية <<⁵ ، فيكون وصف قلب الكافر بها على سبيل الاستعارة التصريحية ، والصدرُ الحرجُ هو >> الذي لا يتسع لشيءٍ من الهدى و لا يُخلص

¹ - ينظر تفسير الجلالين: 698/1 .

² - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 243/4 ، وينظر : تفسير القرطبي : 86/19 .

³ - ينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 81/7 .

⁴ - ينظر: الرازي ؛ مفاتيح الغيب 564/6 .

⁵ - ابن منظور ؛ اللسان: ح.ر.ج.

إليه بشيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ إليه»¹ ، قال في "الجلالين" :
 << حرجاً شديداً الضيق بكسر الراء صفة وفتحها مصدر وُصف به للمبالغة >>²
 لذلك فإنَّ في قراءة الفتح عدولاً إلى المصدر استزادةً لثبوت صفة الضيق
 والتصاقها بقلب الكافر حتى لكأنه هو نفسه مصدرٌ للضيق ينشره على صاحبه
 ويُغرقه فيه إلى الحدِّ الذي لا أمل بعده في هدايته ، وانطلاقاً من أنَّ التعبير
 بالمصدر شمول للجنس فإنَّ الوصف بالمصدر استغراق لكل أنواعه ، أي أنَّ قلب
 الكافر حرجٌ كلَّ الحرج بحيث لا يوجد نوع من أنواع الحرج إلاَّ وهو متصف به
 وهو ما لا تفيده الصفة في قراءة الكسر .

والعدول بين صيغ المبالغة ؛ كالعدول عن "فَعِيل" إلى "فُعَالٌ" في قوله تعالى :
 ﴿ أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ﴿ ص الآية 05 ؛
 حيث عدل عن صيغة "فَعِيل" المُطَّرِدَة إلى صيغة عُجَاب طلباً للمبالغة ، والمعنى
 أنه >> بليغ العجب ، وقُرئ "عجَاب" كقوله "كَبَّار" وهو أبلغ من المخفَّف ، ونظيره
 كريم وكُرَام وكُرَامٌ >>³ ، أي >> كيف يسع الخلق كلَّهم إلهٌ واحد ، إنَّ هذا الشيء
 عجيب أي عجيب >>⁴

وقرأ تمام حسان في هذا العدول دلالة أخرى مؤدَّاها أنَّ >> صيغة "فعال" من
 صيغ الأدواء مثل الصداع والزحار ، فلربما أراد القائلون بأنَّ ما جاء به النبي
 (ص) من الأمر بالتوحيد كان مكروهاً عند المشركين كراهية الداء >>⁵

¹ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير: 176/2 .

² - الجلالين ؛ تفسير الجلالين: 184/1 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف: 4/4 ، وينظر القرطبي ؛ تفسير القرطبي 149/15 .

⁴ - الجلالين ؛ تفسير الجلالين 598/1 ،، وينظر القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 149/15 .

⁵ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، 433/1 .

وهو معنى لطيفٌ تنبّه إليه الدكتور يعضده أطراد صيغة "فُعال" في الدلالة على الأمراض ، وليس في ظاهر النصّ ما ينفي هذا الاحتمال بل إنّ الدعوة إلى التوحيد أشدُّ على المشركين من كلّ داء .

المبحث الثاني : العدول الفعلي

كنا قد حددنا في بداية الدراسة أننا سنقصر البحث على العدول في زمن الفعل لما لأهمية للزمن في صيغة الفعل بينها في مكانها¹ ، ولأن الزمن لا يعدو أن يكون ماضيا ، أو حاضرا ، أو مستقبلا ، وحيث إن الماضي يُعبر عنه بصيغة الماضي (فَعَلَ) ، والحاضر والمستقبل يُعبر عنهما بصيغة المضارع (يَفْعَلُ) ، والمستقبل تختص به صيغة الطلب (اِفْعَلْ) فإن صور العدول هي: العدول عن الماضي إلى المستقبل ، أو العدول عن المستقبل إلى الماضي ، أو العدول عن المضارع إلى الأمر ، أو عن الأمر إلى المضارع² وهي المطالب الأربعة التي نتناولها في هذا البحث :

1- العدول عن الماضي إلى المستقبل :

>> الفعل الماضي هو أصل التعبير فيما وقع في الزمان الماضي سواء انتهى وقوعه ، أو استمرَّ استمرار وجود .. فإذا عبّر عن هذا النوع من الأحداث الماضية أو الماضي بعضها بالفعل المضارع كان ذلك مخالفا لمقتضى الظاهر وحينئذ تطلب الفائدة البلاغية من وراء هذه المخالفة <<³ .

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ الحج الآية 25 ؛ حيث جاء بالفعل "يَصُدُّونَ" مضارعا بعد ذكر الكفر بصيغة الماضي >> وإنما عطف

¹ - هذا البحث : ص 69 .

² - لم نخصَّ العدول بين صيغتي الماضي والأمر بالذكر لأنَّ هذا النوع متضمَّن في العدول عن الماضي إلى المستقبل أو العدول عن المستقبل إلى الماضي لأنَّ زمن الأمر هو المستقبل دائما .

³ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم - دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1 ، 1429 هـ ، 2008 م ، ص 57 .

المستقبل على الماضي لأنَّ كفرهم كان وَوُجِدَ ولم يَسْتَجِدُّوا بعده كفرا ثانيا ،
وَصَدُّهُمْ متجدد على الأيام لم يمضِ كونه وإنما هو مستمر يُسْتَأْنَفُ في كلِّ
حين»¹ .

ورأى الإمام البغويُّ أنه >> عطف المستقبل على الماضي لأنَّ المراد من لفظ
المستقبل الماضي كما قال في آية أخرى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ... ﴾ النساء الآية 17 >>² ، وهو كلام يلتقي مع تفسير القرطبي "الصدَّ" في
هذه الآية بصدِّ مشركي قريش الرسول - صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن
المسجد الحرام عام الحديبية³ ، لكنَّ الأوجه هو أنَّ المقصود بـ "الصدَّ" هو عموم
الصدِّ ، وهو الموصوف بالتجدُّد بدليل أنَّ المفعول الأوَّل للفعل "يصدُّون" هو "سبيل
الله" ، أمَّا "المسجد الحرام" فإنه تالٍ له و>> الصدُّ عن المسجد الحرام ممَّا شمله
الصد عن سبيل الله فخصَّ بالذكر للاهتمام به ولينقل منه إلى التنويه بالمسجد
الحرام >>⁴ .

وقد استدرك البغوي قائلًا : >> وقيل معناه أنَّ الذين كفروا فيما تقدم ، ويصدون
عن سبيل الله في الحال أي : " وهم يصدُّون " >>⁵ .

وكذلك فعَلَ القرطبي عندما قال بعد كلامه المتقدم >> ... وهو فعَلَ يديمونه كما
جاء قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ ﴾ فكأنه قال : إنَّ

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر 15/2 .

² - تفسير البغوي : 863 .

³ - ينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 210/7 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 236/7 .

⁵ - البغوي ؛ تفسير البغوي: 863 .

الذين كفروا من شأنهم الصدّ >>¹ ، وبمثل ذلك فسّر الزمخشري فقال >>﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي الصدود منهم دائم ومستمر >>² ، وقال في التحرير: >> جاء "يصدون" بصيغة المضارع للدلالة على تكرار ذلك منهم وأنه دأبهم سواء فيه أهل مكة وغيرهم لأنّ البقية ظاهروهم على ذلك الصدّ ووافقهم >>³ .

ووقوف المفسرين مطوّلاً عند هذه الآية يُستفاد منه أولاً الاستدلال على وجود العدول في زمن الفعل ، وثانياً أنّ العدول عن الماضي إلى المضارع أفاد معنى التكرار والتجدد في فعل الصدّ وذلك يستوجب أنّ الجزاء الذي تضمنه عَجَزَ الآية ﴿نُذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ليس مقصوراً على من صد المسلمين عن المسجد الحرام عام الحديبية ، بل يمتدُّ إلى كلِّ نوع من أنواع الصدّ عن سبيل الله ، وكلِّ صادّ عن سبيل الله على عهد رسول الله (ص) وبعده .

كما أنّ التزام الأصل في زمن الفعل "كَفَرُوا" يحمل معنى الوصف >> لأنّ ذلك الفعل صار كاللقب لهم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ >>⁴ ويستفاد منه أنّ الكفر المقصود هو كفر العقيدة لا كفر النعمة لأنّ كفر النعم من شأنه التجدد بتجدد النعم ، كما أنه في الترتيب تالٍ لكفر العقيدة لأنّ العقيدة الأصل فيها الثبات كما يستفاد من مادة لفظها ، حتى أنّ تبديلها سواء في الجاهلية أو الإسلام يُعدُّ سخيمة تزري بصاحبها ، وما أكثر ما قال المشركون: "صبأ فلان" تعجباً من تبديل العقيدة ، أمّا في الإسلام فإنّ الردّة حدّها القتل بعد الاستنابة.

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي 210/7 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف: 219/3 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 236/7 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 236/7 .

وقوله في السورة نفسها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ^١ الحج الآية 63 .

قال الزمخشري >> فإن قلت هلا قيل "أصبحت"؟ ولم صرف إلى لفظ
المضارع؟ قلت لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول:
أنعم عليّ فلان عام كذا " فأروح وأغدو شاكرًا له "، ولو قلت : "فرحت وغدوت"
لم يقع ذلك الموقع <<¹ .

وقال ابن الأثير >> ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا إلى المستقبل
فقال : " فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً " ، ولم يقل: " فأصبحت " عطفًا على "أنزل " <<² ،
وكرر عبارة الزمخشري بنصّها ، وأعاد المثال نفسه وكأنه نقلها ولم يشر
إلى ذلك لأنّ التطابق بين العبارتين تامّ ، والزمخشري (ت 538هـ) متقدم على
ابن الأثير (ت 637 هـ) بنحو قرن من الزمن .

ولم يبتعد صاحب التحرير عمّا قاله الزمخشري وابن الأثير حين قال: >>حوإنما
عبّر عن مصير الأرض خضراء بصيغة " تُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً " مع أنّ ذلك
مُفْرَعٌ عن فعل " أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً " الذي هو بصيغة الماضي لأنه قَصَدَ من
المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة وإفادة بقاء أثر إنزال المطر
زمانا بعد زمان كما تقول : أنعم فلان عليّ فأروح وأغدو شاكرًا له <<³ .

فيكون في العدول إلى المضارع دلالتان ؛ الأولى الإشارة إلى بقاء أثر إنزال
المطر ، وأنه لم ينقطع كما انقطع فعل الإنزال ؛ ذلك أنّ إنزال المطر يكون ثم

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف: 235/3 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر: 15/2 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والنوير 318/7 .

ينقطع أمّا الأثر الذي هو اخضرار الأرض فإنه يدوم مُدداً طويلة بعد نزول المطر ، والثانية هي استحضار حصول هذه الصورة أي صورة الاخضرار ؛ ذلك أنّ التعبير عنها بالمضارع يجعلها كأنّها ماثلة في الحال أمام مرأى العين لأنّ >> الاستحضار الذي يصنعه المضارع يجعل الكلام في تفاصيل الصورة التي يحضرها كلاماً في أمر مشاهد للعيان<<¹ .

وأرى في استعمال المضارع هنا فائدة أخرى هي الإشارة إلى ما بين وقت إنزال المطر ووقت الإنبات ذلك أنّ الإنبات ومن ثمّ الاخضرار لا يكون تَوّاً بعد الإنزال وهو ما كان سيفهم لو أنّ الفعل جاء بصيغة الماضي .

وفي قوله عزّ ذكره حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

القصص الآية 15 ؛ حيث قال "يَقْتَتِلَانِ" ، وهو مضارع بالنسبة للحظة التي وجد فيها موسى - عليه السلام - الرجلين المقتتلين ، أمّا بالنسبة للذي يتلو الآية فإنّ فعل الاقتتال موغل في الماضي ، وقد >> ساعد الاستحضار في قوله "يَقْتَتِلَانِ" في جعل أطراف الصورة المستحضرة حاضرين فأشيرَ إلى الرجلين الغائبين باسم

¹ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم - دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل -

الإشارة "هذا" وهو ما يشار به إلى الحاضر نظراً لما أحدثه المضارع من نقل للحدث حياً أمام الراي >>¹ .

قال ابن جنّي >> أشار سبحانه إليهما إشارة الحاضر لأنه لما كان حكايةً صارت كأنها حاضرة فقيل : هذا وهذا ، لولا ذلك ل قيل : أحدهما كذا والآخر كذا >>² .

وثمة دلالة أخرى ينبغي التتويه إليها وهي أنّ التعبير بالمضارع واستحضار الصورة يجعل المتلقي يتفاعل مع الحدث حيث أمامه اقتتالٌ بين رجلين يوشك أحدهما أن يقضي على الآخر - كما يشير إلى ذلك فعل الاستغاثة (فاستغاثه) - وهو مشهد يفرض على المتلقي اتخاذ موقف ممّا يجري أمامه ، وأن يتخندق مع أحد الرجلين فيأتي قوله تعالى: ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ ليشفي غليل المتلقي ويخفف من انفعاله لأنّ موسى عليه السلام قام بما كان المتلقي يهّم بالقيام به لو أنه كان حاضراً ، ولا يزيد الماضي "اقتتلا" على أن يكون سرداً لحدث الاقتتال .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ﴾ البقرة الآية 102 ؛ حيث >> وقع المضارع " تَتْلُوا " دالاً على المضيّ لأنّ تلك الأحداث وقعت في عهد سليمان عليه السلام وهو عهد قد مضى وانقضى >>³ و >> كان مقتضى الظاهر: " ما تَلَّتْ " مثل قوله: " وَاتَّبَعُوا " >>⁴ .

¹ - السابق: ص 175 .

² - ابن جنّي ؛ المحتسب ، تح محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1419 هـ ، 386/2 .

³ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن: 171 .

⁴ - عصام الدين اسماعيل بن محمد الحنفي ؛ حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ، تح عبد الله محمود عمر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1422 هـ ، 76/4 .

وجيء بالفعل المضارع لاستحضار شناعة تلك الصورة ؛ صورة السحر الذي وَصَفَتِ الآيَةُ مِنْ قَامَ بِهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ وهو كَفَرٌ بِحَقِّ لَأَنَّ >> من تعلمه منهم وعمل به كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغررَّ به كان مؤمنا >>¹ وحيث إنَّ استحضار الصورة بالمضارع >> إنما يكون في أمور لها شأن وغرابة ؛ إمَّا في جهات الكمال والنباهة ، وإمَّا في جهات النقصان والفضاعة >>² فإنَّ الإتيان بالمضارع بدل الماضي أفاد اجتلاب هذه الصورة من الماضي السحيق ووضعها موضع الحاضر المشاهد من أجل الوقوف على عظيم ما فعل هؤلاء الشياطين - أناسا كانوا أم جناً -³ من افتراءهم على نبي الله سليمان وادّعاءهم أنه >> ما تمَّ لسليمان مُلْكُهُ إِلَّا بِهَذَا الْعِلْمِ >>⁴ .

وفي النصِّ على هذا العدول قال الإمام البغوي >> "ما تتلو الشياطين " أي : "ما تَلَّتْ" ، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي والماضي موضع المستقبل >>⁵ .

وفي قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هود الآية 38 ؛ لأنَّ المضارع هنا حكاية حال

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف 1/159 .

² - ابن الرومي الحنفي ؛ حاشية ابن التمجيد ، ط1 ، 1422 هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 4/13 .

³ - ينظر: الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 1/627 .

⁴ - الزمخشري ؛ الكشاف 1/158 ، وينظر البغوي: 52 .

⁵ - البغوي ؛ تفسير البغوي 52 .

ماضية¹ ، و>> مقتضى الظاهر أن يقال "وَصَنَّعَ الْفَلَكَ" على صيغة المضي ، لكن عدل عن الظاهر إلى صيغة المستقبل استحضارا للصورة الماضية <<² ، و >> إنما عبّر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة لتخيّل السامع أن نوحاً - عليه السلام - بصدد العمل <<³ ، وفعلاً فإنّ الذي يقرأ الآية يمكنه أن يربط بين التعبير بالمضارع "يصنع" ، وقوله "كلّما مرّ عليه ..." التي تفيد تجدد المرور ملاً بعد ملاً ، ومرّة بعد مرّة ، ليؤلّف بين شطري المشهد ؛ نوحٌ يصنع الفلك في فلاة بهماء⁴ ، وأفواجٌ من الناس تمرُّ عليه ؛ الفوج بعد الفوج ، وما من واحد إلاّ ويُبدي شديد العجب ممّا يرى ؛ إذ كيف يتحوّل النبي إلى نجار ، وأيُّ فائدة للسفينة في مكان لا ماء فيه فيجيبهم عليه السلام بقوله: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ .

فيكون العدول إلى المضارع قد أحضر المشهد وبعث فيه الحياة كما لو كان ماثلاً للعيان لأنّ >> المضارع يختصُّ بقدرته على استحضار الحدث الماضي ، ولا يكون هذا إلاّ لأجل مزيد من العناية بذلك الحدث ، فيجتلب المضارع بصيغته الحدث من عمق الزمن الماضي لتشخيصه وبعثه مرّة أخرى <<⁵ .

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا بَلَّغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْخُوكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ أْفَعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ

¹ - ينظر: النسفي ؛ تفسير النسفي: 187/1 ، والكشاف 401/2 .

² - ابن الرومي الحنفي ؛ حاشية ابن التمجيد: 76/10 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والنوير 67/5 .

⁴ - ينظر: الزمخشري ؛ الكشاف 401/2 .

⁵ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم ، ص 170 .

الصَّابِرِينَ ﴿١٢﴾ الصافات الآية 102 ؛ حيث قال: "أَرَى" ؛ و>> إنما لم يقل: "رَأَيْتُ" لأنه رأى مرّة بعد مرّة ؛ فقد قيل : رأى يوم التروية كأنّ قائلاً يقول إنّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلمّا أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح ؛ أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ ، فمن ثمّ سُمِّيَ يومَ التروية ، فلمّا أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنّه من الله فسُمي يومَ عرفة ، ثمّ مثل ذلك في الليلة الثالثة ، فهمّ بنحره فسُمي اليومُ يومَ النحر<<¹ ، ولكنّ تعليل العدول إلى المضارع بتعدد الرؤيا فيه نظر لأنّ تعدده لا يخرجها من حيز الماضي ، أمّا الإتيان بالمضارع فلعله - والله أعلم - يعكس اضطراب نفسية الخليل عليه السلام الذي لا ينفي امتثاله لأمر الله أنّه انزعج شديد الانزعاج من هذه الرؤيا ، وأنّ التعبير بصيغة المضارع يعني أنّ طيف الرؤيا بقي ملازماً لناظره حتى ساعة مواجهة ابنه بها ، أي أنّه في حالة رؤيا دائمة والأمرُ الإلهيُّ ماثل أمامه لأنه وحيٌّ كالوحي الصريح ، ويستفاد منه أنّ إبراهيم عليه السلام وكأنه يعتذر من ابنه بأنه لا قبل له بردّ هذا المكروه² ، فما كان من الابن الصالح إلاّ أن أجابه ﴿ أَفَعَلَّ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴾ ، وفي كلامه تناغم مع كلام أبيه حيث أجابه بصيغة المضارع "تُؤْمَرُ" إحساساً بما يشعر به أبوه من استحضار الرؤيا .

وفي قوله جلّ شأنه: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿٩﴾ فاطر الآية 09 ؛ حيث جاء بالفعل "تُثِيرُ" مضارعاً بعد الفعل الماضي "أَرْسَلَ" ، قال ابن عاشور :

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي 25/2 ، وينظر: البغوي: 1093 ، والكشاف 687/3 .

² - ينظر عبد الحلیم حنفي ؛ أسلوب المحاورَة في القرآن الكريم ، ص 164 .

>> وأما تغييره إلى المضارع في قوله: "فَنَثِيرُ سَحَابًا" فلحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وهي طريقةً للبلغاء في الفعل الذي في خصوصيته بحال تستغرب وتهم السامع وهو نظير قول تأبّط شرّاً :

بَأْنِي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَّحَانَ
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَاللِّجْرَانِ

فابتدأ بـ "لَقَيْتُ" لإفادة وقوع ذلك ، ثم تثنى بـ "أضربها" لاستحضار تلك الصورة العجيبة من إقدامه وثباته حتى كأنهم يبصرونه في تلك الحالة <<¹.

وقال النسفي : >> إنما قيل "فَنَثِيرُ" لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوع تميّز وخصوصية بحال تستغرب ، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها <<² .

فيكون العدول إلى المضارع في الآية قد أفاد حكاية الحال العجيبة المتمثلة في إثارة السحاب بالرياح وإحضارها إلى مرآة العين ؛ عين كل من يتلو الآية وكأنه يشاهد قطع السحاب وهي تتجمع بفعل الرياح ثم تُوجّه إلى جهة بعينها (البلد الميت) ؛ وهو مشهد مألوف يعرفه سكان الأرياف والبوادي الذين يرصدون حركة السحاب ويترقّبونها لارتباطها بالمطر مصدر حياتهم وحياة مواشيهم .

كما أنّ في التعبير بالمضارع "نثير" بعد الماضي "أرسل" إشارة إلى ما بين فعل الإرسال وحدث الإثارة تشير إليه دلالة التعقيب في حرف الفاء ، ونجد فيه دلالة أخرى يمكن انتزاعها من مقارنته بباقي الأفعال في الآية حيث نجد فيها ثلاثة

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 268/9 .

² - النسفي ؛ تفسير النسفي 334/2 ، 335 .

أفعال فاعلها هو الله تعالى كلها ماضية وهي: (أَرْسَلَ ، سُقْنَاهُ ، أَحْيَيْنَا) ، وفعلا واحدا منسوبا إلى الرياح هو "تثير" ، والتعبير بالماضي من معانيه التحقق والنفاز ؛ أي أن هذه الأفعال في حكم المفروغ منه ، أمّا المضارع فإنه لم يقع بعد ، ويمكن أن لا يقع أصلا لأنّ فاعله -هنا- لا يملك القدرة المطلقة كفاعل الأفعال السابقة.

وعموما فإنّ هذا النوع (العدول عن الماضي إلى المستقبل) حفلت به آي القرآن على صفة لا يمكن حصرها ، ويمكن أن يشار إلى أهمّ المقامات التي وقع فيها وتحديدها في :

- الإخبار عن الرسل وأمّهم الماضية ،
- الاستدلال بالآيات الكونية ،
- الحديث عن الجهاد ،
- الحديث عن صور الغيب ،
- الإخبار عن أحوال المؤمنين¹

2- العدول عن المستقبل إلى الماضي

الحقيقة أنّ التعبير عن الأحداث المستقبلية بالفعل الماضي لا يبعد كثيرا عن التعبير عن الأحداث الماضية بالفعل المضارع من جهة أنّ المضارع ينقلها من الماضي البعيد إلى اللحظة الحاضرة لحظة الخطاب ، والماضي ينقل الحدث المستقبلي من كونه محتمل الوقوع إلى كونه واقعا مفروغا منه ، فيؤدي العدول في الحالين وظيفة أشبه ما تكون بالصورة البيانية التي تقرّب الفكرة وتجعلها سائغة عند المتلقي ، كما أنّ العدول في زمن الفعل يحفز المتلقي إلى الانتباه

¹ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم : 171 .

واستجماع قوى التلقي كي تجد الفكرة مكانها في الذهن ؛ وبخاصة لما كان العدول أكثر ما يكون في الأحداث الموعلة في الغرابة ، أي التي لا يصدقها المتلقي بسهولة ، و >> الفعل الماضي إذا أخبر به عن المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ و أكد في تحقيق الفعل وإيجاده لأنَّ الفعل الماضي يُعطي من المعنى أنه قد كان ووُجد ، وإنما يُفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودها <<¹ ، ومن الأشياء التي يُستعظم وجودها أحداث يوم القيامة التي يكاد يطرد الحديث عنها بصيغة الماضي .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ

فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ النمل الآية 87 ؛ حيث

>> جيء بصيغة الماضي في قوله: "فَفَزِعَ" مع أنَّ النفخ مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنه واقع لا محالة كقوله "أتى أمرُ الله" لأنَّ المُضَيَّ يستلزم التحقق ؛ فصيغة الماضي كناية عن التحقق <<² ، و >> إنما قال "فَفَزِعَ" بلفظ الماضي بعد قوله "يُنْفَخُ" وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع وكأنه كائن لا محالة لأنَّ الفعل الماضي يدلُّ على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به <<³ ، وإذن فإنَّ التحول إلى الماضي أفاد النصَّ على قطعِيَّة الحدث بنقله من مجال الاحتمال إلى مجال اليقين لأنَّ في المخاطبين من ينكر الحدث من أساسه فاحتيج إلى تأكيده ، واللافت أنَّ أساليب التأكيد وأدواته المعروفة مهما كانت درجاتها لا تُخرج الفعل من حيز الاحتمال لأنها تدخل عليه وهو على أصله مضارعاً ، بل لعلَّها تزيد المتلقي شكاً في حدوثه لأنه لا يُؤكِّد إلاَّ المشكوك في وقوعه ، أمَّا العدول به إلى الماضي فإنه

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر: 15/2 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 46/8 .

³ - ابن الأثير ؛ المثل السائر 16/2 .

يُقَدِّمُهُ في حكم المفروغ منه ، وأنَّ النقاش في إمكانية حدوثه لا مكان له في المنطق والعقل لأنه - ببساطة - قد وقع ، تماما كمن يقول: " إن شاء الله كذا " وقد سُئِلَ عن شيء وقع في الماضي .

ومن الآيات الشاهدة على هذا النوع قوله تعالى: مُفْتَتِحَ النحل: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ

فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ؛ لأنه خطاب لمن

>> كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاءً وتكديبا بالوعد فقيل لهم : "أتى أمر الله" ، أي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرا لقرب وقوعه <<¹ ؛ قال الألوسي: >> إتيانه عبارة عن دنوّه واقتترابه على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع <<² ، فهم قد كذبوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما توعدهم به ، وما داموا وصموه -حاشاه- بالكذب فإنه لا معنى للقسم أو توكيد الكلام بأساليب التوكيد لأنه كما كذب ابتداء سيكذب حالفا مؤكداً ، أمّا إلقاء الخبر في حكم الواقع فإنه أوقع وأكثر تأكيداً ؛ بدليل إمساكهم عن بعض كفرهم حين سمعوا قوله تعالى ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ القمر الآية

01 ، ثم إمساكهم مرّة أخرى عند نزول قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ الأنبياء الآية 01 ، ثم اجترائهم على الرسول

صلى الله عليه وسلم بقولهم : >> يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوِّفنا به فنزل قوله تعالى : "أتى أمر الله" <<³ ، وليس بعد الاقتراب إلا الإتيان ؛ فيكون في صيغة الماضي مزيد بلاغةٍ وتناسبٍ مع فعلي الاقتراب السابقين ، أمّا التعبير بالمضارع

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي : 780/1 .

² - الألوسي ؛ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني : 90/14 .

³ - البغوي ؛ تفسير البغوي 704 .

بعد ذكر الاقتراب مرتين بالماضي فإنه ليس فيه إضافة دلالية ، بل إنه سيكون نشازا في الترتيب المنطقي ، وكأنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان ينتظر الآية حين وثب عند نزولها ورفع الناس رؤوسهم إلى السماء وظنوا أنها قد أتت حقيقة ، فنزلت "فلا تستعجلوه" فاطمأنوا¹ .

وقوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ إبراهيم الآية 21 ؛ حيث تعرضُ الآية خصومة الكفار يوم القيامة وتعلق الأتباع بالمتبوعين ، وتتصل المتبوعين من أتباعهم ، ويدل قولهم : "إنا كنا لكم تبعًا" على أنهم في لحظة العرض والجزاء وأنهم يستحضرون حالهم في الدنيا أيام كانوا يأنمرون بأوامر أكابرهم ، ولكنَّ الآية تعرض هذه الخصومة التي لم تقع بعد في صورة الحادثة الواقعة باستعمال الماضي عوضا عن المستقبل في قوله جلَّ شأنه : "وَبَرَزُوا" ، " فَقَالَ " ؛ قال في التحرير : >> كان مقتضى الظاهر أن يقول "وَيَبْرُزُونََ لِلَّهِ" ، فقد عدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع مثل قوله "أتى أمر الله" <<² .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ﴿١٦٦﴾ البقرة الآية 166 ؛ حيث جيء بثلاثة أفعال مستقبلية بصيغة الماضي : "تَبَرَّأَ" ، و"رَأَوْا" ، و"تَقَطَّعَتْ" ، و>> هذا في يوم

¹ - السابق : الصفحة نفسها.

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 215/6 .

القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع فيتبرأ بعضهم من بعض <<¹ ، وكان السياق يوجب "يَتَّبِرًا" لأنه مستقبل في المعنى ويحصل في الآخرة ولكن عدل إلى الماضي تنبيها على تحقق وقوعه² ، و"يَرُونَ" لأن حدث الرؤية لم يقع بعد ، و"تَنَقَّطُ" لأن الأسباب - أنسابا كانت أم وحدة دين ، أم أتباعا واستتباعا³ - لم تنقطع بعد وإنما يكون تقطعها يوم القيامة .

والملاحظ أن الآية سياقها التهديد والوعيد ، والمخاطبون هم الكفار والمشركون ممن أنكروا الحساب أصلا فيكون في التعبير بالماضي عما يُهدَّدون به مما أنكروه إحصاراً لهذه الأحداث من اللحظة الغائبة في المستقبل - المنكرة أصلا - إلى اللحظة الماضية المحققة التي تم المرور بها ولا سبيل لإنكار وقوعها ؛ وحينئذ فإن الأحداث تُسرد سرد الوقائع التاريخية .

وكذا في قوله تعالى توصيفا لحال فرعون وأتباعه يوم القيامة: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿٨٨﴾ هود الآية 98 ؛ حيث عبّر عن إيراد فرعون قومه النار يوم القيامة بالفعل الماضي "أوردَهُم" ، قال الزمخشري >> فإن قلت هلاً قيل : يقدم قومه فيوردهم ؟ ، ولم جيء بلفظ الماضي ؟ قلت لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكأنه قيل: " يقدمهم فيوردهم النار لا محالة " <<⁴ .

¹ - البغوي ؛ تفسير البغوي 80 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 96/1 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف 194/1 .

⁴ - نفسه: 428/2 .

وقال في التحرير >> إنما جاء "فَأُورِدَهُمْ" بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد وإلا فقريئة قوله "يوم القيامة" تدلُّ على أنه لم يقع في الماضي << 1 .

والحال كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ النمل الآية 87 ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ وأشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهَادَاتِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿ الزمر الآيتان 68 ، 69 ؛ حيث قال "نُفِخَ" ، "صَعِقَ" ، "نُفِخَ" ، "أَشْرَقَتِ" ، "وُضِعَ" ، "جِئَءَ" ، "قُضِيَ" ، وكلُّها أفعال ماضية صيغةً مستقبلية معنى يسهم الماضي في تقريبها من لحظة الخطاب .

وقوله جلَّ شأنه حكاية عن حال الكفار يوم القيامة : ﴿ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِئٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ ﴾ ﴿٤٤﴾ الشورى الآية 44 ؛ حيث قال: "رَأَوْا الْعَذَابَ" أي: >> حين يرون العذاب ، واختير لفظ الماضي للتحقيق << 2 فـ >> المعنى مُستعار للاستقبال تشبيهاً للمستقبل بالماضي في التحقق ، والقريئة فعل "تَرَى" الذي هو

1 - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 156/5 .

2 - النسفي ؛ تفسر النسفي : 110/2

مستقبل إذ ليست الرؤية المذكورة بحاصلة في الحال فكأنه قيل : "لما يرون العذاب"¹ .

وقد أسهم الحرف "لما" في تأكيد وقوع فعل الرؤية إلى الحدّ الذي يجعله معلّماً زمنياً يُعلّم به فعل القول لأنهم قالوا قولتهم : ﴿هل إلى مردّ من سبيل﴾ بعد رؤيتهم العذاب ، وهي درجة من التأكيد تتجاوز مجرد التحقق لأنه من الخطل الشكّ في التحقق بعد اعتباره معلّماً سردياً في محور الزمن ، وحال الشاك فيه كحال من يشكّ في ميلاد المسيح - عليه السلام - وهو يقرأ حادثة مؤرخة بميلاده .

والذي ينبغي النصّ عليه هو أنّ هذه الأزمنة كلّها منسوبة إلى فهم الإنسان ولحظة الخطاب ، أمّا الله تعالى >> فإنّ المستقبل في علمه بمنزلة الماضي في تحقق الوقوع <<² ، وأنّ العدول إلى الماضي هو تقريب لأحداث المستقبل من لحظة الخطاب بإدراجها ضمن الزمن الذي وعاه الذهن وتجاوزته ، ثمّ حفظته الذاكرة بما لا بقاء معه للشكّ في حدوثه .

ومن أصالة هذا الأسلوب في اللسان العربي (العدول عن المضارع إلى الماضي) أنهم خصّوا به صيغ الإنشاء كقولهم : بعثك ، وزوجتك ، وعفوت عنك ... وهي أفعال ينعقد بها البيع والشراء ، والزواج والطلاق ، وغير ذلك اعتباراً من لحظة التلفظ بها ، وإنّما جيء بها على لفظ الماضي حسماً للتردد الذي قد يقع من أحد طرفي الفعل لأنها لا تكون إلاّ بين اثنين يتناولان الفعل بيعاً وشراءً أو خطبة وزواجا ، أو استجارة وإجارة ، فيتلفظ من يملك القرار بالفعل بلفظ الماضي بدلاً من المستقبل ، وكأنه يقول انتهى التفاوض وصدر القرار ، وقد جاء في

¹ - الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير 125/10 .

² - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم ، ص 79 .

الحديث : << رُفِعَت الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصَّحَفُ >>¹ وكذا صيغة الدعاء كقولهم :
 غفر الله لك ، سامحك الله ... قال ابن جني : << ونحو من ذلك الدعاء ومجيؤه
 على صورة الماضي الواقع نحو أَيْدِكَ اللهُ ، وحرسك اللهُ ، وإِنَّمَا كان ذلك تحقيقا
 له وتفاوتاً بوقوعه ، أن هذا ثابت بإذن الله وواقع غير ذي شك ، وعلى ذلك يقول
 السامع للدعاء إذا كان مريداً لمعناه : وقع إن شاء الله ووجب >>² ، وقد قال الله
 تعالى: ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿ التوبة الآية 43 .

¹ - الترمذي ؛ سنن الترمذي تح محمد شاكر وآخرون ، د.ط ، د.ت ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،
 667/4 ، وأحمد بن حنبل ؛ مسند أحمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، د.ط ، د.ت ، 303/1 .

² - ابن جني ؛ الخصائص: 332/3 .

3- العدول عن الأمر إلى المضارع

إذا كان بين المضارع والأمر مساحةً زمنيةً مشتركةً لدلالة كل منهما عن المستقبل فإنَّ الأخير يختلف عن المضارع بنبرته الاستعلائية لأنَّ >> فعل الأمر بصيغته التي لا تخلو من الجزم المشعر بالاستعلاء يُجتنب أحياناً عند مخاطبة شخص آخر ، وفي هذا الاجتناب صيغة التأدب مع المخاطب ؛ إذ النفس الإنسانية من طبعها النفور من استعلاء نظيرتها عليها فإذا ما وقع الكلام بصيغة توحى بالملاطفة كان أدعى إلى القبول والاستجابة >>¹ .

وليس تجنب الاستعلاء الهدف الأوحد للعدول عن الأمر إلى المضارع ، بل ثمة أغراض ودلالات أخرى تستنبط من السياق وتراكيب الكلام :

قال الله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ

الرَّضَاعَةَ ﴾ البقرة الآية 233 ؛ حيث حلَّ الفعل المضارع "يُرْضِعْنَ" محلَّ الأمر

الصريح ، وحيث إنَّ تجنب الاستعلاء غير مقصود هنا لأنَّ الخطاب صادر من العليِّ الأعلى فإنه ينبغي أن تُطلب للعدول غايةً أخرى ، لعلَّ بعضاً منها يتمثل في كون الأمر بالمضارع أمر استحباب لا أمر وجوب أي أنه ليس بلازم ، ولها أن ترضع أو لا ترضع ؛ لأنَّ المخاطبات هنا هنَّ المطلقات² ، قال الإمام البغوي : >> "يُرْضِعْنَ" خبرٌ بمعنى الأمر ، وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب لأنه لا يجب عليهنَّ الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد لقوله تعالى في سورة الطلاق ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ الآية 06 ، فإنَّ

رغبت الأمُّ في الإرضاع فهي أولى من غيرها >>³ ، ورأى الإمام النسفي أنَّ الأمر يتحوَّل إلى الوجوب في حالاتٍ نصَّ عليها حيث قال : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ خبر في معنى الأمر المؤكَّد كـ : "يَتَرَبَّصْنَ" ، وهذا الأمر على وجه النَّدب أو على

¹ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم ، ص 73 .

² - ينظر: البغوي ؛ تفسير البغوي : 137

³ - نفسه : الصفحة نفسها.

وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبيُّ إلاّ ثدي أمّه ، أو لم توجد له ظئر ، أو كان الأب عاجزا عن الاستئجار ، أو أراد الوالدات المطلّقات <<¹.

وبمثل ذلك قال الزمخشري² ، إلاّ أنّ الألوّسي رأى في اجتلاب صيغة المضارع غاية أخرى هي أنّ الأمر مما تتبغى المسارعة إلى امتثاله³ ، وهي غاية تلتقي مع قول النسفي المتقدّم "خبر في معنى الأمر المؤكّد" ؛ ولأنه أمر مؤكّد وجبت المسارعة إليه ، فكان إيراد بصيغة المضارع كقول الأمير أو القائد : "فلان يفعل كذا" ، و"فلان يفعل كذا" في ما يشبه تقسيم الأعمال و تحديد الواجبات والله المثل الأعلى .

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ البقرة

الآية 288 ؛ قال ابن كثير >> هذا أمر الله سبحانه وتعالى للمطلّقات المدخول بهنّ من نوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء <<⁴ ؛ ومعناه >> لينتظرن بأنفسهنّ عن النكاح ثلاثة قروء تمضي من حين الطلاق <<⁵ ، وبذلك قال الزمخشري >> فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهنّ بالتربُّص ؟ قلت هو خبر في معنى الأمر ، وأصل الكلام: "وليتربص المطلّقات" ، وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يُتلقَى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكانهنّ امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا <<⁶.

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي : 117/1 .

² - الزمخشري ؛ الكشف : 252/1 .

³ - الألوّسي ؛ روح المعاني : 131/2 .

⁴ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير 270/1 .

⁵ - الجالين ؛ تفسير الجالين 49/1 .

⁶ - الزمخشري ؛ الكشف 245/1 .

وكذلك قال في التحرير: >> جملة "والمطلقات يتربصن بأنفسهن" خبرية مراد بها الأمر¹ وحمّله على المجاز المرسل باستعمال الخبر في لازم معناه ، وهو التقرر والحصول ناسبا للرأي إلى التفتزاني الذي خرّجه على أنه >> تشبيه ما هو مطلوب الوقوع بما هو محقق الوقوع >>² .

وشذّ القرطبي حيث رأى أن إفادة الأمر من الخبر باطلة ؛ قال في تفسير الآية : >> هذا خبر والمراد الأمر كقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، و"جَمَعَ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ" ، و"حَسْبُكَ دِرْهُمٌ" ، أي اكتف بدرهم ، هذا قول أهل اللسان في ما ذكر ابن الشجري ، وابن العربي وهذا باطل ، وإنما هو خبر عن حكم الشرع ، فإن وُجِدَتْ مَطْلَقَةٌ لا تتربص فليس من الشرع ، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله تعالى على خلاف مخبره >>³ ، ثم ذيل كلامه بقوله : >> وقيل معناه: ليربص >>⁴ هكذا بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

ويظهر من نصّ القرطبي أنه ناقش القضية اللغوية (إفادة معنى الأمر من صيغة المضارع) تحت تأثير قضية كلامية هي: هل يجوز وقوع خبر الله تعالى على خلاف مخبره أولا ؟ حيث اعتبر إفادة الأمر من المضارع - وهي القضية اللغوية المحضّة - مقدّمة يلزم من القول بها القول بالقضية الكلامية - وهي وقوع خبر الله تعالى بخلاف مخبره - ، والحجة احتمال وجود مطلقّة لا تتربص ، ويبدو أنّ حجة القرطبي في هذا النصّ مرجوحة ؛ بآراء باقي المفسّرين من جهة ، وباستدراكه هو في قوله : "قيل معناه ليربص" الذي يشي بما يخالجه من بعض شكّ في حكمه الذي يقدح فيه تعليقه اللغوي بغير اللغوي ، ومن جهة ثالثة فإنه

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 388/1 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

³ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 112/3 ، 113 .

⁴ - نفسه : الصفحة نفسها .

يمكن أن يُدفع بنصوص أخرى كقوله تعالى: - مثلا- ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ ﴿بِأَنَّ يُقَالُ: هَلْ وَجُودٌ مِنْ طَلَّقَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ رَاجَعَ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ؟ ، أَوْ قَوْلِهِ -جَلَّ شَأْنُهُ- فِي آيَةِ الْمِيرَاثِ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ فَإِنَّ وَجُودَ أَنْثَى لَمْ تَعْمَلْ بِالْآيَةِ وَأَخَذَتْ كَحَظِّ الذَّكَرِ ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ حَظِّ الذَّكَرِ ، فَهَلْ مَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ - تَقَدَّسَتْ صِفَاتُهُ - أَخْبَرَ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ ؟ .

وغني عن البيان أَنَّ الإمام القرطبي - رحمه الله - لم تغب عنه مثل هذه الشواهد ، ولا يمكن أن نتصور غيابها أبداً ، ولكن يبدو أَنَّ الاختلاف لا يتجاوز كونه اختلافاً لفظياً لأنَّ قوله : "إنما هو خبر عن حكم الشرع" يحمل في طيه دلالة الأمر لأنَّ المنتسب إلى الشرع يكفي أن يقال له "هذا حكم الشرع ليسارع إلى الامتثال وليس شرطاً أن يتلقى الأمر الصريح المباشر ، و>> المتكلم ليس محتملاً عليه أن يجعل أمره في صيغة الأمر والخبر في صيغة الخبر والوعد في صيغة الوعد ، وبالمقابل ليس ضرورياً أن يتلقى السامع هذا الخطاب النسقي بقدر ما يكون مُلزماً بتأويل الدلالات ؛ فقد يجد بعض أنواع الطلب في صيغة الخبر <<¹ .

أمَّا باقي المفسرين فقد فسروا الآية في هدي البلاغة وما تحتمله أساليب الكلام كما يبدو من حملهم العبارة على المجاز المرسل ، وما ذكره الزمخشري عقب كلامه المتقدم من أَنَّ في الآية نكتة بلاغية أخرى تظهر في تقديم لفظ "المطلقات" وتخريج القول على الاسمية لأنَّ >> بناءه على المبتدأ مما زاده فضل توكيد ، ولو قيل: "وَيَتَرَبَّصُ الْمُطَلَّقاتُ" لم يكن بتلك الوكادة <<² .

وفي ما تقدم تظهر أهمية الأدوات المنهجية والخلفية الفكرية والمذهبية للمفسرين ، وكيف تسهم في توجيه الآية بما يتفق وتلك الأدوات والمرجعيات .

¹ - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، بيت الحكمة ، العلمة ، الجزائر ، ط2 ، 2012 م ، ص 75 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف: 245/1 .

4- العدول عن المضارع إلى الأمر

>> من الواضح أنّ استعمال الأمر موضع المضارع قليل بالنظر إلى استعمال المضارع موضع الأمر ولذلك فشواهده قليلة أيضا <1> ، ومن هذه الشواهد ما ذكرناه في الفصل الأول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَوا يَهُودُ ما جِئنا بِبَيِّنَةٍ وما نَحْنُ بِتارِكِي ءالِهَتِنا عَن قَوْلِكَ وما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعترَبكَ بَعْضُ ءالِهَتِنا بِسوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ ممّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ هود الآيتان 53 ، 54 ؛ حيث عدل عن المضارع "أشهدكم" إلى الأمر "اشهدوا" إلاّ أنّي لا أتفق مع الدكتور ظافر في ردّه العدول بين المضارع والأمر إلى منزلة المخاطب وأنّ المتكلم يعدل عن الأمر الصريح إلى المضارع احترازا مما في الأمر من حدّة مُشعرة بالاستعلاء² ذلك أنّ من الأغراض البلاغية للأمر الدعاء وللالتماس اللذان تتحدد فيهما منزلة الأمر بأنّها دون منزلة المأمور ، ومع ذلك فإنّ الأمر فيهما صريح ، وآيات الدعاء كلّها شاهدة على ذلك .

أمّا العدول عن المضارع إلى الأمر في هذه الآية فقد رأى فيه الزمخشري تهاونا بهم واستخفافا بشهادتهم حيث قال: >> فإن قلت: هلا قيل: "إني أشهد الله وأشهدكم"؟ قلت لأنّ إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ، وأمّا إشهدهم فما هو إلاّ تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة فحسب ، فعدل بع عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ

¹ - ظافر بن غرمان العمري ؛ بلاغة القرآن الكريم: ص 76 .

² - نفسه : ص 75 .

الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : " اشهد على أني لا أحبك" تهكماً به واستهانة بحاله <<¹.

ومرة أخرى نقف على التطابق الحرفي بين ما قاله الزمخشري وما كرره ابن الأثير حيث قال: << فإنه إنما قال: "أشهدُ اللهَ وأشهدُوا" ولم يقل: "وأشهدُكم" ليكون موازنا له وبمعناه لأنَّ إشهده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأمَّا إشهدهم فما هو إلاَّ تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة <<²

وأيًا كان موقف ابن الأثير فإنه إمَّا وقوع الحافر على الحافر أو سرقة فكرية ، أمَّا كلام الزمخشري فإنه الأصل لتقدمه عليه كما بيَّنا ، ونستفيد من ذلك أنَّ العدول إلى الأمر أفاد معنى التهكم والاستهزاء بهؤلاء القوم المعاندين .

وقد بدت لي في هذا العدول فائدة أخرى سبق ذكرها في الفصل الأول³ وهي وضع المشركين في المنزلة الدنيا ، منزلة المأمور، واعتلاء هود -عليه السلام- منزلة الأمر، وهي المنزلة العليا، فيكون في طلب صيغة الأمر قصدٌ إلى إهانة المشركين من طريقين ؛ الأول الاستهانة بشهادتهم على ما ذكر الزمخشري ، والثاني إلزامهم المنزلة الدنيا ، منزلة المأمور الذي يجب عليه السَّمع والطاعة ، وهي منزلتهم التي تجاهلوا وتجاوزوا بتحديثهم نبيهم هوداً -عليه السلام- حين قالوا : ﴿ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ... إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ... ﴾ ، وهو كلام فيه من قلة الأدب والتطاول ما يوجب تذكيرهم بمكانتهم وإلزامهم بها ، فكان ذلك صريحا بنص الآية ، وضمنا في صياغتها ، والله - تعالى - أعلمُ بمراده .

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف 411/2 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 12،11/2

³ - ص 74 .

المبحث الثالث: العدول بين الاسم والفعل

لأنَّ الحرف لا يحمل دلالة في ذاته فإنَّ التعبير إمَّا أن يكون بالاسم أو الفعل، و ليس التعبير بالاسم كالتعبير بالفعل لاختلاف ما بينهما من حيث استقلال دلالة الاسم عن الزمن وارتباط دلالة الفعل ارتباط وثيقًا بالزمن ؛ إذ لا يكون للفعل معنى خارج الزمن¹ ، و من هذا الارتباط بالزمن يستمد الفعل دلالاته على الحركة و التجدد ، تماما كما تتجدد لحظات الزمن ودقائقه ، و من تلك الاستقلالية عن مفهوم الزمن كانت للاسم دلالة السكون والثبات ، لذلك فإنَّ منشئ الخطاب يوظف الصيغ الاسمية في ما فيه معنى السكون ، و يطلب الصيغ الفعلية حين يقصد إلى التعبير عما فيه معنى التجدد و الحركة .

و لقد أدرك الجرجاني هذا المعنى تمام الإدراك عند تناوله قوله تعالى:

﴿ وَكَلْبُهُمْ بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الكهف الآية 18 ؛ حين قال : >> إِنَّ قَوْلَنَا: " كَلْبُهُمْ يَبْسُطُ ذِرَاعَيْهِ " لا يؤدي الغرض و ليس ذلك إلاَّ لأنَّ الفعل يقتضي مزاولةً و تجدد الصفة في الوقت و يقتضي الاسم ثبوت الصفة و حصولها من غير أن ، يكون هناك مزاولةً و تَرَجِيَّةً ، و معنى يحدثُ شيئاً فشيئاً ، ولا فرق بين "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ" وبين أن نقول: "وَكَلْبُهُمْ وَاحِدٌ" مثلا في أنك لا تثبت مزاولة و لا تجعل الكلب يفعل شيئا بعد شيء ، بل تثبته بصفة هو عليها ، فالغرض إذا تأدية هيئة الكلب <<² ، و ربط ذلك بعلم البلاغة حين قال : >> الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم و بينه إذا كان بالفعل فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه ،

¹ - تُستثنى من هذا الحكم الأفعال الجامدة .

² - عبد القاهر الجرجاني ؛ دلائل الإعجاز ، تح محمد التنجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ،

1995 م ، ص 141 .

و بيانه أن موضوع الاسم على أن يُثبَّت به المعنى للشيء من دون أن يقتضي تجدُّده شيئاً بعد شيء ، وأمَّا الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء¹.

لذلك فإننا سنحاول تتبع دلالات التعبير بالاسم في حال العدول إليه عن الفعل طالبين ما فيه من معاني الثبات والسكون ، وكذا دلالات التعبير بالفعل عند العدول إليه عن الاسم و ما في ذلك من معاني الحركة و التجدد .

1- العدول عن الفعل إلى الاسم

من العدول عن الفعل إلى الاسم قوله تعالى: ﴿...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ البقرة الآية 83 ، والأنعام الآية 151 ، و الإسراء الآية 23 ؛ حيث عدل في المواضع الثلاثة عن الفعل إلى المصدر لأنَّ المعنى : "أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ" ؛ قال القرطبي >> قرأ ابن عطية "إحسان" بالرفع أي واجب الإحسان إليهما ، والباقون بالنصب على معنى: " أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ إِحْسَانًا " <<² .

و قال الطبري >> المعنى لو أُظهِر المحذوف : " وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلاَّ الله ، و بأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا " ، فاكتفى بقوله : " وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " من أن يقول: " وَبِأَنْ تُحْسِنُوا إِلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " <<³ ، و >> قد زعم بعض أهل العربية في ذلك أن معناه: " وبالوالدين فأحسنوا إحسانا"

¹ - السابق : الصفحة نفسها .

² - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 182/5 ، وينظر: ابن كثير 189/2 ، والكشاف 148/1 .

³ - الطبري ؛ تفسير الطبري: 389/1 ، 390 .

وقال آخرون بل معنى ذلك : " ألاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، وَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا " ...
فيكون الإحسان حينئذ مصدرًا من الكلام لا من لفظه <<¹ ؛

فالمعنى هو الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، و معلوم أنَّ للأمر صيغتين فعليتين هما فعل الأمر والمضارع المقترن بلام الأمر ، وصيغة اسمية هي المصدر كقوله تعالى : " فَضْرَبَ الرَّقَابِ " ، و في توظيف الصيغة الاسمية عدول عن الصيغتين الفعليتين .

و إذا كان التعبير بالاسم يشير إلى دلالة الثبات كما تقدم ، فلا جرم أنَّ الإحسان إلى الوالدين من الأصول الثابتة التي لا يعترئها التبدل أو التغيُّر حتى و لو كان في ما يأمران به عنت و مشقة ، بل و معصية ؛ قال تعالى حكاية عن لقمان الحكيم في وصيته لابنه : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ لقمان الآية 15 ، ومن

ثم فإنَّ بين دلالة الثبات في التعبير بالاسم ، والمعنى العام للآية - المتمثل في الأمر بالإحسان إلى الوالدين - تناسبًا يؤكد أنَّ الإحسان إليهما مطلوب في كل الظروف والأحوال ، وليس في القرآن كُله آية واحدة تجيز الإساءة إلى الوالدين أو تسوُّغ عصيانهم لأنَّه >> إنما عدل عن النهي عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان اعتناء بالوالدين لأنَّ الله أراد برَّهما ، و البرُّ إحسان و الأمر به تضمن النهي عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الخطاب ، وقد كان كثير من العرب في جاهليتهم أهل جلافة ، فكان الأولاد لا يوقرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر ، فلذلك كثرت وصاية القرآن بالإحسان إلى الوالدين <<² ، كما يدل على ذلك اقتران الأمر ببرَّهما

¹ - السابق : الصفحة نفسها.

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 158/4 .

بتوحيده تعالى في أكثر من آية ؛ قال القرطبي : >> قَرَنَ تَعَالَى حَقَّ الْوَالِدِينَ
بالتوحيد لَأَنَّ النِّشْأَةَ الْأُولَى مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَ النِّشْأَةَ الثَّانِيَةَ ، وَهِيَ التَّرْبِيَّةُ ، مِنْ
جَهَةِ الْوَالِدِينَ <<¹ .

ومن العدول إلى الاسم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۗ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآنِي تُؤَفِّكُونَ ﴾^ط
الأنعام الآية 95 ؛ حيث قال في الأولى: " يُخْرِجُ " وفي الثانية "مُخْرِجٌ" ؛ و>> قد
جاء بجملة " يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ " فعليةً للدلالة على أَنَّ الفعل يتكرر ويتجدد
في كل آن فهو مراد معلوم و ليس على سبيل المصادفة والاتفاق ، وجيء به في
قوله تعالى: " وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ " اسماً للدلالة على الدوام والثبات ، فحصل
بمجموع ذلك أَنَّ كلا الفعلين متجددٌ و ثابت ، أي كثيرٌ وذاتيٌ ، ذلك لأنَّ أحد
الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه فكان في الأسلوب شبه احتباك <<² .

وإن تعجب فالعجب من هذا الأسلوب البديع الذي أفاد التجدد والثبات في آن
واحد ، وجمع النقيضين على المحل الواحد ؛ أفاد التجدد بالفعلية في الأولى ،
والثبات بالاسمية في الثانية ، فكان كلُّ من الفعلين متجدداً وثابتاً في الوقت نفسه ؛
ذلك أَنَّ إخراج الميت من الحي ، وإخراج الحي من الميت متجددٌ في كل تكاثر
حيواني أو نباتي ، و اقتدار الله تعالى على هذا الفعل ثابت لا يناله التبديل جارٍ
مجرى السنن الكونية ، والإخراج الأوَّل (إخراج الحي من الميت) يُستفاد تجددُه
من وروده بالصيغة الفعلية ، و يُستفاد ثباته من ذِكر مُقَابِلِهِ (الإخراج الثاني)
بالاسمية حيث لا فرق بين الإخراجين في الحكم .

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي 13/2 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 389/3 .

والإخراج الثاني (إخراج الميت من الحي) يستفاد ثباته من وروده بالاسمية ويُستفاد تجددّه من ذكر صنوه (إخراج الحي من الميت) بالفعلية حيث لا اختلاف بينهما في الحكم .

وبذلك تكون للعدول فائدتان ؛ فائدة النص على الثبات في كلا الإخراجين ؛ إمّا بالذكر، أو بالتضمين وفحوى الخطاب ، ثمّ فائدة أخرى هي الاقتصاد اللغوي ؛ ذلك أنه بغير هذا السبيل كان لزاماً أن يورد الإخراج الأول في جملتين ، مرة اسمية و مرة فعلية ، وكذلك الإخراج الثاني، ولا يخفى ما في ذلك من ركاكة وابتذال ليس مكانه النصُّ المعجز .

وقول الزمخشري >> فإن قلت كيف قال "مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ" بلفظ اسم الفاعل بعد قوله: "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ"؟ قلتُ عطفه على "فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى" لا على الفعل <<¹ لا يتعارض مع ما ذكرنا لأنَّ المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه ، والمعطوفُ عليه زيادة على وروده بالاسمية فإنّه جاء مؤكِّداً بالحرف "إنَّ"، فإذا كان "مخرج" معطوفاً على "فالق" فإنَّ التوكيد يسري إليه فيجتمع فيه توكيد الاسمية وتوكيد "إنَّ" كما اجتمع في: "إنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى" ليحمل بذلك مزيداً من الدلالة على ثبات قانون التكاثر وارتئانه بالقدرة الإلهية المطلقة ، وفي ذلك ما يتناسب وموضوع الآيات التي وردت في سياق إلزام الحجة للمشركين وإثبات الألوهية لله تعالى بتفصيل قدرته المطلقة التي يدلُّ عليها إخراج الحي من الميت والميت من الحي ، وكونه فالق الحبِّ والنوى ، وفالق الإصباح ، ومنشئ الناس من نفس واحدة ، ومنزل الماء من السماء و جاعله سبباً للإنبات ، وغير ذلك من الأدلة التي عرضتها الآيات اللاحقة ، فيكون في ثبات هذه الأدلة واطرادها (و منها إخراج الميت من الحي و الحي من الميت) ما يؤيد الهدف العام

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 111/2 .

الذي هو الإقرار بالألوهية التي انقادت لها كل هذه الأشياء و دليل الانقياد أنها ثابتة مطردة لا مكان فيها للصدفة والاتفاق، ولعل مثل هذه المعاني مما يمكن أن يُسلك ضمن ما قاله ابن جنّي من أن اللفظ >> إن انحرف به عن سمّيه وهديّه كان ذلك دليلا على حادث متجدد له ، و أكثر ذلك أن يكون ما حدث له زائدا فيه لا منتقضا منه <<¹ .

وقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١١٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ^(١١٤) وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ آل عمران الآيتان 133 ، 134 ؛ و حيث إن >> التعبير الثاني يكون التفاتاً متى خالف ما يترقبه السامع ولو كان موافقا لظاهر المقام <<² فإنّ التعبير عن الصفة الأولى من صفات المتقين (صفة الإنفاق) بالفعل "يُنْفِقُونَ" ترك الانطباع بأن باقي الصفات ستَرِدُ على المنوال نفسه فأحدث ذلك حالة ترقّب لدى السامع /القارئ كسرّها ذكرُ الصفة الثانية (كظم الغيظ) بصيغة اسم الفاعل "الكاظمين" ، وكذلك الصفة الثالثة (صفة العفو عن الناس) التي وردت بالصيغة نفسها "العافين" فكان في ذلك تنبيه إلى التساؤل عن أهمية التعبير بالاسم بعد التعبير بالفعل ، >> لا شك أن أقوى القوى تأثيرا على النفس [هي] القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب ، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء منه دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس و قهر الإرادة للشهوة ، وهذا أكبر من قوى الأخلاق الفاضلة <<³ ، ولا شك كذلك أن

¹ - ابن جنّي ؛ الخصائص : 268/3 .

² - ابن يعقوب المغربي ؛ شروح التلخيص 465/1 ، نقلا عن أحمد محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقدي والبلاغي ، ص 185 .

³ - الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير 91/2 .

الإنفاق صفة فاضلة و ليس من السهل التغلب على النفس و بذل المال في سبيل الله ، لكن الثابت أنّ الإنفاق - باستثناء الزكاة ، أو من تجب إعالته - فعل اختياري ندب إليه الشارع و لم يوجبه فرض عين ، ومن ثمّ فإنّ فعله يُحمل على الندب والاستحباب ويُدرج فاعله ضمن أهل الفضل ، على خلاف إمساك الغيظ الذي لا يكون إلاّ بعد اعتداء على النفس أو المال أو الدّمار ومن ثمّ فإنّ القصاص من المعتدي حق للمعتدى عليه لا يُسقطه إلاّ تنازله بكظم الغيظ والعفو و قد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۗ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ الإسراء الآية 33 .

فيظهر بذلك أن كظم الغيظ و العفو عن الناس يفضّلان الإنفاق في سبيل الله من جهة كونهما حقاً مسلماً به للمعتدى عليه ، لذلك جاء الترغيب فيهما في أكثر من نصّ قال - صلى الله عليه و سلم - >> إِنَّمَا الصُّرْعَةُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ <<¹ ، وقال في الحث على كظم الغيظ : >> من كظم غيظه و هو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من أيّ الحور شاء <<² ، وروي أنه >> ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلاّ من عفا <<³ ، وحقيقة >> الكظم حبس الشيء عند امتلائه ، وكظم الغيظ أن يمتلاً غيظاً فيردّه في جوفه ولا يظهره ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذِ

¹ - البخاري ؛ صحيح البخاري : 2286/5 ، وينظر : مسلم ؛ صحيح مسلم: 2014/4 ، والهيثمي ؛ مجمع الزوائد : 11/3 و 69/8 .

² - الترمذي ؛ سنن الترمذي: 656/4 ، وأحمد ؛ مسند أحمد 440/3 ، وأورده القرطبي في تفسير الآية: 208/4 ، والبيهقي: 243 .

³ - أورده النسفي: 182/1 ، 183 ، والقرطبي: 208/4 .

أَلْقُلُوبُ لَدَى أَحْتَاكِرٍ كَظْمِينَ ﴿ غافر الآية 18 >>¹ ، أَمَا الْعَفْوُ فَمَعْنَاهُ >> التجاوز عن الذنب وترك العقاب .. وكل من استحق عقوبة فتركها فقد عفت عنه >>² .

وإيراد العفو بعد كظم الغيظ هو >> بمنزلة الاحتراس لأنَّ كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحق فلماً وُصفوا بالعفو عمَّن أساء إليهم دلَّ ذلك على أنَّ كظم الغيظ وصفٌ متأصلٌ فيهم مستمر معهم >>³ ، والتعبير عن أصالة الوصف و استمراره يناسبه الاسم لدلالته على ثبات الصفة في الموصوف ، وممَّا يؤيد هذا التوجيه للآية قوله تعالى قبلها: "يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ" أيُّ أنَّ الإنفاق الموجب لإدراج صاحبه ضمن المتقين هو الإنفاق الدائم سواء في المسرة أو المضرة >> لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة و بلاء من المعروف ، وسواء عليهم أكان الواحد منهم في عرس أو في حبس فإنه لا يدع الإحسان >>⁴ فيكون المطلوب من العباد الاتصاف الدائم بهذه الخلال ، ويكون في الأسلوب تنويع حيث أشير إلى المداومة على الإنفاق بذكر حالتي المسرة والمضرة ، وإلى المداومة على كظم الغيظ والعفو عن الناس بإيرادهما بالاسمية وبالتعريف الذي تشير أداته "ال" إلى مزيد التأكيد سواء أكانت للعهد أم الجنس أم الاستغراق.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء الآية 142 ؛ حيث عبّر عن خداع المنافقين بالفعل وفي ذلك إشارة إلى اضطراب

¹ - البغوي ؛ تفسير البغوي: 243 .

² - ابن منظور ؛ اللسان : ع . ف . و .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 91/2 .

⁴ - الزمخشري ؛ الكشاف 365/1 .

نفسياتهم ومبادئهم ، إن كانت لهم مبادئ ، وعبر عن خداع الله - تعالى عن ذلك - بالاسم فقال: "وَهُوَ خَادِعُهُمْ" ؛ قال الزمخشري: >> هو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا ، وأعدَّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة <<¹ ، وقال في التحرير: >> "وَهُوَ خَادِعُهُمْ" أي فاقبلهم بمثل صنيعهم فكما كان فعلهم مع المؤمنين المتبعين أمر الله ورسوله خداعا لله تعالى، كان إمهال الله لهم في الدنيا حتى اطمأنوا وحسبوا أن حيلتهم وكيدهم راجا على المسلمين وأن الله ليس ناصرهم <<² ، والذي تحرَّج منه المفسرون في الآية دلالة الفعل "يُخَادِعُونَ" على معنى المشاركة لمجيئه على صيغة "فاعل"؛ فكان لزاما تخريج الآية على خلاف ذلك لتنزُّه الله - تعالى - على صفة المخادعة التي من أهم دلالاتها الخنل وإظهار المتحدِّث خلاف ما يخفي³ ؛ وهي الصفات التي لا تجوز في حق الذات العليَّة لأنَّ الخنل والمخادعة إنما تكونان خوفاً من الآخر - تعالى الله عن ذلك - ؛ فكان توجيه الآية إلى أنَّ معنى "يخادعون الله" أي يخادعون أوليائه وعباده المؤمنين⁴ ، أو أنَّ "فاعل" هنا بمعنى "فعل" أي يخدعون الله ، و>> معناه أنهم يقدرّون في أنفسهم أنهم يخدعون الله وهو الخادع لهم أي المجازي لهم جزاء خداعهم <<⁵ .

وقول الزمخشري "هو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع" فيه دلالة على أنَّ في قوله - عزَّ اسمه - " هو خادعهم " إلماعاً إلى منهج الله تعالى في التعامل مع هذا الصنف من الناس من إمهالهم وعدم أخذهم بذنوبهم في الدنيا إبقاءً على العقاب

¹ - السابق : 503/1 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 239/2 .

³ - اللسان : خ.د.ع. ، والقاموس المحيط : خ.د.ع.

⁴ - ينظر: الرازي ؛ مختار الصحاح ، تح محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، 1415 هـ ،

1995م ، خ.د.ع. ، والفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط: خ.د.ع .

⁵ - ابن منظور ؛ اللسان: خ.د.ع .

إلى الآخرة ، وهو منهج ثابت تعضده آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا ۗ ﴾ فاطر الآية 45 ، وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۗ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ۗ ﴾ الكهف الآية 58 ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ سَاعَةً ۗ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۗ ﴾ النحل الآية 61 ؛ وهو منهج يتناسب مع أسمائه الحسنى وصفاته العلى كـ : الصبور والحليم والغفور...

والتعبير بالاسم "خادعهم" يتناسب مع هذا الثبات وفيه فوق ذلك نكتة بلاغية تظهر في التنويع بين الفعل والاسم حيث يدفع الاسم الرتبة التي كانت ستكون في العبارة لو تكرر الفعل "يخدع".

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۗ ﴾ محمد الآية 4 ؛ لأنَّ >> أصله فاضربوا الرقاب ضربا وحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، وفي ذلك اختصار مع إعطاء معنى التوكيد المصدري <<¹.

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 89/2 ، 90 .

وقال النسفي : >> أصله "فاضربوا الرقاب ضربا" ، فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنسبة التي فيه ، وضرب الرقاب عبارة عن القتل لا أن الواجب أن تُضرب الرقاب خاصة ، ولأنَّ قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبتة <<¹ وهي عبارة شراكة بين الزمخشري ، والنسفي ، والبغوي ، وابن الأثير ، والطاهر بن عاشور² إلى حد التطابق الحرفي.

وزاد البغوي قوله: >> نُصب على الإغراء أي فاضربوا رقابهم يعني أعناقهم<<³ وهو ما يُفهم منه أن حذف الفعل أحال العبارة من أسلوب طلبي ليس فيه معنى التأكيد إلى أسلوب طلبي أساسه التأكيد لأنَّ >> معنى الإغراء الزم واحفظ <<⁴ ، و>> هو أمر المخاطب بلزوم ما يُحمد <<⁵ ، والإغراء من الأهمية بحيث إنَّ ذكر الفعل من شأنه أن يفوتَّ الفرصة ؛ فيُحذف الفعل تحت طائلة الاحتراس من فوات المطلوب وبالتالي فإنَّ العدول عن ذكر الفعل إلى ذكر مصدره وإنابته عنه يتضمن هذا المعنى وهو ما يفسر قولهم المتقدم: "مع إعطاء معنى التوكيد" الحاصل بذكر المصدر النائب عن فعله ، لذلك ، ولأنَّ المصدر أصلٌ لكل مشتقاته (ومنها الفعل) فيتضمن بالتالي كلَّ معاني مشتقاته ، وزيادة على ذلك فهو الأخصبُ معنى والآكد وقوعا خصوصا وقد انفلت - بإسميته - من قيد الزمن حيث إنَّ ضرب رقاب الكفار واجب عند كل لقاء⁶ في أيِّ زمان وأيِّ مكان، ولعلَّ

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي 149/2 .

² - نفسه ، وابن الأثير المثل السائر 89/2 ، 90 ، والكشاف 213/4 ، والبغوي 1194 ، والتحرير والتنوير 79/10 .

³ - البغوي ؛ تفسير البغوي 1194 .

⁴ - الزجاج ؛ الجمل في النحو : 83/1 .

⁵ - ابن عقيل ؛ شرح ابن عقيل : 301/3 .

⁶ - اللقاء في هذه الآية معناه الحرب لا غير ، ينظر: التحرير والتنوير 178/10 .

التعبير بالمصدر هو الذي جعل الزمخشري يقول: >> في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة <<¹ وإن كان معنى عبارته المفاضلة بين القتل والضرب (ضرب الرقاب) إلا أن أبلغ وأشمل ما في مادة الضرب هو مصدرها خصوصا عند اقتترانه بلفظ الرقاب لما في ذلك من تصوير هيئة الفعل.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝۱۲۳ ﴾ هود الآية 103 ؛ حيث قال: "مَجْمُوعٌ لَهُ" ولم يقل: "يُجْمَعُ لَهُ" ، وقال: "مَشْهُودٌ" ولم يقل: "يَشْهَدُهُ" .

قال الزمخشري >> فَإِنْ قُلْتَ لِأَيِّ فَائِدَةٍ أَوْثَرَ اسْمَ الْمَفْعُولِ عَلَى فِعْلِهِ ؟ قُلْتَ لِمَا فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى ثَبَاتِ مَعْنَى الْجَمْعِ لِلْيَوْمِ وَأَنَّهُ يَوْمٌ لَابَدًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِيعَادًا مَضْرُوبًا لَجَمْعِ النَّاسِ لَهُ <<² ، ورأى الطاهر بن عاشور أن "مَجْمُوعٌ" >> يدلُّ على تمكُّن تعلق الجمع بالناس وتمكُّن كون ذلك الجمع لأجل اليوم حتى لُقِّبَ ذلك اليومُ بِيَوْمِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : "يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ" <<³ .

ومعلوم أن الجمع ليوم القيامة يقع مرة واحدة وليس من شأنه التجدد حتى عبّر عنه بالسوق قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف 213/4 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف: 429/2 .

³ - الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير: 161/5 .

ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ
 الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ الزمر الآية 71 .

ومعلوم كذلك أن بعث الناس بعد موتهم وجمعهم إلى الحساب قضية ينكرها
 المشركون جملة ؛ يستوي في ذلك كفار كل أمة لأن الإيمان بالبعث والحساب
 عليه مدار الرسالات كلها فكان في ورودها بالاسمية تأكيد لها ، وفي لفظ "مشهود"
 قال صاحب التحرير: >> طوي ذكر الفاعل إذ المراد : يشهده الشاهدون إذ ليس
 القصد إلى شاهدين معينين ، والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنهم يشهدونه شهودا خاصا
 ، وهو شهود الشيء المهول <<¹.

ولو لم يرد بالصيغة الاسمية لما أمكن طي ذكر الفاعل الذي لا يتعلق الغرض
 بذكره ، وإذا كان طي الفاعل في "مشهود" لعدم تعلق الغرض بمعرفة الشاهدين ،
 فإن طي الفاعل في "مجموع" لما يجب أن يكون عليه المخاطبون وما هو منتظر
 منهم من التسليم بمعرفة هذا الفاعل والإذعان له.

وإيغالا في تأكيد دلالة الثبات في اسم المفعول يقول الزمخشري: >> هو أثبت
 أيضا لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه ، ونظيره قول المتهدد : "إِنَّكَ
 لَمَنْهُوبٌ مَّا لَكَ" ، مَحْرُوبٌ قَوْمِكَ" فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ،
 وإن شئت فوازن بينه وبين قوله ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾^ص تعثر على صحة
 ما قلت لك <<² .

¹ - السابق : الصفحة نفسها.

² - الزمخشري ؛ الكشاف 429/2 .

وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلٌ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يونس الآية 67 ؛ وردت نعت النهار بالإبصار بالاسم بعد نعت سكون الليل بالفعل، والحقيقة أن نعت النهار بصفة الإبصار لا يستقيم لأنه ليس مما يُبصر، وإنما >> قال: "مُبْصِرًا" تَجَوُّزًا وتوسُّعًا على عادة العرب في قولهم " ليلٌ قائمٌ ونهارٌ صائمٌ " <<¹؛ واستشهد ببيت جرير:

لَقَدْ لُمْتَنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى ثُمَّ نِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمٍ <<²
و >> أضاف الإبصار إلى النهار وإنما يُبصر فيه وليس النهار ممَّا يُبصر ولكن لما كان مفهوما في كلام العرب خاطبهم بما في لغتهم وكلامهم <<³.

والآية سياقها من الله تعالى على عباده بتسخيره الزمان وتكييفه كي يكون ظرفا صالحا لحياة العباد ، نشاطا وسكونا ، لأنه جعل الليل صالحا -بظلمته وهدوئه - للسكينة و الراحة وهو في ذلك كاللباس الذي يقي صاحبه قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا أَلَيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ ﴿ ١١ ﴾ النبأ الآيتان 10،11 وجعل النهار >> مضيقا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم <<⁴ ، >> وقيل مبصرا لإضاءته للناس البصر <<⁵ وفي كل ذلك ما يتناسب والطبيعة البشرية التي تحي فترات نشاط تعقبها فترات راحة.

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي ، 360/8 .

² - الديوان : شرح محمد بن حبيب ، تح نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، 2009 ، ص993.

³ - الطبري ؛ تفسير الطبري 139/11 ، 140 ، وينظر الجالين 277/1 ، 504/1 .

⁴ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 425/2 ، 378/3 ، وينظر : الطبري : 80/24 .

⁵ - الطبري ؛ تفسير الطبري 50/15 .

والشاهد في الآية لفظ "مُبْصِرًا" الذي جاء اسما بعد أن ورد مقابله "تَسْكُنُوا" فعلاً وقد تكرر هذا الأسلوب في القرآن ثلاث مرات ؛ هذه واحدة ، والثانية قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية 86 ، والثالثة قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آلِيلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الآية 61 .

في الآيات الثلاث كان التعبير عن سكون الليل بالفعل ، وعن الإبصار في النهار بالاسم ؛ قال الزمخشري في آية النمل >> فإن قلت مال التقابل لم يُراعَ في قوله : "وَلَيْسَكُنُوا" و"مُبْصِرًا" حيث كان أحدهما علة والآخر حالا قلتُ هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لأنَّ معنى "مُبْصِرًا" ليبصروا فيه طُرُقَ التقلُّبِ في المكاسب >>¹.

وفي الآية ثلاث ملاحظات ؛ الأولى التعبير عن السكون بالصيغة الفعلية التي دلالتها الحركة ، وهو تناقضٌ ترفعُهُ الدلالة المعجمية للفظ السكون التي هي صريحة فيه فلا ضيْرَ بعد ذلك من الصيغة الفعلية التي يتيح استعمالها توظيف حرف العلة التي لأجلها سيقَّت الآية ، الثانية التعبير عن الإبصار بالاسم "مُبْصِرًا" يشي بجملته دلالات منها ارتباط أغلب الأعمال والمهن بالبصر وكونه أساسيا؛ وهو أمر لا خلاف فيه ، ولأنَّه بتلك الأهميَّة فإنَّ الاسم أكد في الدلالة عليه ، كما أنَّ النهار هو الظرف الأليق بالتكليف لأنَّ الليل للسبات في الغالب ، والنائم مرفوع عنه القلم وليس في حال الإدراك ، الثالثة في نوع الصيغة الاسمية التي جاءت اسم

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 428/3 .

فاعل "مُبْصِرًا" ؛ ومعلوم أنَّ النهار ليس ممَّا شأنه الإبصار، لكن لمَّ لا يكون في الآية معنى آخر هو أنَّ النهار مُبْصِرٌ ؛ أي جاعلهم مبصرين ، ومُقَدِّرُهُمْ عَلَى الإبصار لما فيه من إضاءة ، وطُويَّ ذكر المفعول إيجازا واقتصادا ، لأنَّ إبصار النهار يسري إلى كل مبصر بشرا أو غير بشر ، وإنما السياق هو الذي خصَّصَ الناس دون غيرهم لأنهم هم المكلفون ؛ الثالثة: تذييل الآيات الثلاث ؛ حيث كان التعقيب في الأولى (يونس) : "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ" ، وفي الثانية (النمل) : "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ، وفي الثالثة (غافر) : "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" ؛ وحيث إنَّ ترتيب سور القرآن توقيفي فإنَّ في هذا الترتيب منطقا وحكمة ؛ إذ إنَّ السمع له المنزلة الأولى من حيث كونه طريقا للعقل ومن ثمَّ الشكرُ ، ولابد لكلِّ سامع أن يعقل ما يسمع عقلا يفضي به إلى شكر آلاء الله ومنه .

وفي قوله جل شأنه: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة الآية 14 ؛ حيث خاطب المنافقون المؤمنين بالجملة الفعلية "آمَنَّا" ، أما شياطينهم فخاطبواهم بالجملة الاسمية المؤكدة "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ" ولم يقولوا : "إِنَّا نَسْتَهْزِئُ" كما قالوا: "آمَنَّا" وفي ذلك قال ابن الأثير >> إنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بـ "إِنَّ" المشددة لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبةٍ ووفورٍ نشاط ؛ فكان ذلك متقبلاً منهم ورائجا عند إخوانهم وأمَّا الذي خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوه تكلفا وإظهارا للإيمان خوفا ومداجاة ، وكانوا

يعلمون أنهم لو قالوه بأوكذ لفظ وأشدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطنياً¹.

نتبين من ذلك أنّ العدول إلى الاسم كان طلباً للتوكيد وتصحيحاً لفهم خاطئ يمكن أن يفهمه شياطين المنافقين ؛ يعضد ذلك وروده في أسلوب القصر ، كما يفهم من الأداة "إنما" ، وكذا التوكيد الذي يجعل الخبر إنكارياً بمعنى أنهم إنما قالوا ما قالوا بعد أن اهتزّت مكانتهم عند شياطينهم ، ووضعهم موضع التهمة وهو موضع يتطلب الدفاع عن النفس ، وتصحيح الموقف بالتأكيد على معيّنهم للشياطين مما أوجب أن تتظاهر على ذلك أساليب التوكيد الثلاثة ؛ الأداة "إن" ، والقصر بـ"إنما" ، والاسمية ؛ قال الزمخشري: >> فإن قلت لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية محققة بـ"إن" ؟ قلت ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما <<² وهو فعلاً كذلك لأن المقصود تبرئة أنفسهم عند شياطينهم مما ينسب إليهم من اتباع المؤمنين .

و>> لأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين "أمناً" وفي خطاب إخوانهم "إننا معكم" وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة<<³.

وكذلك في قوله تعالى من سورة الواقعة: ﴿ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ

﴿ الآية 59 ، و﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ﴿ الآية 64 ،

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 51/2 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف : 64/1 .

³ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 51/2 .

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ الآية 69 ، ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ الآية 72 ؛ حيث عبر في الآيات الثلاث عن فعل البشر بالصيغة الفعلية وعن فعله - تعالى - بالصيغة الاسمية وكم بين فعل الخالق وفعل المخلوق؟!

قال النسفي : >> بدأ بذكر خلق الإنسان فقال: " أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ " لأنَّ النعمة فيه سابقة على جميع النعم ثم بما فيه قوامه وهو الحَبُّ فقال : "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ" ، ثم بما يُعجن به ويشرب عليه وهو الماء ، ثم بما يخبز به وهو النار فحصل الطَّعام بمجموع الثلاثة <<¹

وقد مر في الفصل السابق أن التعبير بالفعل من دلالاته تجدد فعل البشر في كل من الخلق ، وهو خلق مجازي لأنَّ المقصود كما تقدَّم هو فعل التكاثر ، وكذا فعل الزرع ، أما الخلق الحقيقي ، والزرع الحقيقي ، والإنشاء الحقيقي ، والإنزال الحقيقي فإنَّ ذلك كله من فعل الله الذي لا يشاركه فيه غيره ولذلك خصَّ بالصيغة الاسمية التي أولى دلالاتها الثبات والدوام ، والله أعلم .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَعُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿٦٨﴾ الآية 31 ؛ لم يقل : في المحسنين "بِمَا عَمِلُوا" كما قال في المسيئين : "بِمَا أَسَاءُوا" ولكنه قال: "بِالْحُسْنَى" ، وفي ذلك إشارة إلى جزيل ثوابه وأنه يتجاوز إحسان العباد أي

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي : 220/2 .

>> بأفضل ممّا عملوا ، وفيه إشارة مضاعفة الحسنات كقوله تعالى من جاء بالحسنة فله خير منها" <<¹.

2- العدول عن الاسم إلى الفعل

أمّا العدول إلى الفعل فإنه يقع لما فيه من دلالة على الحركة و التجدد ولأنه كما قال الجرجاني >> يقتضي مزاولة و تجدد الصفة في الوقت <<² ، كما أنّ التعبير بالفعل يعطي العبارة صبغةً من الحركة في الأداء لا ترى في الأسماء والصفات.³

والفعل في الحقيقة هو أداة التعبير عن الأحداث المتحركة لأنّه أداة سردية بامتياز ، والسردُ أحدُ الأنماط النصّية التي لا يمكن تغييبها عن أي خطاب يتناول أخبار الأمم الماضية ومستقبل الناس ، كما الحال في القرآن الذي جاءت كثير من تعليماته وتوجيهاته في إطار القصص الهادف إلى الاعتبار بالأمم الغابرة ، والصيغُ الفعلية لا تنفكُ عن القصص بحال ؛ إنّ في السرد، أو الحوار ، أو حتى التعقيبات التي كثيرا ما يُختم بها قصص القرآن .

وليس القصص ؛ أو السرد القصصي هو الإطار الوحيد الذي يستوعب الصيغ الفعلية - أو تستوعبه - في القرآن ، و لكن القرآن ، بما هو رسالة سماوية أساسها توجيه الناس وإمدادهم بالتعاليم - والتعاليم أفعال - التي تكفل لهم سعادة دنياهم و الظفر برضى الله ، يجد في الصيغ الفعلية أداة مناسبة وبخاصة فعل

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 120/11 .

² - الجرجاني ؛ دلائل الإعجاز ، ص: 175 .

³ - ينظر: محمد مفتاح ؛ تحليل الخطاب الشعري: ص 60 .

الأمر الصريح ، أو المضارع المقترن بلام الأمر، وكذا أسلوب النهي من مثل :
آمِنُوا ، أَسْلِمُوا ، اتَّقُوا ، قُوا ، هَاتُوا ، أْتُوا ... وليكتبْ ، وليشهدْ ، ليتَّق ... ولا
تقولوا ، لا تهنوا ، لا تطعْ ، لا تُسرفوا ...

والمواظب على تلاوة القرآن ، وبخاصة المتأمل في ما يتلوا يمكنه أن يكتشف
ما للفعل من دور في إعطاء النص حركة يترجمها تلاحق الأحداث ، لأن كثرة
الأفعال معناها كثرة الأحداث ؛ لذلك فإنَّ >> قدرا كبيرا من تحريك أجواء
المشاهد في الصور عائد إلى الأفعال<<¹ ، وما ذلك إلا لأنَّ العدول إلى الفعل
يكفل نقل الحدث و هو في وضع الحركة ، و لا شك أنَّ الحركة أدعى إلى الانتباه
، لأنَّ المشاهد الساكنة لا تثير الفضول ، كما أنَّ جوهر الحياة الإنسانية بل الحياة
كلها هو الحركة ، ولم تسمَّ الكائنات حيَّة إلا لما فيها من حركة ، والحركة أساس
الاستخلاف الذي خصَّ به الإنسان، والعبادات كلها من صلاة وزكاةٍ وحجٍّ وصومٍ
... أساسها الحركة ، وإذا عرفنا هذا أدركنا مكانة الفعل وأهميته في النص
القرآني الذي تناول كلَّ هذه الموضوعات و غيرها .

ومن العدول إلى الصيغ الفعلية قوله تعالى خطابا لبني إسرائيل: ﴿ يَبْنِي
إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
البقرة الآية 47 ؛ حيث عدل عن المصدر الصريح " تفضيلي " إلى المصدر المؤول
" أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ " .

والآية >> عظة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراي مهاجر
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتذكيرٌ منه لهم بما سلف من أياديه عليهم
في صنعه بأوائهم استعطافا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد - صلى الله

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني : 77 .

عليه وسلم - <<¹ ، والمقصود : >> "أني فضلتُ أسلافكم ، فنسب نعمه على آبائهم و أسلافهم إلى أنها نعم منه عليهم ؛ إذ كانت مآثرُ الآباء مآثرَ للأبناء >>² ، و >> معنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعهُ لغيرهم ؛ وهي شرف النَّسَب وكمال الخلق ، وسلامة العقيدة ، وسعة الشريعة ، والحرية ، والشجاعة ، وعناية الله - تعالى - بهم في سائر أحوالهم <<³ .

وقد ذكر - تعالى - في البداية النعمة بالصيغة الاسمية " نِعْمَتِي " ، ثم وصفها بالموصول المتضمن فعل الإنعام مسنداً إليه تعالى ؛ وفي التعبير عن الإنعام بالفعل ما يتناسب و كثرة النعم التي سبق ذكرها ، وتجدها ؛ ماضيا ، وحاضرا ، ومستقبلا ، ثم عطف على الجملة قوله تعالى : " وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ " >> أي انكروا نعمتي وتفضيلي <<⁴ ، وفي الصيغة الفعلية " فَضَّلْتُكُمْ " كذلك تناسبٌ مع تعدد أفضاله تعالى على بني إسرائيل وتجديدها ، وفيها كذلك - لارتباطها بالزمن و لمجيئها بصيغة الماضي - معنى التحقق ، أي أن تفضيله تعالى إيَّاهم كان ووجد ، وهو بصدد الإخبار عنه خلاف الصيغة الاسمية " تَفْضِيلِي " التي تفيد - لتحررها من الزمن - معنى الإطلاق و لا شك أن إدراج الفعل ضمن الأحداث التي تحققت و فرغ منها أكد من إطلاقه الذي لا يرتبط بزمن ، وربما ارتبط بالمستقبل فهو عند ذلك لم يتحقق أصلا ، أما نعم الله تعالى على بني إسرائيل و بخاصة لما كان المقصود أسلافهم - كما تقدم - فإنها صارت من حوادث التاريخ ، كما أن مجرد ارتباطها بأسلافهم يناسبها الفعل الماضي .

¹ - الطبري ؛ تفسير الطبري : 523/1 .

² - نفسه : 264/1 ، وينظر : الجالين ؛ تفسير الجالين : 11/1 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 484/1 .

⁴ - الزمخشري ؛ الكشاف 127/1 .

كما أنَّ التعبير عن النعمة والفضل بالصيغة الفعلية من شأنه أن يستدعي إلى أذهان المخاطبين صورَ التفضيل والإنعام ، و يستحضر في عقولهم توالي هذه النعم والأفضال فتلين قلوبهم إلى الدين الجديد ؛ ذلك أنه >> إذا استعير من الشيء حيزُ الفعل فقد استعيرت حالته في لحظة الحركة التي تستطيع أن تكون بحجم الفكرة المجسمة وهذا إيغال في إشراك المتلقي لأنَّ المتحرك يلفت النظر أكثر من الساكن <<¹ لذلك فإنَّ التعبير بالفعل يستمد قوته وفاعليته من دلالاته على الحركة التي تشبه في عملية التواصل وسيلة الإيضاح التي تقرب الفكرة و تجسمها بنقلها من المجرد إلى المحسوس .

ومن العدول إلى الفعل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [١٦] الأعراف الآية 29 ؛ إذ >> كان التقدير أمر ربِّي بالقسط وإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإنَّ الصلاة من أوكذ فرائض الله على عباده <<² ، ومعنى >> أقيموا وجوهكم أي توجّهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة <<³ ، و >> أن الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد لأنَّ ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة <<⁴ ، ولمّا كان معنى إقامة الوجوه هو التوجه إلى الله تعالى في الصلاة ، وكانت الصلاة ممّا شأنه أن يتكرر ويتجدد في كل وقت فإنَّ الفعل أنسب لها من الاسم ، كما أن >> إقامة

¹ - أحمد ياسوف ؛ الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع ،

سوريا ، ط2 ، 2006 ، ص221 .

² - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 14/2 .

³ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 188/7 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 87/4 .

الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى في مواضع عبادته بحال المتهيء لمشاهدة أمرٍ مهمٍّ حين يوجّه وجهه إلى صوبه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فذلك التوجّه المحض يُطلق عليه إقامة لأنه جعل الوجه قائماً ، أي غير متغاضٍ ولا متوان في التوجه و هو في إطلاق القيام على القوة في الفعل <<¹ ، ولما كان المقصود بالإقامة كمال الاستعداد والتوجه إلى الفعل بالكليّة ، فإنّ صيغة الأمر التي جاء عليها فعل الإقامة فيها من الدلالة على ذلك الشئ الكثير لأنها ، فضلاً عما تدلُّ عليه من معنى التجدد كما تقدم ، تعطي لأحد طرفي الخطاب المنزلة العليا منزلة الأمر ، و تنزل الطرف الآخر منزلة الأمور الذي يتوجّب عليه الخضوع و التذلل والإقبال على الأمر إقبال العبد على سيّده ، وذلك من تمام التسليم و الإقامة .

ومن العدول إلى الفعل قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ سورة الأنعام الآية 96 ؛ حيث قال في الأولى: " فَالِقُ " و لم يقل: في الثانية " جَاعِلُ " و هذا على قراءة عاصم ، و حمزة وخلف² ، و مما يؤيد كونه عدولا عن الفعل قراءة الجمهور >> بصيغة اسم الفاعل وجرّ "الليل" لمناسبة الوصفين في الاسمية والإضافة <<³ ، و كذا قراءة إبراهيم النخعي: " فَلَقَ الْإِصْبَاحَ " ⁴ ، بمعنى أنّ للآية ثلاث قراءات هي :

¹ - السابق : الصفحة نفسها.

² - ينظر : الدّاني ؛ التيسير في القراءات السبع ، ص 107 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها ، وينظر: الكشاف 112/2 .

⁴ - الزمخشري ؛ الكشاف: 112/2.

- 1- فالفُ الإِصباحُ و جاعلُ اللَّيْلِ سَكَنًا (الجمهور)
- 2- ففَلَقَ الإِصباحَ و جعلَ اللَّيْلَ سَكَنًا (إبراهيم النخعي)
- 3- فالفُ الإِصباحُ و جعلَ اللَّيْلَ سَكَنًا (عاصم وحمزة و الكسائي وخلف).

وحيث إن القراءتين ؛ الأولى و الثانية لا يختلف فيها التعبير الثاني عن الأول في كونهما اسمين معا أو فعلين معا فإنه ليس فيهما عدول ؛ أما القراءة الثالثة فإن ترك الاسم إلى الفعل في التعبير الثاني لا بد أن يحمل دلالة إضافية لأن >> الدراسات البيانية ترفض أن يكون هناك تغيير في نظم الكلام تستبدل معه كلمة بأخرى لا يتبعه تغيير في المقاصد والأغراض<<¹ .

ومعنى الآية >> أن الله فلق الإصباح بقدرته نعمةً منه على الموجودات ولم يجعل النور مستمرا في الأفق فجعله عارضا مجزءاً أوقاتا لتعود الظلمة إلى الأفق رحمةً منه بالموجودات ليسكنوا بعد النصب و العمل فيستجموا راحتهم<<²

وإذا كان المفهوم من التعبير بالاسمية في القراءة الأولى هو اطراد هذه الظاهرة الكونية وأن " فلق الإصباح " و " جعل الليل سكنا " أمرٌ مكرور لا يتخلف إذ إنه من الظواهر الطبيعية الدورية المنتظمة فإن التعبير بالفعلية في القراءة الثانية فيه معنى تجدد الفعل ، و أنه متكررٌ على الأيام بما يعني أن القراءة الأولى تشير إلى القانون الكوني الثابت الذي لا يناله التبدل ، وهو قانون تعاقب الليل والنهار، و القراءة الثانية تشير إلى الفعل في حد ذاته وتجده كل دورة شمسية تماما مثلما رأينا في اطراد قانون التكاثر و تجدد الفعل فيه في آيات الواقعة .

¹ - محمد أمين الخضري ؛ من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص 13 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 391/32 .

أما القراءة الثالثة محل الاستشهاد فإن فيها جمعا للدالتين ؛ دلالة ثبات الظاهرة واطرادها في التعبير بالاسم " فالق " ، ودلالة التجدد اليومي للحدث المفهوم من الصيغة الفعلية " جَعَلَ " ، والملاحظ أن التعبير بالفعل " جَعَلَ " هنا لا يخص الماضي كما قد يفهم من صيغة الماضي بل إنه >> دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة <<¹ و بالتالي فإن قوله تعالى : " جَعَلَ " في وَزَانَ الفعل " قَرَّرَ " أو " قَدَّرَ " أي أن سكون الليل تقدير إلهي في حكم القانون الثابت المطرد ، وبذلك يظهر أن الصيغة الفعلية هنا أُشْرِبَتْ دلالة الشمول والاستمرار التي هي من خصائص الاسمية ، و لكن دون أن تفقد دلالتها على الحركة والتجدد ، تماما كما أن الصيغة الاسمية " فالق " أُشْرِبَتْ دلالة الزمن الماضي المفهوم من إضافتها ، ذلك أنها لو لم تضاف ونوّنت : " فالقُ الإصباح " لدلت على المستقبل ، وفي كل ذلك تكثيف للدلالة في الصيغ .


وفي كل قراءة وجه من وجوه التدليل على مطلق قدرته ، ودلالة من دلالات العظمة الموجبة لعبادته تعالى .

ومن العدول إلى الفعل كذلك ما ذكرناه في الفصل الأول من الاستعاضة عن المصادر الصريحة بالمصادر المؤولة و الأسماء الموصولة ، وما في ذلك من توظيف للصيغ الفعلية التي تومئ إلى الحركية والتجدد ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ المائدة 66 ، وقوله تعالى :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إبراهيم 21 ، وغافر

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف 112/2 .

الآية 47 : ﴿ وَإِذِ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَتُوا لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾
 و قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴾  النجم الآية 31

وهي نماذج عن آيات كثيرة تمَّ فيها ترك المصادر الصريحة وهي صيغ اسمية
 إلى المصادر المؤولة المكوَّنة من الحروف المصدرية وما تدخل عليه من أفعال ،
 أو الأسماء الموصولة وصلاتها ، وأولى الدلالات المستفادة من مثل هذا الأسلوب
 تكثير المبنى المفيد تكثير المعنى ، فضلا عما في المباني الفعلية من دلالات على
 الحركة و التجدد على نحو ما نجد في قوله : " ساء ما يعملون " الذي يفيد الفعل
 فيه تعدد الأعمال المشينة الصادرة عن المنافقين لأنَّ " الأمة المقتصدة " من اليهود
 هي الأقل بدلالة الحرف "من" وهم الطائفة المؤمنة (عبد الله بن سلام و أصحابه
 وثمانية و أربعون من النصارى)¹ ، أما الكثرة الكاثرة فهم الذين ساءت أعمالهم
 وقيل هم كعب بن الأشرف و أصحابه والروم² وبذلك تظاهرُ الدلالةُ الصرفيةُ في
 الفعل " يعملون " - وبخاصة زمن المضارعة فيه - الدلالة المعجمية في لفظ
 "كثير" الذي جاء مبتدأ لأهميته ، والعرب تقدم المعنى به ، و لولا أنَّ البحث لا
 يستهدف حصر هذه الأساليب بقدر ما يسعى للوقوف على بعض دالاتها لسقنا
 آيات كثيرة استعملت فيها المصادر المؤولة والموصولات بدلا من المصادر
 الصريحة .

¹ - ينظر: الزمخشري الكشاف 46/2 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

الفصل الرابع

الدلالة التداولية

- المبحث الأول: المخاطب
- المبحث الثاني: المتلقي
- المبحث الثالث: السياق

لأنَّ >> العلاقات بين القضايا أو الجمل في كل خطاب لا يمكن على وجه الاستغراق أن توصف في حدود سيمانتكية وحدها <<¹، ولأنَّ التداولية >> هي دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريَّات الدلالية <<² من منطلق أنَّ >> الدراسة التداولية امتداد للدراسة الدلالية <<³ ، ومن منطلق أنَّ البحث التداولي لا يقف عند جانب واحد من اللغة و إنما يستوعبها كلَّها⁴ كان هذا الفصل الذي نسعى أن تستدرك مباحثه بعضا من جوانب المعنى التي لم يتناولها الفصلان السابقان باعتبارها تتجاوز اختصاص البحث الدلالي ؛ الذي يتلخص في دراسة علاقة العلامات بمراجعتها إلى الحقل التداولي ؛ الذي يحدِّده تعريف التداولية بأنها >>العلم الذي يدرس علاقة العلامات بمؤوليتها <<⁵.

و المعاني المتوخَّاة في هذه المباحث هي المعاني التي تتصل بالمتكلم من حيث كونه مُنشئ الخطاب و بانيه ، وبالمتلقِّي من حيث كونه هدفَ الخطاب و غايته ، وبالسياق الذي يُعدُّ كلُّ تحول فيه تأثيرا في المتلقي ، وفي مضمون الخطاب ، ومن المسلَّم به أنَّ البحث الدلالي إنما يتناول من هذه المذكورات نصَّ الخطاب

¹ - فاندريك ؛ النص والسياق - استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، تر: عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، د.ط ، 2000م ، ص 275 .

² - علي محمود حجي الصراف ؛ في البراغماتية - الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1431هـ - 2010م ، ص 03 .

³ - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، ص: 5، 59 ، 102 .

⁴ - ينظر: محمود نحلة ؛ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 2002م ، ص10 .

⁵ - صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، ص 32 ، وينظر: نعمان بوقرة ؛ المدارس اللسانية المعاصرة ، مكتبة الآداب القاهرة ، 2004م ، ص 166 ، وعبد الهادي الشهيري ؛ استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية - ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ط1 ، 2004م ، ص 21 .

فقط ، أمّا باقياها فإنّه من مشمولات البحث التداولي¹ الذي يُعنى بالجزء المنجز من اللغة ؛ أي باللغة حال استعمالها ، و من ثمّ تبيّن أن الوقوف عند الدراسة الدلالية وحدها غير كاف في استهداف المعنى ، و أنّ >> التمييز بين السيمانتيكية والبراغماتية ينطوي على ظلال رمادية في التطبيق العملي حيال تحليل المعنى الذي تؤدّيه اللغات<<² ، و من أجل ذلك كان الفصل التقليدي ببين علم الدلالة والتداولية محل شك قوي³ ؛ ذلك أنّ >> المقولات التداولية تُبنى على المقولات الدلالية <<⁴ .

وهذه المعاني هي معانٍ مستترة وغير مباشرة ، وهي من الخفاء والدقة بحيث لا يلتفت المتلقي إليها إلا العدول الواقع في بنى الكلمات وصيغها ، وعند ذلك يكون العدول أداة بيانية تخدم التواصل من وجهتين ؛ الوجهة الأولى هي الوجهة الدلالية بما تتضمنه الصيغ المعدول إليها من دلالات ومعانٍ إضافية ، و الوجهة الثانية هي الوجهة التداولية وهي كامنّة في ما يتضمنه العدول من تنبيه المتلقي إلى المعنى الدلالي ، أو إلى بعض المعاني الحافة ، كتعظيم المتلقي ، أو الاستهانة به ، أو توبيخه ... أو مراعاة وضع المرسل الذي يمكن أن يفيد العدول الإشارة إلى صفته ، أو سلطته ... بما يؤثر على المتلقي و يوجب استجابته لنصّ الخطاب خوفاً أو طمعا ، أو احتراماً أو التزاماً ... ، أو مراعاة السياق الذي وقع فيه الخطاب و ما يوجبه من كفايات التلقّي ، ذلك أنّ سيّاق الحديث في جلسات المحكمة مثلا لا محمل له إلا الجدّ والتنفيذ ، على خلاف سياق الخطاب الدّعويّ الذي يشعّر المتلقي

¹ - ينظر، نعمان بوقرة ؛ المدارس اللسانية المعاصرة ، ص 165 ، 166 .

² - لحسن شاهر ؛ علم الدلالة ، السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية ، دار الفكر ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2001م ، ص 159 .

³ - صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى ممن النحو إلى التداولية ، ص 26 .

⁴ - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، ص 103 .

فيه بهامش فسيح للحرية ، وسياقُ الخطاب العسكري يختلف عن سياق الخطاب الإعلاميِّ و هكذا .

وإذا كانت المعاني لا تنفكُ أن تكون صريحةً أو ضمنيةً ، و كان الضمنيُّ أوفرَ حظاً في الخطابات من الصريح¹ فإنَّ اختصاص الدرس الدلالي بالجانب الصريح من اللغة يجعل بحث الضمنيِّ في إطار الدراسة التداولية من الأهمية بمكان و يُلزم كلَّ باحث في دلالات النصوص ومعانيها بأنَّ يجعل له نصيباً في بحثه ، ذلك أنَّ << البعد التداولي للغة لم يعد بحاجة إلى الاستدلال عليه >>² ، وبخاصة إذا كان << المعروف من الخطاب القرآني تغليبه الخطاب غير المباشر على الخطاب المباشر لدواعٍ مختلفة ... حتى ورد في المأثور أنَّ القرآن نزل على لغة "إياك أعني و اسمعي يا جارة " >>³.

وأياً كان المعنى بين الإصرار والتضمين فإنه لا بد أن يكون عليه دليل في الكلام ، و << الكلام مداره على معرفة مقتضيات الأحوال؛ حال الخطاب من جهة نفس الخطاب ، أو المخاطب ، أو المخاطب ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، و بحسب مخاطبين ، و بحسب غير ذلك >>⁴ .

من أجل كل ذلك خصَّص البحث هذا الفصل لمقاربة بعض المعاني المتصلة بطرفي الخطاب و سياقه - استكمالاً للمعاني التي تضمنتها بنية الخطاب و تناولها الفصلان السابقان - وفق رؤية تداولية في ثلاثة مباحث ؛ يتناول الأول المعاني

¹ - Philippe blanchet ; la pragmatique d'austin à goffman , paris bertrand la coste , 1995 , p 90 .

² - C .K Oreccchioni ; l'enociasion de la subjectivité dans le langage , Armond colin edition , paris , 1980 , p 217 . 11 ص

³ - محمد مصطفيوي ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 2009 ، ص 336 .

⁴ - الشاطبي ؛ الموافقات في أصول الشريعة ، دار المعرفة ، بيروت ، 1994م ، 347/3 .

المتعلقة بالمخاطب ، و يتناول الثاني المعاني المرتبطة بالمتلقي، فيما يختص الثالث بمقاربة المعاني ذات الصلة بسياق الخطاب .

المبحث الأول: المخاطب

يستمد المخاطب أهميته التداولية من كونه صاحبَ الخطاب و مصدره وأنه الأحرصُ على نجاحه في التواصل مع الآخر وإبلاغه من حيث كان البادئ بالخطاب أو المجيب إليه ، وتوخياً لهذه الغاية فإنه يستفرغ الجهد في انتقاء ما يراه مناسباً من عناصر اللغة و أساليبها ، ولا زال القراء يعرفون الكتابَ بأساليبهم فيستملحون هذا و يمجّون ذلك .

ولما كان الأسلوب هو الطريق إلى المتلقي، و كان المتلقون مختلفين أحوالاً ومقامات ، فإنَّ كل رسالة مرهونة بملاءمتها لأحوال المتلقين و ظروفهم ، ومن ثمَّ فإنَّ هامش حرية المخاطب تضبطه موافقته لحال المتلقين ؛ ذلك أنَّ اللغة التي هي بالأساس ذات وظيفة تواصلية قد تتضمن بعضُ عباراتها ما يقف حائلاً دون التواصل .

و الحقيقة أنَّ المخاطب يقع تحت تأثير ثلاثة عوامل هي :

أ- حالته النفسية ومزاجه هو نفسه: ذلك أنَّ عبارة الخائف ليست كعبارة الأمن ، وعبارة المتوعّد غيرُ عبارة المهنيّ ، وأسلوب التهديد غير أسلوب الرجاء... لأنَّ >> ثمة ارتباطاً وثيقاً بين هيئة الكلام و ما يعتمل في النفس من مشاعر و أفكار ، و العبارة الصادقة هي التي تحمل أنفاس صاحبها <<¹ ، وقد فطن السكاكي إلى العلاقة بين أمزجة المتكلمين و أساليبهم و أشار إلى أنَّ بعض الالتفاتات إنّما هي نتيجة لتأثير تلك الحالات الشعورية² .

¹ - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 227 .

² - ينظر : السكاكي ؛ مفتاح العلوم ، تح نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط2 ، 1987 ،

ب - طبيعة المتلقي: إذ إنَّ >> المتكلم بعامة وكيف صيغة خطابه بحسب أصناف الذين يخاطبهم <<¹ فيأمر من دونه ويترجى من فوقه ، ويعدل إلى الجمع في خطاب ذي السلطان ومن في حكمه ، وإلى المخاطبة عند المواجهة ، وإلى الغيبة عند الحكاية ، و نحو ذلك مما تستوجبه صفة المتلقي .

و يذهب البعض إلى أنَّ خيال المتكلم يتجاوز المخاطب إلى استحضار أشخاص آخرين غيره ، فلا يتكلم إلاَّ وقد صاغ عبارته بما لا يتعارض ومستويات من استحضر أو يمسَّ بمكانتهم ، فينتج عن ذلك أنَّ >> تتغير مرجعية الضمير فيقوم الحاضر مقام الغائب ، والغائب مكان الحاضر ، و ما يترتب على ذلك من تأنيس المخاطب و تسليته ، أو تحقيره وتبكيته وغير ذلك من معاني الالتفات التي لا تُستفاد إلاَّ من خلال السياق و التركيب <<² .

و هذه العلاقة القائمة بين المخاطب و المتلقي تُعتبر صمام الأمان في التواصل ، والحذق كلُّ الحذق من المخاطب - على وجه التحديد - حفظها و مراعاتها إلى الحد الذي يجعلها في أهمية الرسالة ذاتها ، و تتبني هذه العلاقة - في ما رآه التداوليون - على خمسة مبادئ هي :

1- مبدأ " التعاون والاقْتِصَار على جانب التبليغ " للفيلسوف الأمريكي بول غرايس ، تلخصه العبارة : "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه " .

2- مبدأ " التآدب و اعتبار جانب التهذيب " لـ : روبين لاكوف تلخصه العبارة "لتكن مؤدبا"

¹ - عبد السلام المسدي ؛ الأسلوب والأسلوبية ، 63 ، 64 .

² - محروس محمد محروس ؛ البنية الصرفية ، ص 193 .

3- مبدأ "التواجه واعتبار العمل" لـ : براون و ليفنسن تلخصه العبارة "لتصن وجه غيرك" .

4- مبدأ "التأدب الأقصى و اعتبار التقرب" لـ : ليتش تلخصه العبارتان : " قَلِّ من الكلام غير المؤدب " و " أَكْثِر من الكلام المؤدَّب " .

5 - مبدأ " التصديق واعتبار الصدق والإخلاص" نسبةً عبد الرحمن طه إلى الماوردي في كتابه " أدب الدنيا و الدين" ¹ .

وهذه المبادئ من شأنها أن تحفظ حدود العلاقة بين المخاطب والمتلقي ، وتبقي على المسافة بينهما بما يضمن للرسالة البلاغ .

ج - السياق : وهو جملة الظروف التي تحيط بالفعل الكلامي من زمان ومكان وعلاقة المخاطب بالمتلقي وغير ذلك مما ليس من عناصر اللغة وهو >> مجموعة من العوامل التي يتعين على الفرد الاحتفال بها حتى يُوفَّقَ في انجاز فعله اللغوي<<² ، وحين نتحدث عن السياق أو المقام فإنَّ الكلام متصل حتماً بطرفي الخطاب ؛ إمَّا من حيث مكانة كل منهما إزاء الآخر ، أو من حيث ارتباطهما بمكان القول وزمانه ، ولذلك فإنَّ أهمية السيِّاق لا تقلُّ مراعاتها عن مراعاة حال المتلقي .

وحيث إنَّ المخاطب في القرآن ليس دائماً الذاتَ الإلهية ، كما الحال في القصص ، أو خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - المسلمين أو خطابات المسلمين مع الكافرين أو غير ذلك مما حواه النصُّ القرآني فإنَّ المخاطب يقع

¹ - ينظر: طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط3 ، 2012م ، ص 238 - 253 .

² - الجلاي دلاش ؛ مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها ، تر محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1996م ، ص 40 ، نقلاً عن خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ص 93 .

تحت تأثير كل ما ذكرنا من العوامل ، و قد قال الله تعالى في توجيه نبيه صلى الله عليه و سلم إلى الطريقة المثلى في الدعوة إلى سبيله: ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۗ وَجَدِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۗ ﴾ النحل الآية 125 ، وفي هذه الآية دليل على أن نجاح الدعوة مرهون بطريقتها وكيفيتها ، وأن العدول بالعبارة عن سياقها قد يكون طلبا لهذه الحكمة التي بها وحدها يُستمال المتلقي فيستجيب ؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۗ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۗ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ ﴾ آل عمران الآية 159 ، ومن هنا تمسُّ الحاجة إلى الوقوف عند بعض صور العدول طلبا لما فيها من دلالات تداولية .

أمَّا في الآيات التي يكون المخاطب فيها هو الله تعالى فإنه منزّه عن أن يقع تحت تأثير العوامل السابق ذكرها ، ولكن تلك الآيات تتضمن بحكمته ولطفه عدولا إلى الملاطفة حيث يكون السياق لمثل هذه المعاني ، وتتضمن بحكمته كذلك عدولا إلى التهديد أو الوعيد أو التوبيخ أو نحو ذلك حينما يتطلب السياق ذلك .

وفي ما يلي نماذج نحاول من خلالها الوقوف على البعد التداولي للعدول حيث يكون متصلا بالمخاطب ، نتناول ذلك في مطلبين ؛ يتضمن الأول العدول الذي يشير إلى مكانة المخاطب و يتناول الثاني الأفعال الكلامية الإنجازية التي يشير إليها العدول في عبارة المخاطب .

1-مكانة المخاطب

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ النساء الآية 64 خطابا

للنبي صلى الله عليه وسلم وتوبيخا للمتخاصمين الذين لم يستغفروا الله و لم يرضيا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم¹.

الشاهد في الآية أنها عدلت عن تعريف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بضمير المخاطب إلى النص على صفته (الرسول) إذ السياق يوجب أن يكون التعبير "استغفرت لهم" و لكنه تعالى >> لم يقل: "استغفرت لهم" و عدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيما لشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعظيما لاستغفاره ، و تنبيها على أن شفاعته من اسمه "الرسول" من الله بمكان <<² ، يؤيد هذا المذهب أن العدول كان إلى لفظ "الرسول" دون الاسم العلم "محمد" أو لفظ النبي ، أو أي صفة أخرى من صفاته - صلى الله عليه وسلم - ، و اعتبار هذه الأهمية يعتضد بتردد لفظ "الرسول" في القرآن أكثر من ثلاث وخمسين مرة في مقابل الاسم العلم "محمد" الذي لم يذكر إلا أربع مرات .

¹ - عن قتادة والشعبي >> أن يهودياً اختصم مع منافق اسمه بشر فدعا اليهودي المنافق إلى التحاكم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لعلمه أنه لا يأخذ الرشوة ، ولا يجور في الحكم ، ودعا المنافق إلى التحاكم عند كاهن من جُهينة كان بالمدينة ، وعن ابن عباس أن اليهودي دعا المنافق إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن المنافق دعا إلى كعب بن الأشرف فأبى اليهودي ، وانصرفا معا إلى رسول الله ، فقضى لليهودي ، فلما خرجا قال المنافق لا أرضى ، انطلق بنا إلى أبي بكر ، فحكم أبو بكر بمنزل حكم رسول الله فقال المنافق انطلق بنا إلى عمر ، فلما بلغا عمر وأخبره اليهودي الخبر وصدقه المنافق قال عمر: رويدكما حتى أخرج إليكما ، فدخل وأخذ سيفه ، ثم ضرب به المنافق حتى يرد ، وقال هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله ورسوله ، فنزلت الآية ، فقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فلقبه النبي بالفاروق << الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 102/2 ، 103 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف 460/1 ، وينظر: الخطيب القزويني ؛ إيضاح التلخيص ، شرح محمد خفاجي ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ط3 ، 1989م ، ص 161 .

ولأهمية هذا الوصف >> فإنه عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته على طريقة "حكم الأمير بكذا" مكان "حكمت"، وتعظيم الاستغفار من جهة إسناده إلى لفظ ينبئ عن علو مرتبته من جهة التعلق بالرسالة <<¹ ، كما أن في لفظ "الرسول" إشارة إلى تميزه - صلى الله عليه وسلم - من جهة الحكومة إذ إن حكومته مؤيدة بالعصمة التي يختص بها دون سائر البشر، و من باب أولى دون من احتكموا إليهم، والمقام يستدعي ذلك لأن غاية ما يطلبه المتخاصمون حكم عادل، وهذا المعنى ، حتى وإن تضمنه ضمير الخطاب في "استغفرت" ، "إلا أن ذلك عند المؤمنين به دون غيرهم ، فيكون في ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - تنويه و تذكير برسالته و دعوة إلى اتباعه لأنه الرسول.

وفي لفظ "الرسول" كذلك قيمة حجاجية تغيب في الضمير ذلك أن العبارة عندئذ تتضمن أن المخاطبين ، أو بعضا منهم ينكر ، أو يشك في هذه الصفة ؛ فكان في ذكرها نص على ثبوتها و صدقها و ما يترتب على التسليم بها من الإذعان لصاحبها ، و >> العدول في مثل قول "ال خليفة يأمركم" ... قصد من المتكلم أن يلفت انتباه مخاطبه إلى ظروف الخطاب ودواعيه ولوازمه ، مما يدفع إلى تلقي الأمر بهذه اللوازم و الظروف و يربّي في نفسه بواعث الالتزام بالأمر و تلقيه <<² ، و بحسب هؤلاء المتخاصمين أو من سواهم أن يعلموا أنهم يخاطبون رسولا من عند الله ليضعوا الخطاب حيث يجب أن يكون .

وقد تقدم هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، وهي صريحة في الدعوة إلى طاعة الرسول - صلى الله عليه

¹ - الشهاب الخفاجي ؛ حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ، طبعة بولاق ، القاهرة ، 1283 هـ ، 151/3 .

² - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية: ص 142 .

وسلم- لأن الغاية من إرسال جميع الرسل إنما هي طاعتهم فيما يبلغون عن ربهم ، و قد تضمنت كذلك عدولا عن ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله: "بإذن الله " لأنَّ المكان لـ: "بإذننا" لتقدُّم قوله: "أرسلنا" ، والعدول إلى الغائب مقرون بالعدول إلى الإظهار الذي أفاد تسمية لفظ الجلالة وما يحيل عليه من عظيم الهيبة والمخافة بما يعني أنَّ طاعة الرسول واجب حتمي لأنها بأمر الله تعالى .

والقيمة التداولية لهذا العدول هي إسباغ الهيبة و الاحترام و لزوم التأدب مع الرسول >> لأنه مؤدِّ عن الله ، فطاعته طاعةً لله ، ومعصيته معصية الله ، و"من يطع الرسول فقد أطاع الله" <<¹ ، وما يترتب على ذلك من تأثير مباشر على المتلقي يجعله يتلقى خطاب الرسول بغير الكيفية التي يتلقى بها أيَّ خطاب سواه ويجعله يستحضر عند كل خطاب أنه مأمور بالسمع والطاعة لأنَّ >> طاعة الرسول- صلى الله عليه و سلم- وجبت بأمر الله ، قال الزجاج : "إلا ليطاع" بإذن الله لأنَّ الله قد أذن فيه و أمر به <<² .

ولعل من آثار هذا النوع ، و إكراما من الله لنبيه - صلى الله عليه و سلم - ، أنه لم يُعص كما عصي بعض الرسل ذلك أنه >> من الرسل من أطيع ، ومنهم من عصي تارة أو دائما ، وقد عُصي موسى - عليه السلام - في مواقع ، و عُصي عيسى في معظم أمره ، و لم يعص محمدٌ من المؤمنين به المحققين إلا بتأويل ؛ مثلما و قع يوم أحد إذ قال الله تعالى: "وَعَصَيْتُمْ" ، وإنما هو عصيان بتأويل <<³ .

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف: 460/1 .

² - البغوي ؛ تفسير البغوي ، ص 315 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ؛ 109/2 .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء الآية 122] عدولٌ عن ضمير المتكلم إلى الغائب حيث قال تعالى: "وَعَدَّ اللَّهُ"، و لم يقل: "وَعَدْنَا"، أو "وَعَدَّا مِنَّا" لتَقْدُمِ ذِكْرِ ضمير المتكلم في قوله: "سَنُدْخِلُهُمْ".

وقد رافق هذا العدول كذلك عدولٌ عن الإضمار إلى إظهار لفظ الجلالة الذي أفاد ذكره أنّ الوعد هو وعد الله الذي لا تتخلف وعوده، وما في ذلك من مزيد الترغيب و الحث على العمل الصالح لحصول الثقة من العاملين في أنّ أجورهم مكفولة ومضاعفة لأنه وعد بها و تكفل بها من هو الله، و >> "وَعَدَّ اللَّهُ" مصدر مؤكد لمضمون "سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ" وهو بمعناه؛ فلذلك يسمي النحاة مثله مؤكداً لنفسه أي مؤكداً لما هو بمعناه... و قوله: "حَقًّا" لمضمون "سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ"، وجملة "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا" تذييل للوعد و تحقيق له، أي هذا من وعد الله، ووعودُ الله وعودٌ صادقة إذ "لا أصدق من الله قِيلًا" <<¹، >> فإن قلت ما فائدة هاته التوكيدات قلت معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة، وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه ترغيباً للعباد في إيثار ما يستحقون به تَجَزُّزَ وعدِ الله على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان <<².

والمفهوم من كلام الزمخشري أنّ ثمة مقابلةً بين حالين؛ حال الكفار الذين امتثلوا أوامر الشيطان وانتظروا وعوده فأخلفها، وحال المسلمين الصالحين الذين استجابوا لدين الله وانتظروا جزاءهم وهم على ثقة في أنهم سيجدون موفوراً،

¹ - نفسه: 207/2.

² - الزمخشري؛ الكشاف، 492/2.

وهذه المقابلة منعقدة بين شرطين و جزاءين تحقق الشرطان أو بعضهما (عمل الفريقيين في الدنيا) ، والرهان على تحقق الجزاءين ، لذلك فإنَّ المقابلة تقتضي تعزيز موقف المسلمين و تقوية ثقتهم في وعد الله وهو ما نهضت به التوكيدات التالية :

- كونُ الوعد جنات و ما تفيده صيغة الجمع من معاني الكثرة .
 - وصفُ الجنات بأنها فوق أنهار جارية و ما في ذلك من إغراء و ترغيب
 - وصفُهم بأنهم خالدون فيها لا يزولون عنها .
 - التأبيدُ المفهوم من لفظه "أبدا" .
 - الاستفهامُ التقريري الممهور بلفظ " الصدَّق " .
 - صياغةُ المعنى في جملة اسمية و تصدير الآية بالمعنيين أنفسهم، و ما في ذلك من كمال العناية بما قُدِّم.
 - العدولُ عن الضمير إلى الإصرار بلفظ الجلالة و إضافة الوعد إليه بأنه وعد الله و هو ضامنُهُ .
- فيظهر من ذلك أنَّ العدول إلى ذكر لفظ الجلالة ، (و قد أتاحه العدول عن التكلم إلى الغيبة) أسهمَ ضمن باقي التأكيدات الأخرى في تعزيز ثقة المتكلم وهو الرسول - صلى الله عليه و سلم - المبلغ عن ربه في ما يَعِدُّ به من يخاطبهم.
- وبالنظر إلى ما تقدم من أساليب يظهر أنَّ الأكَدَ والضامن لها جميعا هو أسلوب العدول لأنَّه لا قيمة لكل تلك الإغراءات و الأوصاف لو لم يكن من وعد بها هو الله تعالى .

وفي قوله تعالى مفتح الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ^ط قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ ^ط فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ^ط وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ^ط إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ؛ عدول عن الخطاب أو التكلم إلى الغيبة لأن ذكر كاف الخطاب في "يسألونك" يقضي بإجراء باقي الكلام على الخطاب فتكون الجملة التالية : " قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ " ، أو بإيراده على لفظ الغائب ؛ فتكون : " قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ " ، ولكن التعبير عدل عن الأسلوبين إلى الغيبة ، و في ذلك بالضرورة معنى أو معان .

ولإدراك بعض من هذه المعاني لابد من التعرُّض لسبب نزول هذه الآية لما له من ارتباط وثيق بمعناها :

يذكر المفسرون لنزول هذه الآية سببين : الأول هو اختلاف المسلمين في تقسيم غنائم غزوة بدر ؛ ذلك أن الرسول - صلى الله عليه وسلم ، تشجيعاً منه على الصبر في ملاقات العدو - قال : " من أتى مكان كذا فله من النفل كذا ، و من قتل قتيلاً فله كذا ، و من أسر أسيراً فله كذا ، " فلما التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات ...¹ ، فلما ظهر المسلمون على المشركين وقع خلاف بين المسلمين في الأحقية بالغنائم ؛ الشبان حجتهم أنهم هم من أحرز النصر ، والشيوخ حجتهم أنهم كانوا رداءً للشبان وفئةً يبحازون إليهم لو دارت عليهم الدائرة ، واشتدَّ الخلاف بينهم حتى قال عبادة بن الصامت >> نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا

¹ - البغوي ؛ تفسير البغوي : 510 ، 511 .

وجعله لرسول الله - صلى الله عليه و سلم - فقسمه بين المسلمين على السواء¹ .

الثاني: عن سعد بن أبي وقاص قال : >> قُتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعد بن العاص و أخذت سيفه فأعجبني فجننت به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت له إن الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف ، فقال ليس هذا لي و لا لك ، اطرحه في القبض ، فطرحته و بي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي و أخذ سلمي ، فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد أنزلت سورة الأنفال فقال : >> يا سعد إنك سألتني السيفَ وليس لي وإنه قد صار لي فخذهُ >>²

معنى ذلك أن الآية نزلت لفض النزاع القائم في تقسيم الأنفال وتعليم المسلمين الانصياع إلى توجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - خصوصا الذين يسألونه عن الأنفال ؛ >> أي حكم الأنفال وعلمها ، و هو سؤال استخبار لا سؤال طلب وقيل هو سؤال طلب قاله الضحاک وعكرمة >>³ ، ذلك أن قوله : >> "يسألونك " مؤذن بتنازع بين الجيش في استحقاق الأنفال ، و لقد كانت لهم عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها ، و تخالفوا في شأنها >>⁴ .

ويرتبط العدول بسبب النزول بكون فض النزاع بين المتخاصمين - الذي هو سبب نزول الآية - منوطا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بصفته رسول الله ومتصرفا باسمه ، فيكون في العدول إلى ذكر لفظ "الرسول" تذكير و تلويح بهذه

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف: 232/2 .

² - السابق: الصفحة نفسها ، وينظر: صحيح مسلم : 1367/2 ، و 1877/4 .

³ - البغوي ؛ تفسير البغوي: 511 .

⁴ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 248/4 .

الصفة التي ليست لأحد سواه ، و في ذلك من الرادع ما يكفي للامتثال لحكمه خصوصا وأنَّ المخاطبين جميعا من السابقين إلى الإيمان برسالته فكيف لا يرضون حكمه .

قال الزمخشري >> فإن قلت ما معنى الجمع بين ذكر الله و الرسول في قوله: "قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ" قلت معناه أَنَّ حُكْمَهَا مَخْتَصٌّ بِاللَّهِ ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول - صلى الله عليه و سلم - أمرَ الله فيها وليس الأمر فيها مفوضا إلى رأي أحدٍ<<¹.

والجمع بين ذكر الله و رسوله إنما أفاده العدول إلى الغيبة ، وهذا العدول إنما اقتضته مراعاة حال المخاطبين الذين شغلهم حبُّ الغنيمة عن مراعاة وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي يجب على الجميع النزول عند حكمه ، فكان في ذكر صفة الرسول تذكيرٌ و تنويه إلى مقامه - صلى الله عليه وسلم - خصوصا عند من ساورتهم فكرة العمل بنظام الجاهلية في تقسيم الغنائم فلم يكن منهم - رضي الله عنهم - إلا الطاعة و الامتثال.

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّبِعَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١٥٨] الأعراف الآية 158 ؛ لم يقل تعالى : " فآمنوا بالله و بي "

وإنما نصَّ على ذكر الرسول بصفته ، و فيه عدول عن التكلم إلى الغيبة بما يعني أنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يطلب الإيمان بشخصه و ليس في

¹ - الزمخشري ، الكشاف 2/ 233 .

خطابه أيُّ قدرٍ من الذاتية ، و إنما هو يخاطب الناس بصفته رسولا من الله >> ليُعلمَ أنَّ الذي وجب الإيمان به و اتباعه هو هذا الشخص النبيُّ الأُمِّيُّ الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان ، أنا أو غيري إظهاراً للنصفَةِ و تفادياً من العصبية لنفسه <<¹.

والقيمة التداولية لهذا العدول يبينُ عنها استبعادُ و همٍ قد يساور المخاطبين - خصوصا وأنهم جميع الناس و ليسوا المسلمين وحدهم - مفاد هذا الوهم أنَّ المخاطب يدعوا لنفسه و يطلب المجد الشخصي ، >> وفي قوله : "وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ " التفاتٌ من التكلُّم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمدٍ - صلى الله عليه و سلم - <<² وهي إضافة أخرى أفادها لفظ الرسول بصفاته المذكورة لا يُعني عنها ضمير المتكلم فيما لو جرى الخطاب على غير العدول .

و في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١٠١﴾ إِبْرَاهِيمَ الْآيَةَ 01 عدول عن التكلُّم إلى الغيبة في قوله : " بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " لأنَّ الأصل: "بِإِذْنِنَا " لتقدم قوله : " أَنْزَلْنَاهُ " ، وقد مكنَّ هذا العدول من إضافة معنى جديد لا يُمكن منه التزام الأصل هو ذكر المنزَّل ؛ وهو الله تعالى باسم " الرَّبِّ " ، ومن ثم الإضافة إلى ضمير المخاطبين إضافة التشريف بما يفيد أنَّ إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما هو بإذن الله الذي هو ربُّهم ومولاهم ، و في ذلك تذكير للناس بفضل الربوبية التي من مقتضياتها أن يهديَّ الربُّ عبده ، و فيه كذلك بُعد تداولي يتمثل

¹ - السابق: 209/2 .

² - الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير 141/4 .

في إغاطة المعاندين الذين لم يمتثلوا لدعوة الإسلام ، وذلك بمفهوم المخالفة لأنّ في إضافة المُخْرَجِينَ من الظلمات إلى النور إضافة تشريف إلى اسم " الرَّبِّ " إشارةً إلى سلب هذا التشريف عن الذين لم يُخْرَجُوا من الظلمات إلى النور ، و>>لأجل هذا المقصد وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرّاتٍ في قوله: "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " بعد أن كان المقام للإضمار تبعاً لقوله: "نَزَّلْنَاهُ " <<¹ .

وفي العدول إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ وفي العدول إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ قَالَ رَبِّ أَرْجِعُونِ ﴿٢١٠﴾ ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية 99 >> إحياء بأن المكروب المأخوذ بأهوال البحر يخاطب ربه خطاباً مباشراً من غير أن يأخذه الخجل أو الحياء من تقصيره في جنبه ، و كأنه بهذه الدعوات المتضرعة يريد التقرب إلى الله الذي أبعده عن ذهنه في الرخاء <<² ، يعتضد ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۗ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ ﴿ الزمر الآية 08 .

وتبدو الأهمية التداولية لهذا العدول في تخبط المحتضر في رسم المسافة بينه وبين من يخاطب ، فهو يلغيها جملةً حين يضيف المخاطب إلى ضميره في قوله : " رَبِّ " تقرباً من الله و تحنناً إليه ، ثم هو يعيد رسمها في خطاب الله بضمير

¹ - السابق: 180/6 .

² - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 222 .

الجمع المؤننِ بعلوِّ مقام الألوهية و ما يترتب عليه من البعد عن مقام العاصي الذي حانت ساعته و لم يبق له أمل في التوبة.

أو هو يحاول الجمع بين التقرب من الله تعالى ؛ مرّة بإضافة لفظ "الرَّبِّ إلى ضمير المتكلم ، ومرة بتعظيم خطابه بلفظ الجمع ، وفي ذلك إبانة عن الحالة النفسية المأزومة التي يعيشها ، حيث اكتشف أنه على ضلال تامّ ، وأنّ علاقته بكل من كان يعتقد فيهم نفعه أو إغاثنه قد انبثتْ ، وأنّ الجهة الوحيدة التي يمكن التوجه إليها بالاستجداء هي الله تعالى ، فراح يجمع كل وسائل التقرب منه واستعطافه ، وقد مرّ بنا أنّ الحالة النفسية للمخاطب يمكن أن تكون وراء الأساليب التي تمكنه من تكييف خطابه وفق أصناف المخاطبين .

ولعل في التعقيب على الآية بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ بلفظ: " كَلِمَةٌ " ما يشي بأنّ ما قاله المحتضر كان منتظرا منه ، و بالعبارة نفسها ، وفي ذلك تأكيد على دلالات العبارة الصريحة و الضمنية ، وفيه كذلك إلماع إلى أنّ النداء الذي أطلقه المحتضر نتاجٌ منطقي متوقع لحالته النفسية ، وهو بذلك يكتسب صفة التعميم و الشمول لأنّ كلّ من كان في مثل هذه الظروف لا يمكنه إلا أن يُطلق الخطاب ذاته ، وضميرُ الشأن من قوله : " إنها " ينطق بأهمية العبارة التي يُعدُّ ما أشرنا إليه بعضا قليلا من معانيها .

وفي قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ۗ ﴾ الرعد الآية 30 عدول عن التكلم إلى الغيبة في قوله: " بِالرَّحْمَنِ " لأنّ الأصل: " بنا " تبعا لقوله: "أَوْحَيْنَا".

وحيث إنَّ >> العدول عن البنية الأصلية إنباء عن إرادة اعتبار معين يخرج عن محض الإعلام أو الإخبار <<¹ فَإِنَّ طِيَّ الضمير في الآية يشير إلى أَنَّ غايتها أمر وراء مجرد تعيين من يكفر به الكافرون ، لأن ذكر الضمير كاف للنهوض بهذه الدلالة ، و حيث كان القصد إلى ذلك جيء بلفظ " الرَّحْمَنِ " الذي يؤدي هذه الدلالة و يزيد عليها - بدلالته المعجمية وصيغته الصرفية التي تفيد الامتلاء بالوصف - أَنَّ الكافرين يقابلون رحمة الله الواسعة بكفرانهم وجحودهم ، وفي ذلك تعريض بهم لأنَّ مقابلة الخير بالشر ممَّا ينكره العقل بالفطرة ، فتشتمل الآية بذلك على نعي هذه العقول التي تعطلت ، كما أنَّ >> اختيار اسم " الرَّحْمَنِ " من بين أسمائه تعالى لأنَّ كفرهم بهذا الاسم أشد لأنهم أنكروا أن يكون الله رحمانا قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝ ﴿٦٦﴾ ﴾ ، فأشارت الآية إلى كُفْرين من كفرهم ؛ جحد الوجدانية ، وجحد اسم الرحمن ، ولأنَّ لهذه الصفة مزيدَ اختصاصٍ بتكذيبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وتأييده بالقرآن لأنَّ القرآن هدى ورحمة للناس <<² ، والقيمة التداولية لهذا العدول تظهر في خرق قاعدة من قواعد التداول هي قاعدة الكمّ التي تترجمها الجملتان : " لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته " ، و" لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب"³ ؛ حيث تجاوزت العبارة الحدَّ الأدنى من الإفادة ، وهو الإعلام بكفرهم ، إلى تضمين الخطاب نصًّا على إثبات ما ينكرونه و التأكيد على رحمانية الله تعالى ، وفي ذلك قيمتان ؛ تظهر الأولى في أنَّ الخطاب ليس خطابا ابتدائيا ، وإنما هو كلام على كلام وما يعنيه من تخصيص

¹ - صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى ، ص 100 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 140/6 .

³ - ينظر : طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان : ص 238 .

المتلقي ، إذ ليس معنيًا بهذا الخطاب إلا من كفر بالرحمن ، و تتمثل الثانية في البعد الحجاجي للعبارة المستفاد من كون الخطاب كلامًا على كلام - كما تقدّم - ولا يخفى أنّ >> القيمة الإخبارية للملفوظ قيمة ثانوية بالنظر إلى قيمته الحجاجية <<¹ ، والمستفاد كذلك من تعريف لفظ " الرَّحْمَنِ " بالأداة التي لا تخلو أن تكون إمّا للجنس ؛ فهو أرحم الراحمين ، أو للاستغراق فرحمته تعالى أشمل وأعم لكل أنواع الرحمة ، أو للعهد ؛ بما يعني أنّ رحمته - تعالى - معروفة معهودة عند جميع الناس ، و في ذلك تعريض بمن جهل ما هو معلوم عند الجميع .

و حيث إنّ >> كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدثها تناسبًا طرديًا بحيث كلما كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس المتقبل أعقق <<² فإنّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس الآية 22 حكاية عن حبيب بن أوس النجار في خطابه مشركي أنطاكية³ ؛ حيث >> وضع قوله: " وَمَالِيَّ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي " مكان قوله: " وَمَالَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ <<⁴ ، و في ذلك انحيّاز من الرجل إلى المشركين إلى حدّ التماهي ، وهو أمر لم يكن من المشركين على بال، إذ كيف ينحاز إليهم ويتماهى فيهم وهو المؤمن الموحد ، و هم الكفرة المشركون ؛ وإنّما صاغ تعبيره على تلك الشاكلة لأنّه >> أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه و هو يريد مناصحتهم

¹ - صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى ممن النحو إلى التداولية ، ص 30 .

² - نقلا عن المسدي ؛ الأسلوبية ؛ Michael Riffaterre ; Essais de stylistique structurale - 2

والأسلوب ، ص 78

³ - هو حبيب ابن أوس النجار : أول من آمن برسول عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، وهو ممّن آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يره ، ينظر: الكشاف: 647/3 .

⁴ - نفسه : 648/3 .

ليتلطف بهم و يداريهم ، و لأنه أدخل في إحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه <<¹ .

ولا شك أن تموقع الرجل في جهة المخاطبين ذو أثر على تلقي الخطاب بل إنه ضماناً لتلقيه التلقي الإيجابي ، لأنه لم يرض لمخاطبه إلا ما ارتضاه لنفسه ، و >> نكتة هذا الالتفات أنه يشير إلى ما في نفس الرجل المؤمن من الحرص الشديد على مصلحة قومه ؛ فهو لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، لذلك أخرج لهم الكلام في البدء في معرض مناصحته لنفسه لأن مثل هذا الأسلوب أدل على التلطف بهم و أدعى إلى قبول النصح ، ثم أقبل الرجل عليهم بوجهه مستخدماً ضمير المخاطبين لكونه في مقام التخويف الذي يوجب التخصيص بالمواجهة <<² ، و في مثل هذا النص يظهر ارتهان الرسالة بأسلوبها ، و تتجلى أهمية تكيف الخطاب بحسب المخاطبين ، كما تبدو جليا سلطة المتلقي على المخاطب وانحسار هوامش الحرية لدى الأخير.

2- الأفعال الكلامية الإنجازية

لمّا كانت الأفعال الكلامية أهمّ مجالات البحث اللساني التداولي على الإطلاق³ لأن >> التداولية في نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية <<⁴ ، وكان >> مقتضى التداول أن يكون القول موصولا بالفعل <<⁵ ، وحيث إن في

¹ - نفسه 647/3 .

² - صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 213 .

³ - ينظر : علي محمود حجي الصراف ؛ الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، ص 22 .

⁴ - نفسه : ص 10 .

⁵ - طه عبد الرحمن ؛ تجديد المنهج في تقويم التراث ، ص 243 ، نقلا عن خليفة بوجادي ؛ في الأسنوية

التداولية ، ص 121 .

بعض صور العدول ما يشير إلى أنّ الألفاظ المعدول إليها تتضمن و قوع الحدث لمجرد وقوع فعل التلطف ، فإنه توجّب إدراج بعض هذه الصور في هذا المبحث من أجل الربط بين القراءة البلاغية لهذه النصوص ممثلة في آراء المفسرين ذوي النهج البلاغي ، والقراءة التداولية لها في غير ما انحياز لهذه أو توجّس من تلك .

وابتداءً لابدّ من الوقوف عند تعريف الأفعال الكلامية كيما نستطيع مباشرة التحليل بأكثر موضوعية ، ف>> الفعل الكلامي الإنجازي هو الحدث الذي أوجده النطق ، سواء أكان هذا النطق اسماً أم فعلاً أم حرفاً <<¹ ، ويُرادُ به الإنجاز الذي يؤدّيه المتكلم بمجرد نطقه بمنطوقات معينة² ، و يوثق "أوستن" الصلة بين فعل التلطف و الحدث المترتب عنه فيقول في تعريفه الأفعال الإنجازية : >> هي كيف أنّ قولَ شيءٍ ما هو الأداء و التصرف و الإنجاز ، و بعبارة أخرى إنّ قولنا شيئاً ما يعني أننا قد تصرفنا ، أو فعلنا شيئاً ما ، أو على وجه آخر إنّ النطق بشيء ما هو حصول تعلق المفعولية ، إذ التصرّف يحتاج في حدوثه إلى النطق ... إنّ النطق بشيء ما في المعنى المعتاد هو إيقاع الفعل و إحداث أمرٍ ما <<³ .

و إذن فإنّ المفهوم من الفعل الإنجازي أو فعل الكلام هو الدلالة المعجمية للفظ الفعل بمعناه العام الذي هو حركة الإنسان أو الكناية عن كل عمل متعدّد⁴ ، و كل ما يمكن أن يدرج تحت حركة الإنسان من مفهوم الأحداث، أو الإيقاع ، أو الإيجاد ، أو التأثير ، أو أيّ عملٍ يكون نتيجة مباشرة لحركة الإنسان مقروناً أو مترتباً عن الفعل بدلالته التلطفية ؛ ذلك أنّ فعل القول يمكن أن يكون محض قولٍ لا

¹ - علي محمود حجي الصراف ؛ الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة ، ص 11 .

² - نفسه : ص 22 .

³ - أوستن ؛ نظرية أفعال الكلام العامة ، تر عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط2 ، 2008

، ص 123 .

⁴ - ينظر: الفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط : ف.ع.ل.

يتجاوزه بصرف النظر عما يتضمَّنه هذا القول من معنى ودلالة ، ويمكن أن يكون قولاً متضمناً حدثاً هو نتيجة للتلفظ بذلك القول ، وبالعودة إلى كتب البلاغة نجد أنَّ البلاغيين تنبَّهوا إلى هذا النوع من الأفعال وسمَّوه أفعال الإنشاء ؛ في مثل قولهم : بِعْتُكَ ، وَزَوَّجْتُكَ ، وَطَلَّقْتُكَ ، وَقَبَلْتُ ... ، ولا أدلَّ على العناية بهذا النوع من المعنى و اعتباره من قِبَلِ الفقهاء - على وجه الخصوص - إيقاع الطلاق بمجرد التلفظ بفعله ، ولو لم يكن من المطلق قصدٌ إليه ، واحتسابُ التلفظ به طلاقاً ، وما يترتب على ذلك من علاقة الزوج بزوجه ، بينما يُشترط في الطلاق بالكناية (بغير فعله) توفرُّ النية والقصد .

كما أنَّ بعض اللغويين العرب تنبَّهوا باكراً لدلالة لفظ الفعل ، ولم تصرفهم عنها دلالاته النحوية ؛ قال ابن الأنباري : >> فإن قيل لم سمِّيَّ الفعل فعلاً ؟ ، قيل لأنه يدل على الفعل الحقيقي <<¹ ، ف >> الفعل بالمعنى السابق يكون حاملاً لقيمة تداولية هامة هي أنَّ تسميته قائمة على الاستعمال والتداول و ما يدل عليه ، وهي من المجالات المفهومية للتداولية <<².

و حتى يكون الفعل إنجازياً لا بد أن يكون منتمياً إلى مجموعة الأفعال الإنجازية ، و أن يكون فاعله هو نفسه المتكلم ، وأن يكون زمنه المضارع³ .

و لا يخفى أنَّ الفعل الإنجازي بما يحمل في طيِّه من دلالة التعهد و الالتزام من قِبَلِ المتلفظ تجاه المتلقي يشي من طرفٍ خفيٍّ بطبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب ؛ ذلك أنَّ في دلالة التعهد و الالتزام تبديداً لظلال الشكوك التي قد تعتري المتلقي ،

¹ - ابن الأنباري ؛ كتاب أسرار العربية ، ص 11 ، نقلاً عن خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ،

ص : 164 .

² - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية : ص 164 .

³ - ينظر : أحمد المتوكل ؛ اللسانيات الوظيفية ، ص 19 ، نقلاً عن خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية ،

ص 77 .

وهي التي تسلط ضغطاً على المخاطب يجعله يُخرج عبارته مخرج التوكيد الذي لا شك معه ، وهُنا يبدو العدول عن المستقبل إلى الماضي - مثلاً - ، أو إلى اسم المفعول ، أو نحو ذلك من الصور التي تقدّم ما لم يقع في صورة الواقع المفروغ منه قسماً لأساليب التوكيد الأخرى ، و مساحةً لتداول اللغة بكثير من الأريحية والطمأنينة ، على الأقلّ من قِبَل المخاطب الذي يستشعر - بسلوكه اللغوي هذا - أنه أدى ما عليه من واجب طمأننة المتلقّي إلى صِدْقِيَّةِ الرسالة.

ففي قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

النحل الآية 01 ، قال ابن عباس >> لَمَّا نَزَلَتْ " اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ " قال الكفار إِنَّ هَذَا يَزْعَمُ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَرِبَتْ فَأَمْسِكُوا عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، فَأَمْسِكُوا وَانْتَظِرُوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ، فَقَالُوا مَا نَرَىٰ شَيْئًا ، فَنَزَلَتْ " اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ " ، فَأَشْفَقُوا وَانْتَظَرُوا قَرِبَ السَّاعَةَ ، فَامْتَدَّتِ الْأَيَّامُ فَقَالُوا مَا نَرَىٰ شَيْئًا ، فَنَزَلَتْ " أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ " فوثب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و المسلمون و خافوا فنزلت " فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ " فاطمأنوا ... << 1 ؛

والخطاب في الآية موجه للمشركين على جهة الوعيد لأنّ أمر الله هو عقابه لمن أقام على الشرك و تكذيب الرسول - صلى الله عليه وسلم -² و من ثمّ فإنّ المتلقي الذي يتوجه إليه هذا الخطاب من النوع الجاحد المعاند الذي لا يسلم بسهولة ؛ ممّا يستلزم خطابه خطاباً مؤكداً لعله يصدق ، و تقديم ما لم يقع في صورة الواقع سبيلٌ من سبل التوكيد كما تقدم في الفصل السابق ، إلا أنّ الذي نريد إضافته في هذا المكان من البحث هو أنّ إدراج التعبير عن الحدث المستقبل

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي ، 66/10 .

² - نفسه : 65/10 ، وينظر : الطبري ؛ تفسير الطبري 76/14 .

بصيغة الماضي في خانة الأفعال الكلامية فيه حمولة دلالية إضافية مؤداها أنّ مجرد التلفظ بالفعل الذي يؤديه الرسول - صلى الله عليه وسلم - المبلغ عن ربّه يدخل الحدث حيز التنفيذ في ما يشبه طلباً من المخاطب أن يتجاوز المتلقي الشكّ في إمكانية وقوع الفعل - لأنه ببساطة صار في حكم المفروغ منه - إلى الحديث عمّا يستوجبه وقوعه كما الحال هنا ، لأنّ في قوله تعالى: " أتى أمر الله " دعوة ضمنية إلى العمل لما بعد إتيان أمر الله ، وفي وثوب الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين عند نزول الآية ما يثبت أنّهم تأكّدوا من وقوع الفعل بمجرد سماعهم الآية ، وأنّهم أدركوا أنّ << أخبار الله في الماضي والمستقبل سواء >>¹.

وفي قوله تعالى في شأن العصاة من قوم نوح - عليه السلام - : ﴿ وَلَا

تُخَاطَبِينَ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا^ع إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٤٧﴾ هود الآية 37 ، يُفهم من

العدول عن الفعل المضارع المسبوق بأحد حرفي التسوييف : "سَيَغْرُقُونَ" ،

أو "سَوْفَ يَغْرُقُونَ" إلى اسم المفعول تأكيداً على أنّ إغراقهم أمرٌ حاصل لا محيى عنه لأنّ المعنى << لا تطلب إمهالهم فإنّي مغرقهم >>² ، << لأنّي قضيت أنّهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر و الطغيان >>³.

ومعنى قوله تعالى: " إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ " - و الله أعلم بمراده - بالاستناد إلى ما تقدّم من كلام القرطبي ، وابن كثير أنّ قرار إغراقهم قد تمّ ولم يعد قابلاً للمراجعة

¹ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 65/10 .

² - السابق : 30/9 .

³ - ابن كثير ؛ تفسير ابن كثير : 245/3 .

ومعنى ذلك أن التلفظ به أدخله حيِّز التنفيذ ، ولا ضير إذا لم تكن الكلمة "مُغْرَقُونَ" فعلاً لأنَّ الأفعال الإنجازية يمكن أن تكون ضمنية غير مباشرة¹ .

و بالعودة إلى موضوع الآية فإنَّ المتلقيَّ هو نوح - عليه السلام - و قد عِلِمَ أنَّ الهلاك أوشك أنْ يحيق بأُمَّته ، وفيهم ابنه ، وحرصه -عليه السلام- على نجاة قومه و ابنه لا يحتاج إلى استدلال ، قد قال : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ، إلا أنَّ الله

تعالى أجابه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ بما يعني أن الآية

تبيِّن لنوح عليه السلام من أن يعاود الطلب حتى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ؛ فيكون بالتالي العدول الحاصل إلى اسم

المفعول من باب إيراد أمر إغراقهم موردَ الواقع المفروق منه بمجرد التلفظ بالفعل خصوصاً وأنَّ المتكلم لا معقَّب لحُكْمه بما يجعل نوحاً عليه السلام لا يفكِّر في الطلب مرة أخرى ، وفي ذلك توجيه له و تأسيس لما يجب أن يكون عليه خطابه عليه السلام لربه في شأنهم بتحديد مَعْلَم البداية بالانطلاق في الخطاب من طيِّ صفحاتهم و تجاوزهم إلى غيرهم .

و في قوله عزَّ اسمه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح الآية 01

عدول عن المستقبل إلى الماضي لأنَّ الآية >> نزلت مرجعَ رسول الله - صلى الله عليه و سلم - عن مكة عام الحديبية عِدَّةً له بالفتح ، وحيء به على لفظ

¹ - ينظر: خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، ص 77 .

الماضي لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة <<¹ ، و >> المعنى سنفتح و إنما جيء في الإخبار بلفظ الماضي لتحقُّقه وتيقُّنه شبَّه الزمن المستقبل بالزمن الماضي فاستعملت له الصيغة الموضوعية لمعنى المضي <<² .

وإذا عدنا إلى السياق التاريخي للآية واستحضرنا وقائعه المتمثلة في صد المسلمين المعتمرين عن دخول مكة المكرمة ، وما نتج عن ذلك من صلح الحديبية الذي بدا للمسلمين أن بنوده مجحفة في حقهم ، فاستعظموا أن يعودوا بهديهم إلى المدينة ، أو أن ينحروه إلى الحد الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم - يقول لأمّ المسلمين ؛ أمّ سلمة هلك المسلمون ؛ لأنه أمرهم بالحلق والنحر فتناقلوا ولم يفعلوا إلا بعد أن عمل النبي - صلى الله عليه وسلم - برأي زوجته فما كان من المسلمين بعد ذلك إلا أن امتثلوا .

إذا استحضرنا هذا السياق بما فيه من تحرُّج المسلمين من تنيهم عن الاعتمار ومن طائفة صلح الحديبية التي سيقعون تحتها عشر سنوات كاملة ، وتأذي الرسول - صلى الله عليه وسلم - من تناقل أصحابه في تنفيذ أمره بالحلق والنحر؛ فهمنا أن الآية في مجملها بشارة للنبي - صلى الله عليه وسلم - و تطمين له ولأصحابه ، و فهمنا أن في العدول عن المستقبل إلى الماضي تأكيداً للوعد ، وقد ظاهر هذا التأكيد أداة التأكيد الصريحة " إنَّ " ، ولام التخصيص في قوله : " لك " ، و في هذا الحشد لأساليب التوكيد ما يملأ قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - مسرة إلى الحد الذي جعله يقول بعدها : >> لقد أنزلت عليّ آيةً هي أحبُّ إلي من الدنيا جميعاً <<³ ، خصوصاً و قد وُصف هذا الفتح بأنه مبين و شُفع بمغفرة

¹ - النسفي ؛ تفسير النسفي : 156/2 ، والزمخشري ؛ الكشاف 225/4 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 144/10 .

³ - القرطبي ؛ تفسير القرطبي 260/16 .

شاملة للنبي - صلى الله عليه و سلم - ، و ما يزيل عن المسلمين شعورهم بالانخدال ويعوّضهم عن رجوعهم هذا بفتح مؤزّر ، و هم في قوة و منعة .

و فيه كذلك ما يغيظ المشركين و ينغصّ عليهم شعورهم المؤقت بالانتصار في صلح الحديبية لأنهم هم الذين أمّلوا شروطه .

و حمل فعل الفتح في الآية على الأفعال الإنجازية هو الضامن لكل المعاني المتقدمة لأنّ استشعار المخاطبين قطعية وقوعه و إنجازيته ، وأنه في قوة العهد الذي ألفوا إنفاده بلفظ الماضي في مثل قولهم : بعثك ، و زوجتك ، و أجرتك ، و سأل منك ... هو الذي يجعل له كلّ هذا الأثر ، و أين عهود البشر من عهود الله الذي لا رادّ لقضائه ؟

كما أنّ في هذا العدول كذلك قيمة تداولية أخرى هي ما عبّر عنه الزمخشري بقوله : << في ذلك من الفخامة و الدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى >>¹ ، و هي ترجمة لمطلق قدرة الله الذي يستوي عنده المستقبل و الماضي ؛ إذ لا شيء يعطل إرادته ؛ ممّا يوجب على الناس مخاطبته بهذا الاعتبار ، و فهم كلامه في هدي هذه الحقيقة ، و هو كذلك ممّا يمكن أن يُحمل على التنبيه على مكانة المخاطب و التذكير بها حملاً للمتلقّي على تلقّي الخطاب التلقّي المناسب لمصدره .

ومما يمكن أن يُحمل على الأفعال الإنجازية قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ الكوثر الآية 01 ؛ لأنّ أشهر ما فسّر به لفظ الكوثر أنّه نهرٌ في الجنة أُعطيه الرسول - صلى الله عليه و سلم -² و أحداث الجنة مستقبلية ؛ فيكون الأصل " نُعْطِيكَ " ، أو " سَوْفَ نُعْطِيكَ " ولكن الآية وردت بصيغة الماضي

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 225/4 .

² - ينظر : القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 220/20 ، والطبري ؛ تفسير الطبري : 321/30 .

معتزدة كسابقتها بأداة التوكيد " إنَّ " ، و باسمية الجملة و ما فيها من دلالة الثبات ، كلُّ ذلك من أجل تبشير النبي - صلى الله عليه و سلم - هذه البشارة العظيمة وطمأننة قلبه ؛ ذلك أنه مما يروى سببا لنزول السورة أنه - صلى الله عليه و سلم - كان >> قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا ؛ فسأه ذلك فنزلت " إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ... " نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ ، و نزلت " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ... خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَمَلِكُهَا بَنُو أُمِيَّةٍ ؛ فَحَسِينَا ذَلِكَ فَإِذَا هُوَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ <<¹ .

و في تخريج فعل الإعطاء مخرج الأفعال الإنجازية إشارة إلى أنَّ وعد الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه و سلم - يقع موقع الأفعال المنجزة المفروغ منها وما يترتب عليه من دخول المسرة على قلبه الذي يجد في موعود الله المنجز ما يعوضه عن استيائه من رؤياه تلك التي أثَّرت فيه إلى الحد الذي لم يُرَ بعدها مستجمعا ضحكه واستهلاله كما كان يفعل من قبلها² ، و يعوضه عن تعبير المشركين له بأنه أبتَر وذلك في قوله تعالى إثر آية البشارة " إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ .

ولعل فيما تقدم ما يكفي للتمثيل للأفعال الإنجازية التي يكون الفاعل فيها هو الله - تعالى - ، و هذه نماذج عن بعض الأفعال الإنجازية التي يكون الفاعل فيها غيره :

وأرى أنَّ أهمَّ الأفعال التي تحمل دلالة الإنجاز و يمكن تصنيفها ضمن الأفعال الإنجازية هي تلك التي يترتب على التلفظ بها الدخول في الإسلام أو الخروج منه

¹ - الحاكم ؛ المستدرک علی الصحیحین : 591/4 ، وينظر : مجمع الزوائد : 244/5 ، و أحمد بن علي الموصلي أبو يعلى ؛ مسند أبي يعلى ، تح إرشاد الحق الأثري ، إدارة العلوم الأثرية ، فيصل آباد ، ط 1 ، 1407 هـ ، 348/11 ، و محمد بن أحمد الذهبي ؛ سير أعلام النبلاء ، تح شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 9 ، 1413 هـ ، 108/2 ، و القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 283/10 .

² - الحاكم ؛ المستدرک علی اصحيحين : 527/4 .

، أو الدخول في الكفر أو الخروج منه ؛ وأكثر الأفعال صراحة في هذا المعنى هما الفعلان "آمناً ، و" كَفَرْنَا" اللذان يدلان دلالة مباشرة على الدخول في العقيدة أو الخروج منها .

فالفعل "آمناً" تواتر وروده بمعنى الفعل الإنجازي ثلاثين مرة (البقرة ؛ الآيات : 8 ، 14 ، 76 ، 136 ، آل عمران ؛ الآيات : 7 ، 16 ، 52 ، 53 ، 84 ، 119 ، 193 ، الأعراف ؛ الآية : 121 ، طه ؛ الآيتان : 70 ، 73 ، المؤمنون ؛ الآية : 109 ، النور؛ الآية : 47 ، الشعراء ؛ الآية : 47 ، القصص ؛ الآية : 53 ، العنكبوت ؛ الآيات : 2 ، 10 ، 46 ، سبأ ؛ الآية : 52 ، غافر؛ الآية : 84 ، الحجرات ؛ الآية : 14 ، الجن ؛ الآية : 2) .

والفعل " كَفَرْنَا " مُسندا إلى ضمير المتكلمين (لأنه شرط في إنجازية الفعل) في ثلاث آيات هي:

- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۗ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۗ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۗ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠٩﴾ إبراهيم الآية 09 ،

- وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ غافر الآية 84 ،

- وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ

أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ^ط ﴿ الممتحنة الآية 04 ؛

وحيث إنَّ << الفعل الكلامي الإنجازي هو الحدث الذي أوجده النطق >>¹ فإنَّ مجرد التلفظ بفعل الإيمان أو الكفر يعني أنَّ المتلفظ أوجد حدثًا هو دخوله من فوره في إحدى العقيدتين ، و لما كان الإيمان لا يكتمل إلاَّ بجملته من الأقوال والأفعال التالية للحظة التلفظ بفعله كانت دلالة التلفظ مصروفةً إلى المستقبل ؛ وهو شرط كي يكون الفعل إنجازيا - كما تقدم - وكان التعبير عنها بصيغة الماضي عدولا عن مقتضى الظاهر .

و من الآيات التي نجد فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ^ط قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ آل عمران الآية 52 ؛ لأنَّ في قول الحواريين "آمنَّا" إنجازًا لحدثٍ هو اصطفا فاهم مع نبي الله - عيسى عليه السلام - ومناصرتهم له من توهم ذلك .

و قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ المائدة الآية 83 ؛ إذ في قولهم "آمنَّا" إعلان عن دخولهم في عقيدة التوحيد بعد تأثرهم بما سمعوا من كلام الله ، و قد جاء جوابا للشرط ، ومعلوم أنَّ في الشرط فعلين ، أو لنقل حدثين ؛ حدث الشرط وحدث الجراء ، بحيث يرتهن الثاني بالأوَّل

¹ - علي محمود حجي الصراف ؛ الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، ص 11 .

، والحدث الأول - هنا - هو سماع القرآن ، والحدث الثاني إعلانهم الدخول في الإيمان بقولهم : "أَمَّا" .

و كذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ طه الآية 70 ؛ إذ يُعَدُّ التلّفظ بالفعل "أَمَّا" لحظةً فارقةً بين حياة الشرك وحياة التوحيد ، ولا أدلَّ على إنجازية هذا الفعل من تعقّب فرعون للسحرة و توعّده إيّاهم .

وبالمقابل فإنّ فعل الكفر هو إنجاز لحدث الدخول في عقيدة الكفر في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ غافر الآية 84 ؛ لأنّ قولهم "كَفَرْنَا" إعلانٌ قطيعيةً مع الشرك ، فهو حدث و إنجاز ، و لكنه إنجاز لا يترتّب عليه أثر لفوات أوانه .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الممتحنة الآية 4 ؛ لأنّ قول المؤمنين " كَفَرْنَا بِكُمْ " صريح في مواجهة المشركين بإعلان اعتناق العقيدة الجديدة ممثلة في اتباع دين إبراهيم - عليه السلام - ، وهو فعل إنجازي بامتياز لما يترتّب عليه من عداوة و بغضاء مع قومهم لم تكن موجودة قبل لحظة التلّفظ تلك .

ومن الأفعال الإنجازية الأخرى غير فعلي الكفر والإيمان أفعال كثيرة كقول الكفار: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ البقرة الآية 93 ، أو قول اليهود : ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ ﴾ النساء الآية 46 ، وذلك لما في الفعل الماضي "عَصَيْنَا" من دلالة على الإصرار و البقاء على العصيان مستقبلا ؛ أي: "سَنَعُصِي"

و كقوله تعالى حكاية عن نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ ^ط قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة الآية 131 لأن دلالة "أَسْلَمْتُ" تمتد في الزمن المستقبل ما بقي حياً ، فهي في مكان قوله : "أَسْلِمُ" ، و من ذلك تستمد إنجازيتها لأنها تعهد بالبقاء على إسلام وجهه الله تعالى .

و مثل قول بلقيس لما دخلت على نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل الآية 44 ؛ لأن قولها "أَسْلَمْتُ" خروج من عقيدة و دخول في أخرى و تعهد بالبقاء عليها .

المبحث الثاني : المتلقي¹

يستمدّ المتلقي أهميته التداولية ، ومحوريته في التواصل من كونه المقصودَ بالخطاب ، وأنه غاية الرسالة و مألها لأن كل خطاب لا بدّ أن يتوجه إلى الغير ، و لا بدّ أن يفهم هذا الغير² ، و هذا انطلاقاً من حدّ الخطاب بأنه : >> كل منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً <<³ ، ومن ثم فإنّ كل خطاب موجّه إلى متلقٍ بعينه بقصد التأثير فيه بشكل ما ، ولما كانت غاية الخطاب إفهام الغير و التأثير فيه ، و كان لهذا الغير الذي هو المتلقي خصوصياته التي لا يشبه فيها متلقياً آخر ، وكانت مراعاة هذه الخصوصيات أساسية لضمان التأثير والإفهام ، كان لزاماً على المخاطب أن يكيّف خطابه بحسب أصناف الذين يخاطبهم⁴ ، ومن هنا يبدأ إشراك المتلقي في إنتاج الخطاب ، و من هنا كذلك تبدأ سلطة المتلقي على المخاطب في تشكيل الخطاب إلى الحدّ الذي يجعلنا >> لا ننشئ استفهاماً أو إثباتاً أو أمراً أو وعداً إلّا و نحن نتوجه إلى مخاطب معيّن <<⁵ مراعين ما يجب مراعاته من خصوصيات هذا المتلقي .

¹ - آثرت مصطلح "المتلقي" على "المخاطب" لما في لفظ "المتلقي" من دلالة الفاعلية لدى المقصود بالخطاب يستمدّها من صيغة اسم الفاعل في مقابل اسم المفعول "المخاطب" الذي يبدو من صيغة اسم المفعول موجّهاً إليه الخطاب غير مشارك في صناعته ، خلاف ما تقتضيه حركية اللغة في سياقاتها المختلفة ، وما يقتضيه تداول اللغة .

² - ينظر: طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان ، ص 214 .

³ - نفسه : ص 215 .

⁴ - ينظر: المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب ، 63 ، 64 ، و هنريش بليش ؛ البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، تر محمد العمري : 161 ، 164 .

⁵ - صابر الحباشنة ؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، ص 103 .

وانطلاقاً من أن >> طبيعة الحقيقة الدينية تطلب تصديق المتقبل أو هي تفترض تصديقه <<¹ ، و من أن >> الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده السامع لا المتكلم <<² ، ومن أن الاهتمام بالمتلقي مسألة محورية في البلاغة العربية واللسانيات التداولية معاً³ ، فإن عالمية الخطاب القرآني المفهومة ضمناً من كونه الرسالة الخاتمة ، وتصريحاً من نصوص كثيرة كقوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿١٠١﴾

الفرقان الآية 1 ، أو قوله جل شأنه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ سبأ الآية 28 ، أو قوله عز ذكره: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ يوسف الآية 104، أو قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ ص الآية 87 ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٥٢﴾ القلم الآية 52 ، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ التكوير الآية 27 .

هذه العالمية التي تمتد في المكان كما تمتد في الزمان ، وتتجاوز في بعض الآيات حتى البشر إلى عوالم أخرى ؛ كالجن والملائكة و غير ذلك من الموجودات الطبيعية والحيوانية⁴ ، تعطي صورة واضحة عن التنوع الهائل جداً في أصناف

¹ - السابق: ص 133 .

² - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، ص 143 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها.

⁴ - في القرآن آيات كثيرة تخاطب الملائكة والجن ، والسماوات والأرض ... ؛ كقوله تعالى في سورة هود ﴿ وَقِيلَ يَا رَجُلُ أَتَلْعَىٰ مَاءَكَ وَيَسْمَأُ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ ^ط =

المتلقين الذين يتوجه إليهم الخطاب القرآني ، وإن كنا لا نهتم بغير المخاطب الإنسان.

في ضوء هذه العالمية ، وفي هدي هذا التنوع اللانهائي يجب أن يفهم الخطاب القرآني الذي مازالت الأقلام تمتح من معينه و ما أدركت - بعدُ - عشرَ المعشار من معانيه و لا هي ستدرك ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَّكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا

﴿ الكهف الآية 109 فكيف بمعاني هذه الآيات ؟

ولقد أولى المفسرون عناية بالغة للمتلقى تظهر في تصديرهم تفسير كل سورة أو آية بسبب نزولها ، وكونها مكيّةً أو مدنيّةً ، أو سفريّة أو حضريّة ، أو غير ذلك مما يسهم في التعريف بالمقصود بالخطاب.

= وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ الآية: 44 ، أو قوله في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ط
يَجِبَالٍ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرِ ط وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿ الآية : 10 ، أو قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿
يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا
تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ
وَحُاسٌّ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً
كَالدِّهَانِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ الرحمن ؛ الآيات : 33، 34، 35، 36، 37 ، 38 ، 39 ، 40 ،

وغير ذلك من الآيات التي يتوجه الخطاب فيها صراحة إلى الموجودات الكثيرة غير الإنسان ، وإن كان فيه توجه ضمني من خلالها إلى الإنسان من حيث كان المخاطب الأول بالقرآن.

ولأنَّ الرسول - صلى الله عليه و سلم - هو المتلقي الأوَّل للقرآن الكريم فقد ترجم القرآن هذه الأهمية في تضمينه أكثر من نصف آياته كلاماً موجَّهاً إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو يخبر عنه أو يوجهه¹ ...

ولئن كان حصر كلِّ المتلقين الذين يتوجه إليهم الخطاب القرآني مسألةً من العسر بمكان فإنَّه يمكن الإشارة إلى بعض أصنافهم ؛ حيث نجد في القرآن خطابات موجهة إلى الناس كلِّ الناس ، وبخاصة ما نزل منه في مكة ، وقد تواتر لفظ "الناس" في القرآن أكثر من 179 مرة ، و خاطب المؤمنين خاصةً و تواتر نداء "الذين آمنوا" أكثر من 220 مرة (بقطع النظر عن جذر الإيمان الذي تجاوز 277 مرة) ، و خاطب الكفار وتواتر ذكر "الذين كفروا" ، "الكفار" ، "الكافرون" 185 مرة ، و خاطب المنافقين أكثر من 28 مرة (بقطع النظر عن جذر الكلمة) ، و خاطب المشركين 55 مرة ، و خاطب الكتابيين 61 مرة ، و خاطب غير ذلك فئاتٍ كثيرة ممَّا حوته الحوارات والقصاص ، وآيات الاستدلال على القدرة والدعوة إلى الاعتبار بالأمم الغابرة ، وغير ذلك مما يتعدَّر حصره .

ولأنَّ اللغة النمطية لا يمكنها أن تفيَّ بالحاجة التواصلية لكلِّ هؤلاء المتلقين فإنَّ العدول الصرفيَّ حاجةً بيانيةً و تداوليةً كفيلاً بتطويع اللغة و جعلها سائغة عند كلِّ أصناف المتلقين بما يكفل قبول رسالة الإسلام ، ويُنزل كلَّ متلقٍ المنزلة التي يستحق .

وما دامت الإحاطة - و لو ذكرا - بجميع الآيات التي تتضمن عدولا تفرضه مراعاة حال المتلقي أمرا يتجاوز مساحة هذا البحث بكثير فإنه يتعيَّن ذكر بعض الآيات التي تنهض شاهدا على الفكرة ، و ذلك من منطلق أنَّ المتلقي لا يخلو أن

¹ - محمد مصطفوي ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ، ص 291 .

يكون ؛ مسائراً منفهماً ، أو متردداً مأمولاً في استمالته ، أو منكراً ميؤوس منه ، ولكل صنف خطابه ؛ فالأول تكفي في خطابه اللغة النمطية ، ويحتاج الثاني إلى مزيد ملاطفة وترفق ، أمّا الأخير فله المواجهة والتوبيخ .

1- خطاب الملاطفة و الترفق

من الآيات التي تؤدي هذا الغرض و تبين عن الاعتناء بالمتلقي الاعتناء الذي لا مزيد عليه - و بخاصة لما كانت تلقينا من الله تعالى للرسول - صلى الله عليه و سلم - كما يفهم من الفعل " قُلْ " قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

سبأ الآيتان 24 ، 25 ؛ حيث لقن الله تعالى الرسول - صلى الله عليه و سلم - طريقة الدعوة التي من مقتضياتها تواضع الداعي و مسانيرة المتلقي بخطابه الخطاب الذي لا يمسُّ مشاعره و لا يحطُّ من مكانته ، بل يرفع من شأنه استدراجاً لقبول الدعوة ، و هذا ما نصّت عليه التداولية و سبقتها إليه البلاغة العربية ؛ حيث نقرأ في العبارة كلها وفاء من المخاطب لمبدأ التأدب الذي يقضي >> بأن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التهذيب ما لا يقلُّ عما يلتزمان من ضوابط التبليغ <<¹ ، كما يفهم من قوله: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿١٤﴾ ؛ حيث تنازل

¹ - طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان ، ص : 240 .

للخصم و أنزل يقينه - و هو كونه و من تبعه على الهدى - منزلة الشك مسابرةً لشك الخصم وإرضاءً له >> و هذا اللون من الكلام يُسمَّى الكلام المنصف ، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجبَ تَغْيِظٍ و احتِدَادٍ في الجدل ، ويُسمى في علم المناظرة إرخاء العنان <<¹ ، ويسمَّى كذلك تجاهل العارف² ، و ليس هذا التجاهل إلا إرضاءً للمتلقي و استدراجاً له .

وفي الآية كذلك وفاءً لقاعدة أخرى من قواعد "مبدأ التأدب" هي " قاعدة التشكك التي >> تقضي بأن يتجنب المتكلم أساليب التقرير ويأخذ بأساليب الاستفهام كما لو كان متشككا في مقاصده بحيث يترك للمخاطب مبادرة اتخاذ القرارات <<³ ؛ ذلك أنه أخرج كلامه مخرج الشك و لم يقطع بأي الفريقين على الهدى ، و أيهما في الضلال المبين .

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 192/9 ، وينظر: الزمخشري ؛ الكشاف 3/606 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 192/9 ، وينظر: إنعام نوال عكاوي ؛ المعجم المفصل في علوم البلاغة ؛ حيث أورد المعجم استشهاد الرازي بالآية نفسها على " تجاهل العارف" الذي عرفه العسكري بقوله: >> هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا << ، وجاء في المعجم كذلك أن ابن الأثير سمَّى هذا النوع " تجاهل العارف" ، وذكر له نوعين حيث قال: >> هذا الباب له اسمان ؛ أحدهما تجاهل العارف ، والآخر يقال له الإعانت ؛ فالأول يطلق على ما يأتي من نوعه في النظم والنثر ، وأما الثاني فيطلق على ما يأتي من هذا النوع في الكتاب العزيز أدبا مع الآيات الكريمة << ، وقد >> جعل الزركشي لإخراج الكلام مخرج الشك بابا خاصا وقال: إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسن العناد كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وهو يعلم أنه على الهدى وأنهم على الضلال ، لكنه أخرج الكلام مخرج الشك تغاضبا ومسامحة ولا شك عنده ولا ارتياب << ، نفسه: ص 50 ، وينظر: الطبري ؛ تفسير الطبري: 14/2 ، وأجد لهذا النوع صدى في "مبدأ التأدب" الذي ذكرته روبين لاکوف وترجمه الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه "اللسان والميزان" ص : 240 ، وذلك في قاعدة التشكك التي توجب على المتكلم أن يُخرج كلامه مخرج الشك مسابرة للمتلقي وتوددا إليه .

³ - نفسه ؛ 241 .

كما أنَّ فيها توددا للخصم بمعاملته معاملة الند للند ، و هو مقتضى قاعدة التودد التي لا تستقيم إلا إذا كان المخاطب أعلى مرتبة من المتلقي ، أو في مرتبة مساوية لمرتبه¹ ، و لا يخفى أنَّ مرتبة الرسول ليس فوقها مرتبة إلا مرتبة الله تعالى ، ومع ذلك فهو يتواضع للخصم ويعامله معاملة الندية .

ثم انظر إلى قوله : ﴿ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وكيف سمى عمله ومن أسلم معه إجراما ، و شركَ المشركين عملا ، وما في ذلك من منتهى التواضع والتسليم للخصم الذي يرى في دعوة التوحيد إجراما في حق الآلهة و تتكبرا لما عليه الآباء والأجداد لأنَّ >> إسناد الإجمام إلى جانب المتكلم و من معه مبني على زعم المخاطبين <<² ؛ فهو تسليم جدلي لهم ، و >> إن أراد بالإجمام الصغائر و الزلات التي لا يخلو منها مؤمن ، و بالعمل الكفر والمعاصي العظام <<³ ، فإنه مسايرة للخصم و تنازل له ، ثمَّ انظر أخيرا - و هنا الشاهد - إلى صيغة الماضي في قوله " أَجْرَمْنَا " التي وُضعت في مقابل " تَعْمَلُونَ " ، و فيها يبدو " إجرام " الرسول - صلى الله عليه و سلم - و من معه أمرا محققا كما هي قناعة المشركين ؛ ذلك أنَّ إسناد الإجمام إلى المتكلمين أصلا مبني على زعم المشركين كما تقدم و >> هذه نكتة صوغه في صيغة الماضي لأنه متحقق على زعم المشركين ، وصيغ ما يعمل المشركون في صيغة المضارع لأنهم ينتظرون منهم عملا تعريضا بأنهم يأتون عملا غير ما عملوه ، أي يؤمنون بالله بعد

¹ - السابق : الصفحة نفسها.

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 194/9 .

³ - الزمخشري ؛ الكشاف : 607/3 .

كفرهم¹ ، و هي دعوة مبطنّة إلى الإسلام بعد أن ضمن المخاطب استمالة المتلقي وركونه إلى الخطاب .

وفي الآية : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ البقرة الآية 143 >> إنما قيل " إِلَّا لِنَعْلَمَ " وهو بذلك عالمٌ قبل كونه و في كل حال على وجه الترفُّق بعباده و استمالتهم إلى طاعته >>² ؛ ذلك أنَّ الناس مازالوا حديثي عهد بالإسلام ، و التوجه إلى القبلة (البيت الحرام) مما يتشرف به أهل مكة ، وسائرُ العرب لأنَّ فيه إبقاءً لمجد كعبتهم ، ولا أدلَّ على هذا القصد من أنَّ >> بعض العرب ارتدُّوا عن الإسلام لما استقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت المقدس حَمِيَّةً لقبلة العرب >>³ ، و أنَّ بعض المنافقين من اليهود كانوا يجدون في توجُّه المسلمين إلى بيت المقدس ما يُغَطُّون به على أتباعهم المسلمين ظاهراً أمام أهلهم و شركائهم ، فلما حُوِّلت القبلة انكشف نفاقهم⁴ ، لذلك فإنَّ قوله: "إِلَّا لِنَعْلَمَ" معناه : إِلَّا لتعلموا أنتم إذ كنتم جهَّالاً به قبل أن يكون ، فأضاف العلم إلى نفسه رفقا بخطابهم لأنَّ في إسناد الخطاب إليهم بالقول " لِتَعْلَمُوا " تضمناً لوصفهم بالجهل تولَّى العدول إلى ضمير المتكلم رفعه لما قد يفهم من أنَّ الله تعالى يُهين رسوله والمسلمين ، أو أنهم منه بغير منزلة المكرَّمين ؛ لذلك

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 194/9 .

² - الطبري ؛ تفسير الطبري: 14/2 .

³ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 23/1 .

⁴ - نفسه: الصفحة نفسها .

>> أسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده <<¹ تأنيسا لهم وملاطفة ، و كفى بذلك داعيا لهم إلى مزيد العبادة والتقرب منه تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ البقرة الآية 281 >> قرأ الحسن

"يُرْجَعُونَ" (بالياء) على معنى "يرجع جميع الناس" ؛ قال ابن جني: كأنَّ الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة إذ هي مما تنفطر له القلوب فقال لهم : " واتَّقُوا يَوْمًا " ثم رجع في ذكر الرجعة إلى الغيبة رفقا بهم ، وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذَّر منه هو يوم القيامة والحساب والتوفية <<².

ولا شك أن الرجوع إلى الله يشمل المسلمين و المشركين إلا أن في إسناده إلى الكفار إضافتين ؛ الأولى هي التي سبقت من أن الله تعالى ترفق بعباده المؤمنين ولم يواجههم بفعل الإرجاع لأنه >> إنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة فقال "يُرْجَعُونَ" رفقا من الله بصالحي عباده المطيعين لأمره فصار كأنه قال : " فاتقوا أنتم يا مطيعون يوما يُعَذَّبُ فيه العاصون" <<³ ، والثانية أن في إسناد الفعل إلى الكفار تذكيرا لهم بحقيقة هذا اليوم من حيث كانوا كافرين به أصلا خلاف المسلمين الذين يؤمنون به ويحيون لأجله ، و في مثل هذه الآيات يظهر الثراء الدلالي الذي تنطوي عليه القراءات .

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 184/1 .

² - القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 376/3 .

³ - ابن جني ؛ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تح علي النجدي ناصف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، د.ط ، 1386 هـ : 145/1 .

كما أنّ في اختلاف القراء في بناء الفعل " تُرْجَعُونَ " إلى الفاعل أو المفعول¹ فرقاً دقيقاً في المعنى فيما يظهر من تَلَطُّفٍ مع المخاطب في بناء الفعل للفاعل " تُرْجَعُونَ " وهي قراءة أبي عمر² ؛ حيث يظهر الفاعل فاعلاً بإرادته مُقْبِلاً على فَعْلِهِ ، ولا يخفى أنّ هذا حالُ المؤمنين لأنهم يؤمنون بأنهم مقبلون على الجنة وعلى ربِّ كريم ، فيما تُظهِرُ قراءةُ الجمهور " تُرْجَعُونَ " (بالبناء للمفعول) الفاعلَ مفعولاً به مُرْجَعاً غير راجع ، وهو حال الكفار المتخوفين من عاقبة أفعالهم .

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

﴿ ٣١ ﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿ ٣٢ ﴾ الأنبياء الآيتان 92

، 93 >> الأصل "تَقَطَّعْتُمْ" إلا أنّ الكلام صُرف إلى الغيبة عن طريق الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويُقْبَحُ عندهم فعلهم ويقول لهم : ألا ترون عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله <<³ ، والخطاب في الآية موجّه إلى المؤمنين بدليل اختصاص الآيات السابقة بالحديث عن قصة زكرياء وابنه يحيى عليهما السلام ، ثم عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام ؛ إذ قوله تعالى "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ ... " إشارة إلى من ذكر من الأنبياء والمرسلين ، ثم الأمر الموجه إلى أمة محمد - صلى الله عليه و سلم - في قوله "اعْبُدُونِي" دلالة على أنّ الموحدين جميعاً أمة واحدة ، ولأنّ الخطاب للمؤمنين فإنّ في العدول عن خطابهم كفاحاً بالقول "تَقَطَّعْتُمْ" إلى الغائب "تَقَطَّعُوا" تَلَطُّفاً بهم وإشفاقاً عليهم من أنّ يفعلوا ما فعل غيرهم من العصاة المذنبين ؛ قال ابن الأثير >> الأصل في : "تَقَطَّعُوا" تَقَطَّعْتُمْ

1 - الداني ؛ التيسير في القراءات السبع : ص 91 .

2 - نفسه : الصفحة نفسها .

3 - الزمخشري ؛ الكشاف: 205/3.

عظفا على الأول إلا أنه صرف الكلام إلى الغيبة...¹ ثم أورد كلام الزمخشري بنصه ، ومعنى ذلك أن العدول في الآية حفظ للمخاطبين ، أو لصنفٍ منهم مكانته الرفيعة و منزلته الأثيرة إلى الحدّ الذي يُصان سمعه عن أيّ مكروه .

وقد >> يتوسل القرآن في كثير من المواقف إلى الخطاب النفسي بغية التأثير على المتلقي>>² على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ الصّافّات الآية 102 ؛ إذ >> التعبير بالمضارع : "أرى" دون "رأيت" يوحي بأنّ أمر الذبح مائل في نفسه كأنه يراه الآن، وفي هذا ما يشبه الاعتذار من إبراهيم عليه السلام لابنه بأنه يُقدم على ما يقدم عليه لأنه أمر قويّ غالب مسيطر>>³ ، فهو عدل عن الماضي إلى المضارع استنزالا لعذر ابنه باستحضار صورة الرؤيا إلى مسرح الخطاب بإشراك ابنه في تحمّل هذا الخطب الجلل الذي لا قبيلَ له بتحمّله وحده ، ذلك أنّ مراعاة حال المتلقي واستحضار إنكاره هذا الفعل الغريب من أبيه ، خصوصا وأنه ابنه الوحيد ، هو الذي حيّر إبراهيم - عليه السلام - وجعله ينطق باللغة على الوجه الذي يجعل ابنه يستسلم لأمر الله ذلك أنّ >> اللغة في الواقع تكشف في كلّ مظاهرها وجها فكريا ووجها عاطفيا ، ويتفاوت الوجهان كثافة بحسب ما للمتكلّم من استعداد فطري وبحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون فيها >>⁴ ، وأيّ وجه للعاطفة أقوى من عاطفة أبٍ يُقبل عل ذبح وحيده بعد أن بلغ معه السعي .

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر: 12/2 ، 13 .

² - محمد مصطفوي ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره : 332 .

³ - عبد الحلیم حفني ؛ أسلوب المحاوره في القرآن الكريم ؛ ص 164 ، 165 .

⁴ - Charles Bally ; traité de stylistique française , paris , klincksieck , 3eme éd 1951 , 1/12 .

هذه العاطفة راعتها العناية الإلهية التي لم تأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه عن طريق الوحي المباشر المعهود من الله تعالى لأنبيائه >> إنما أبرز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكراما لإبراهيم عن أن يُزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأنَّ رؤيا المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحيد >>¹ ، وبذلك يكون الله تعالى قد ترفق بنبيّه - عليه السلام - حين أمره عن طريق الرؤيا ، ويكون إبراهيم عليه السلام كذلك قد ترفق بابنه حين أشركه في الرؤيا باستحضارها عن طريق العدول إلى المضارع ، وحين أشركه في القرار بمشاورته التي لم تكن من أجل الامتثال أو عدم الامتثال ، وإنما من أجل أن يكون شريكا له في أجر الطاعة والامتثال فهو >> لم يشاركه ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ما عنده في ما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله ، ولأنَّ المغافصة (المفاجأة) بالذبح مما يُستَسْمَج ، وليكون سنة في المشاورة >>² .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ محمد الآيتان 22 ، 23 ؛ ملاطفة منه - تعالى - للمخاطبين حيث لم يوجه لهم اللعنة والصمم والعمى ، وإنما عدل بكل ذلك إلى الغائب لأنَّ المعنى : >> هل يُتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين لكم من المشاهد ولاح

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 151/9 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف: 687/3 .

من المخايل أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم تتاحرا على الملك وتهالكا على الدنيا >>¹ ، و>> إنما أورد الكلام في الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره ليؤدِّيهم التأمُّل في التوقع عمَّن يتَّصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسبباً عنه من أولئك الذين أصمَّهم الله وأعمى أبصارهم فيلزمهم به على أطف وجه إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفا لقلوبهم ، ولذلك التفت عن الخطاب إلى الغيبة تفاديا عن مواجهتهم بذلك >>² .

خطاب المواجهة

-2-

هو العدول الذي يستهدف تنبيه المتلقي أو إفحامه أو مواجهته بالحجة حين يستشعر المخاطب غفلةً ، أو عنادا ، أو صدودا ؛ فيلجأ إلى جملة من الأساليب كالتنبيه والتحذير والتهديد وغير ذلك ممَّا هو معروف من الأساليب البلاغية التي من ضمنها العدول عن خطاب إلى خطاب طلباً لهذه الغاية على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۖ ﴾^(٦٦) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ ۝ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ﴾^(٦٧) مريم الآيات 69 ، 70 ، 71 ؛ ذلك أن >> الخطاب في " وَإِنْ مِنْكُمْ " التفات عن الغيبة في قوله " لَنَحْشُرَنَّهُمْ " و" لَنُحْضِرَنَّهُمْ " ، عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس

¹ - السابق: 219/4 ، وينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 245/16 .

² - إتمام نوال عكاوي ؛ المعجم المفصل في علوم البلاغة : ص 50 .

المراد من ضمير الغيبة ، فإنَّ ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة ، ومقتضى الظاهر أن يُقال: " وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا " ، وعن ابن عباس أنه كان يقرأ "وَإِنْ مِنْهُمْ" ، وكذلك قرأ عكرمة وجماعة <<¹.

والآيات مُفْتَتِحَةٌ بالقسم - خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم " فَوَرَبِّكَ " - في ما يُشبهه التعهد بالانتقام مِمَّنْ يُنْكَرُ البعث والحشر المفهوم من قوله قبلها مباشرة "ويقول الإنسانُ إِذَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا؟" حيث سردت الآيات ما يُفعل بهؤلاء الناس يوم القيامة بضمير الغيبة ستَّ مرات (لَنَحْشُرَنَّهُمْ ، نَحْضِرَنَّهُمْ ، جَبَّتِيَا ، أَيُّهُمْ ، الَّذِينَ ، هُمْ) ، ثم عدل السياق عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا " ، وهو >> التفات إلى الإنسان تعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهما "وَإِنْ مِنْهُمْ ... " <<² ، والمعنى بالخطاب على الرأي الأول³ الكفار الذين أنكروا البعث >> فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها <<⁴ ؛ لذلك فإنَّ العدول إلى خطابهم هو مواجهة لهم قصد التهديد والتخويف خصوصاً وأنَّ في الآية قَسَمًا مُضْمَرًا ؛ أي >> والله ما منكم من أحد إلاَّ واردةا <<⁵ ، وحتى وإن لم يكن في الآية تضمين قسم فإنَّ ورودها في أسلوب القصر يؤيد توجهها إلى التهديد والوعيد لِمَا في أسلوب القصر من معنى الإحاطة وانعدام فرصة الإفلات ، وكلُّ ذلك يصبُّ في معنى المواجهة والتهديد.

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 149/7 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف : 120 /3 ، وهو على أحد الرأيين و الرأي الآخر >> هو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور فإن أريد الجنس كلُّه [جنس الناس] ؛ فمعنى ورود دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتتهار بغيرهم << نفسه : الصفحة نفسها.

³ - هو الذي فَهَمَ من لفظ الخطاب في "منكم" ، الكفار خاصة ،، ينظر في ذلك : الكشاف: 120/3 ، والبغوي: 808 .

⁴ - البغوي ؛ تفسير البغوي : 808 .

⁵ - نفسه : الصفحة نفسها.

وفي قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ لَقَدْ

جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿ ٨٩ ﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ

أَلْجِبَالُ هَذَا ﴿ ٩٠ ﴾ مريم الآيات 88 ، 89 ، 90 ؛ كذلك عدول عن الغيبة إلى

الخطاب في قوله: "جِئْتُمْ" ؛ قال ابن الأثير إنه >> حصل لفائدة حسنة هي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه ، وتنبئها لهم على عظيم ما قالوه ، وكأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا عليهم وموبخا لهم <<¹ ؛ ذلك أن >> المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم أو تعليم دينهم ولكن تفضيح قولهم وتشنيعه <<² ؛ فعدل إلى مواجهتهم بجُرمهم خطابا وتوبيخا ، والذي يميّز لغة الخطاب - وهو من الأهمية بمكان - ما يرافق خطاب الحاضر من لغة الإشارة التي تعين اللسان على حمل المعاني وأدائها بأكثر حدة ومباشرة ، وقد نقل إلينا ابن جني شاهدا على ذلك في حديثه عن ذلك الشيخ الذي قال: "إني لا أحسن كلام الناس في الظلام" كما أن خطاب الحاضر يمكن من تنعيم الخطاب بنبرة التهديد والوعيد ؛ ولا يخفى أن التنعيم حامل آخر من حوامل المعنى.

ونجد في هذه الحركة العدولية استغناء عن ضمير الغيبة ، الذي يُعبّر عن مشهد غائب يخففُ غيابُه من حدة وقعِه ، إلى ضمير الخطاب الذي يستحضر هذا المشهد الفظيخ (دعوى الولد لله) إلى مرآة العين ويجعل المعنى بالكلام حاضرا شاهدا ينتلّقى التوبيخ مباشرة وفي ذلك تخويف للآخرين أيضا ، ودلالة التوبيخ والمواجهة تعترض بذكر لفظ "الرحمن" في صدر الآية وهو الاسم الذي ينكرونه ولا يعترفون

¹ - ابن الأثير ؛ المثل السائر : 5/2 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ الحرير والتنوير : 169/7 .

به لذلك فإنَّ >> ذكر "الرحمن" هنا حكاية لقولهم بالمعنى وهم لا يذكرون اسم الرحمن ولا يُقرُّون به ، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا " ؛ فهم إنما يقولون "اتخذ الله ولدا" كما حكى عنهم في آيات كثيرة منها آية الكهف ، فذكر الرحمن هنا وَضَعُ لِلْمُرَادِفِ فِي مَوْضِعِ مُرَادِفِهِ ، فذِكْرُ اسْمِ "الرَّحْمَنِ" لِقَصْدِ إِغَاظَتِهِمْ بِذِكْرِ اسْمِ أَنْكَرُوهُ ... والخطاب في "لَقَدْ جِئْتُمْ" للذين قالوا: "اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا" فهو الالتفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد ... فلا يحسن تقدير "قُلْ: لَقَدْ جِئْتُمْ" <<¹ لأنَّ هذا التهديد لا يؤديه عن الله أحد لذلك تولى - تعالى - مباشرة بنفسه لأنَّ الإساءة موجَّهةً إليه رأساً ، ولأنَّها فطبيعة إلى الحدِّ الذي يستدعي إلجام القائلين بها خطاباً لا حكاية ، كيف وهي " تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْقَطِرُنَّ مِنْهَا وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا " ؟

وفي قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۗ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۗ ﴾

التحريم الآية 04 >> خطاباً لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون

أبلغ في معانيتها <<² إثر تظاهرهما على النبي - صلى الله عليه وسلم -³

¹ - السابق : 170/7 .

² - الزمخشري ؛ الكشاف : 422/4 .

³ - >> روي أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : أكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي ، فأخبرت به عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وقيل خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك ، = واستكتمها فلم تكتم ، فطلقها ، واعتزل نساءه تسعا وعشرين ليلة ببيت مارية ، وروي أنَّ عمر (ض) قال لها : لو كان في آل الخطاب خيرٌ لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال راجعها فإنها صوامة قوامة ، وإنها لمن نساك في الجنة ، وروي أنه شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش

بالقول >> إني أجد منك ريح المغابير بعد أن علمتا أنه شرب عسلا عند زينب بنت جحش ، وكان - صلى الله عليه وسلم - يشتد عليه أن يوجد منه ريح <<¹ ، أو حين أفشت حفصة سره إلى عائشة ، فكان في توجيه الخطاب إليهما عتابٌ صريح بعد أن أطلع الله - تعالى - نبيه على توأتهما عليه نصرا له وتأييدا ، وهو >> إنما عرفها بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب في حفظ سر زوجها ... لأن إفشاءها سر زوجها زلة خلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها <<² ، فكان العدول عن الغيبة إلى الخطاب من أجل مواجهتها بالعتاب الذي شمل من أصغت إليها (عائشة) في إشارة إلى ما كان يتوجب عليها من تنبيه حفصة إلى خطئها بدل تشجيعها بالإصغاء والتظاهر على زوجها - صلى الله عليه وسلم - ورضي عنهما - ولهذا الخطاب خصوصيته لأنه موجّه إلى أعرف الناس بخطاب الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ إن بيوتات أمهات المسلمين رضي الله عنهن هي مهبط الوحي ووعاؤه الأول ، ولعل في البدء بفعل التوبة (إن تتوبا ...) وتأخير الاختيار الثاني (وإن تظاهرا عليه ...) جبرا لخواطرهن وإشارة إلى أن الاختيار الأول هو الذي سيأخذن به رضي الله عنهن جميعا .

وقد يُطلب تنبيه المتلقي أو عتابه أو تعنيفه ... بعكس الطريقة السابقة وذلك بترك الخطاب إلى الغيبة كأن يُصور المتلقي مفرطا في المعصية غارقا في الخطايا فيحكي حاله إلى متلقٍ آخر بأسلوب يجمع بين التنفير من وضعه المشين ، والترفع عن خطابه ، بإنزاله منزلة من لا يرقى إلى الخطاب استصغارا وتحقيرا ؛

، فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشمّ منك ريح المغابير ، وكان رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - يكره التقلّ فحرمّ العسل << ، نفسه 4/420 .

¹ - البغوي ؛ تفسير البغوي : 1326 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 11/353 ، 354 .

قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ آل عمران الآية 83

>> قرأ الجمهور "تَبْغُونَ" بتاء خطاب لأهل الكتاب جارٍ على طريقة الخطاب في قوله أنفاً "وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ" ، وقرأه أبو عمر وحفص ويعقوب بتاء الغيبة ، فهو على التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجب من أهل الكتاب <<¹ لأنهم وضعوا أنفسهم في هذه المكانة حين استنكفوا عن دين الإسلام الذي أسلم له من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ؛ وإذن فإنهم غير خليقين بالخطاب مواجهةً لذلك قال بعدها: ﴿ قُلْ

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ

بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ في إعراضٍ واضحٍ عن

اختصاصهم بالخطاب وتكليفٍ للرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يبلغهم والمسلمين ما أنزل الله على أنبيائه محمد ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وموسى وعيسى ، وسائر النبيين عليهم السلام ، ثم لا يهمل بعد ذلك أمر هؤلاء المعرضين الذين ترفع عن خطابهم صراحة مرة ثانية في قوله بعدها " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " لأنهم المعنيون أولاً بهذا الخطاب .

¹ - السابق : 300/1 ، 301 ، وينظر: الداني ؛ التيسير في القراءات السبع: ص 94 .

وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفُلِّكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَخْرَجْنَا
مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ يونس الآية 22 ؛ عدول عن
الخطاب إلى الغيبة قال فيه الزمخشري: << فَإِنْ قُلْتَ مَا فَائِدَةٌ صَرَفَ الْكَلَامِ عَنِ
الخطاب إلى الغيبة قُلْتَ الْمَبَالِغَةَ كَأَنَّهُ يَذْكَرُ لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي
منهم الإنكار والتفويض >>¹ ، ورأى ابن عاشور أَنَّ الآية >> لما كانت بصدد ذكر
النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين ، فلما تهيأت للانتقال إلى
ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلويين الأسلوب
بما يُخَلِّصُهُ إِلَى الْإِفْضَاءِ إِلَى مَا يَخْصُ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ "وَجَرَيْنَ بِهِمْ" عَلَى طَرِيقَةِ
الانتقالات ؛ أَي "وَجَرَيْنَ بِكُمْ" >>² ، فيكون في العدول إلى الغيبة تشهيرٌ بهم
لتقديمهم أنموذجاً للجاحد الذي لَا يَذْكَرُ اللَّهَ إِلَّا عِنْدَ الشَّدَّةِ ، وَإِذَا هُوَ نَجَا مِنْهَا نَسِيَ
ذَكَرَ اللَّهَ ، فَهُوَ حَالَةٌ لِنَصْفٍ مِنَ النَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهَا الْمُخَاطَبُونَ لِيَحْذَرُوا أَنْ
يَقْعُوا فِيهَا ، وَيُورِدُهُ مَوْرِدَ الْحِكَايَةِ لِلإِعْتِبَارِ ، وَالنَّكْتَةُ تَجَاوَزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ إِذْ لَمْ
يَعُدْ أَمْرُهُمْ ذَا أَهْمِيَّةٍ لَمَّا بَدَأَ مِنْهُمْ مِنْ نَكْتِ الْعَهْدِ حِينَ قَالُوا " لَئِنِ أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " ، وَلَكِنْهُمْ سُرْعَانِ مَا نَقَضُوا عَهْدَهُمْ "فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" ، وَيَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ
" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ " تعريفاً لهم بأنهم إنما يضرُّون أنفسهم
ويهلكون ذواتهم ، وَأَنْ بَغَيْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِيَبْلُغَ أَنْ يَضُرَّ اللَّهَ بِشَيْءٍ .

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 356/2 .

² - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 136/5 .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ ﴿ النبا الآية 40 ؛ عدل السياق عن الخطاب إلى الغيبة ذلك أن قوله تعالى " إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ " يقتضي أن يكون الكلام بعده تابعا له فيكون "يَوْمَ تَنْظُرُونَ" و"تَقُولُونَ" ، لكنه جاء على غير ذلك فقال تعالى : "يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ" و>> "المرء" هو الكافر لقوله تعالى: "إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ" ، و"الكافر" ظاهرٌ وُضع موضع الضمير لزيادة الذم <<¹ فيجتمع في ذم الكافر ذكره بالصفة نصًّا على إهانته ، وتحييده من مسرح الخطاب بذكره غائبا غير مخاطب .

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف : 536/4 .

المبحث الثالث: السياق

أمّا السياق فترتد أهميته الدلالية والتداولية إلى أمرين ؛ الأول هو وجود ظاهرة الترادف بين مفردات اللغة حيث إنه لا معول على غير السياق في فهم المترادفات ، وللترادف بين المفردات نظير في علم الصرف هو الترادف بين الصيغ ؛ حيث يمكن أن تدلّ الصيغة الواحدة على أكثر من معنى ؛ وحينئذ فإنّ السياق هو الذي يحدد الدلالة على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا

ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ النمل الآية 39 >> إذ يصلح لفظ " آتيك " أن يكون مضارعا ناصبا لمحل الكاف ، وأن يكون

اسم فاعل مضافا إلى الكاف <<¹ ، وقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ النور الآية 33 ؛

>> إذ يصلح "الكتاب" أن يكون بمعنى الصحيفة ، وأن يكون مصدرا بمعنى المكاتبه <<² .

وأما الثاني فلأنّ السياق انطلقا من أنه يحسم التردد بين المعاني المتعددة للفظ الواحد أو الصيغة الواحدة فإنه ينهض بوظيفة الدليل اللساني نفسه من حيث كان حاملا للمعنى ، إلا أنه لا ينحصر في المجال اللساني وحده بل يمتد إلى كل ما يمكن أن يوجّه المعنى - لسانياً أم غير لساني - لأنه >> عبارة عن كل ما يكتنف

¹ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ، ص 211 .

² - نفسه : الصفحة نفسها .

اللفظ من دوال أخرى الأعم من أن تكون لفظية أو حالية <<¹ ، وحيث كان المعنى بشكل عام هو نتاج تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب في سياق محدد (مادي ، اجتماعي ، لغوي)² فإنَّ السياق >> جاء بعدا جوهريا في التداولية ودخل في تعريفها <<³ ، حتى كان >> موضوع التداولية هو التواصل البشري المعتمد على دراسة المقام والشروط المناسبة لأداء الحديث <<⁴ .

ولأنَّ للسياق كلَّ هذه الأهمية فإنَّ الدوال اللسانية بإزائه هي دوال جزئية لأنَّ إفادتها في جميع الأحوال مرتبهة بظروف آدائها ؛ أيَّ بسياقاتها لا يمكن أن تتفكَّ عنها بحال ، لذلك فإنَّ >> قرينة السياق [هي] كبرى القرائن بحقَّ لأنَّ الفرق بين الاستدلال بها على المعنى ، والاستدلال بالقرائن اللفظية النحوية ؛ كالبنية ، والإعراب ، والربط ، والرتبة ، والتضام... إلخ هو فرق ما بين الاعتداد بحرفية النص ، والاعتداد بروح النص <<⁵ ، لأجل ذلك فإنَّ >> اهتمام الدرس التداولي كلُّه ينصبُّ في بحث مدى ارتباط النصِّ بالسياق <<⁶ .

أمَّا تجليات العلاقة بين العدول الصرفي، والسياق بأنواعه المختلفة في الخطاب القرآني فنظهر في جملة أمور منها :

1- إنَّ أوَّل عدول صرفيٍّ وأكبر عدول صرفيٍّ على الإطلاق في الخطاب القرآنيَّ كلُّه هو افتتاحه تسعا وعشرين سورة بحروف التهجيِّ مثل: ألم ، ألمص ،

¹ - محمد مصطفيوي ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ، ص 341 .

² - ينظر : نعمان بوقرة ؛ المدارس اللسانية المعاصرة 165 ، 166 .

³ - محمد عناني ؛ المصطلحات الأدبية الحديثة ، الشركة المصرية العالمية ، القاهرة ، 1996 م ، د.ط ،

ص: 76 .

⁴ - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ص 58 .

⁵ - تمام حسان ؛ البيان في روائع القرآن ص 221 ، 222 .

⁶ - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ص 92 .

كهيعص ، حمسق ، حم ، ق ، ص.....إلخ التي تمثل عدولا صارخاً عن كل قوالب اللغة وصيغها ؛ حيث لا يمكن عدّها أسماء، ولا أفعالا ، ولا حروفا ، مثلما لا يمكن وصف القرآن بأنه شعر ولا نثر ومن ثمّ فإنّه إذا كان القرآن عدولا عن الأنماط النصية التي عرفها العرب وألفوها فإنّ حروف التهجي عدول عن أبنية ألفاظ لغتهم وصيغها ، وفي تأييدها عن التصنيف ضمن صيغ اللغة وأبنيتها وما يحمل من تحدّ إشارة إلى إمكانية فتح اللغة على طرائق أخرى في تجميع وحداتها الدنيا (الأصوات) تجميعا دالاً وعلى خلاف ما ألفوه من الجذر الثلاثي ؛ للكلمة وطرق الاشتقاق المعروفة.

كما أنّ في هذا الشكل الجديد لتجميع الأصوات¹ تلويحا بالتحدي المعجز وما فيه من وظيفة انتباهية لأنّ في مخالفته المعهود من الكلام دليلا على أنّه من عند الله ومن ثمّ وجب التسليم لما هو من عند الله ، ولا يخفى أنّ أكبر سؤال هيمن على مشرقي قريش هو السؤال عن مصدر القرآن ؛ حتى قال بعضهم: إنّ قول شاعر وقال آخرون: إنّ قول كاهن ؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ الْحَاقَّةُ الْآيَةُ 42 ، وقال كذلك: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ

الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤٤﴾ ص الآية 04 ؛ قال الزمخشري : >> إذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم ؛ أربعة عشر: الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والطاء ، والسين والحاء ، والقاف ، والنون ، في تسع

¹ - هو شكل جديد لأننا لا نقرأ أصوات الحروف بل أسماءها .

وعشرين عدد حروف المعجم مشتمةً على أصناف أجناس الحروف ؛ المهموسة ، والمجهورة ، والشديدة ، والمطبقة ، والمستعلية ، والمنخفضة ، وحروف القفلة ؛ إذا استقرت الكلام تجد هذه الحروف هي أكثر دوراً مما بقي <<¹.

قال القاضي أبو بكر: << إنما جاءت على نصف حروف المعجم كأنه قيل من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقي ويركب عليه لفظاً معارضةً للقرآن >>².

وقد قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس الآية 38 .

ومما يُستدلُّ به على أن هذه الحروف بما فيها من عدول تؤدي الوظيفة الانتباهية وتشدُّ المخاطب إليها حتى يحاصره السؤال عن مصدر هذا النظم والإنشاء أن << عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة الآية 01 >>³ .

وما يؤكد انتباه المشتغلين بتحزيب القرآن وتقسيمه في القرون الأولى إلى هذا العدول وإن لم يصرحوا بلفظه أن << ص ، ق ، ن لم تعدّ واحدةً منها آية ، وإنما عدّ ما هو في حكم كلمة واحدة آية >>⁴ ؛ معنى ذلك أنهم لم يروا هذه

¹ - الزمخشري ؛ الكشاف 13/1 .

² - الزركشي ؛ البرهان 215/1 .

³ - نفسه : 219/1 .

⁴ - نفسه : 220/1 .

الحروف كلمات ؛ فهي إذن شئ غير الكلمات إنها عدول عن الكلمات ، وفي هذا العدول تحدُّ ودعوة إلى الانتباه.

1- الاحتكام إلى السياق في آيات العدول واعتباره مرجعا به يتحدد وجود العدول أو عدم وجوده في الآية ؛ وذلك في نوعين من السياقات :

أ - السياق الداخلي (السياق اللغوي) وذلك عندما نحتكم إلى عنصر لغوي في الخطاب من أجل إثبات العدول وهذا الذي عليه كثير من الآيات كما في :

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

﴿البقرة الآية 255﴾ ؛ حيث يستمد العدول في " حفظهما " وجوده من تقدم ذكر "السموات" و الأرض جمعا.

وقوله تعالى: ﴿...أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ...﴾^ط
النور الآية 31 ؛ حيث تعتبر "يظهروا" عدولا عن لفظ "الطفل" المتقدم عليها .

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾^ط النساء الآية 04 ؛ حيث تُعدُّ " نفسا " عدولا لمخالفتها في العدد لفظ "طبن" المتقدم عليها .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَمَّوْا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَمِنَ التِّجْرَةِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ الجمعة الآية 11

ولا أرى فائدة في الإكثار من ذكر الأمثلة لأنه استشهد على مطرد والاستشهاد يكون للشاذ.

ب - السياق الخارجي (غير اللغوي): وذلك عندما لا تفي المستويات

الدلالية والسياق اللغوي بتفسير الظاهرة العدولية ، فيكون اللجوء إلى خارج

اللغة من أجل إثبات العدول أوّلاً ، ثم من أجل تفسيره ثانياً ، ونظرية المدلول

السياقي >> لا تقتصر على المعنى اللغوي المحض... بل تستعين بالقرائن

الحالية والمعطيات الاستعمالية الأخرى بهدف الوصول إلى المعنى التداولي

للجملة <<¹ ؛ وذلك على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِّنَ

الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۗ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ المؤمنون الآية 151 ؛

لأنّ الآية >> خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لا نبيّ معه ، قبله ولا

بعده <<² ومن ثمّ فإنّ الحُكْمُ بأنّ الخطاب موجّه للنبيّ - صلى الله عليه

وسلم - بلفظ الجمع (الرُّسُلُ) إنّما استفيد من غير عناصر اللغة المصاحبة

للخطاب .

¹ - محمد مصطفى ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ، ص : 341 .

² - الزركشي ؛ البرهان : 255/2.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿٢٢﴾ الرحمن الآية 22 ؛
 إنما حكمنا بوجود عدولٍ إلى المثنى من واقعٍ طبيعيٍّ غير لسانيٍّ هو أنَّ اللؤلؤَ
 >> إنما يخرج من الملح لا من العذب <<¹ .

وقوله جل شأنه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ التحريم الآية
 04؛ إنما حكمنا بالعدول إلى المثنى في "قلوبكما" من واقعٍ أنهما قلبان لا قلوب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿٦﴾ الفتح الآية 01 ؛ حكمنا
 بالعدول إلى الماضي من واقعٍ تاريخيٍّ مؤداه أن نزول الآية وقع زمنياً قبل فتح
 مكة.

وكذلك في الآيات الواردة بصيغة الماضي تعبيراً عن أحداث يوم القيامة ؛ كما
 في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
 ﴿١﴾ النحل الآية 01 ، أو قوله جل شأنه: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي
 السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيٰمٌ
 يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ
 وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
 عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ الزمر الآيات 68 ، 69 ، 70 ، أو قوله:

¹ - الثعالبي ؛ فقه اللغة ص 277 ، وينظر: الزركشي ؛ البرهان : 5/3 .

﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ ۙ

وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ق الآيات 20 ، 21 .

1- ارتباط العدول الصرفي في بعض الآيات بسياقات مخصوصة ؛ حيث تكون من بين غايات العدول خدمة سياق معيّن أو مسابرة طلبا لتمام البلاغة و التناسب بين اللغة و أحوال مستعملها مخاطبين و متلقين ، من ذلك:

- العدول مراعاة لحال المتلقي :

وذلك باعتبار حال المتلقي إزاء ما يُلقى إليه من قولٍ واقعا خارجيا يبسط سلطانه على اللغة فيجعل المخاطب - كما سبق - كيف خطابه وفق من يخاطب وبالتالي وفق سياق خارجي ليس من مكونات اللسان ، ولا هو من قواعده ، بل هو مؤثر خارج عن اللسان ومن ثمّ فإنه من مشمولات السياق الثقافي والاجتماعي الذي يسهم في بناء الخطاب ويشترك معه في صفة الاجتماعية ، ولا يمكن إغفاله عند من يروم الوصول إلى المعنى الدلالي والتداولي لأيّ خطاب.

فالتعبير عن الأحداث المستقبلية وبخاصة أحداث يوم القيامة بالفعل الماضي يستجيب لهذه الرؤية لأنه ينطلق من واقع أنّ الذين يتوجه إليهم الخطاب ينكرون هذه الأحداث ولا يؤمنون بالبعث أصلا ، وهو السياق الاجتماعي الذي راعته مثل هذه الخطابات فاتكأت في سبيل إثبات هذه الحقائق على تغيير النسق اللغوي والعدول به عن واقعه الصرفي حين انصرفت عن أساليب التوكيد المعروفة إلى التوكيد بالعدول إلى الماضي من أجل تقديم أحداث يوم القيامة واقعا يُخبر عنه بدل الإخبار عنها بأنها أحداث لم تقع ولكنها أكيدة الوقوع ؛ فيكون بذلك السياق الاجتماعي - الذي هو تكذيب المشركين - قد فرض واقعا لغويا ، وخطابا غير

الخطاب الذي يتوجه إلى المسلمين ، وتكون بذلك قوانين اللغة قد لانت واستجابت للواقع الاجتماعي خدمة لموضوع الرسالة ؛ فالذي يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ

الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ

﴿البقرة الآية 166 - سواء أكان مؤمنا أو مشركا - لا يمكنه أن يطرُدَ من

أمام ناظره مشهد المعذبين في النار وهم يتبرؤون من بعضهم ويتنكرون لما كان بينهم من أسباب ، وهي أبدا ليست كقوله : " إِذْ يَتَّبِعُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَيَرَوْنَ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ " التي يظهر الفرق بينها وبين سابقتها كالفرق بين الواقع والمنتصور.

كما أن الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

سُرَادِقُهَا ﴾ الكهف الآية 29 ، أو قوله: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ

زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ﴿ الزمر الآية 73 أو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ الأنعام

الآية 94 ، أو غير ذلك من الآيات التي تعرض المستقبل في صورة الماضي لا يمكنه إلا أن يؤمن إيماننا راسخا بهذه الأحداث ، ويدرك أن وقوعها مسألة وقت لا أكثر ولا أقل.

ومن العدول مراعاة لحال المتلقي ما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ

كَلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٣﴾ الإسراء

الآية 23 ؛ حيث إنَّ العدول إلى المصدر يستجيب لواقع البيئَة المشتركة على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؛ حيث كان من العرب أجلاف قليلو أدب مع المسنين من والديهم¹ فكانت دعوة القرآن إلى لزوم الأدب مع الوالدين مؤكّدة من جهتين ؛ الأولى اقتران الدعوة إلى طاعتها في كل الآيات بالدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، والثانية العدول عن الأمر الصريح إلى المصدر الذي يعتبر الآكد والأقدر على حمل مفهوم الطاعة لأنه أصل الحدث ومادته .

ومن العدول الذي يراعي سياق الخطاب ويستجيب لواقع المتلقي ما نجده في آيات التدليل على مطلّية القدرة الإلهية من العدول إلى المذكر ، لما بين مفهوم الذكورة وإطلاق القدرة من اشتراك في الدلالة على القوة ؛ لأنّ القدرة نتاج القوة ، ومن أسماء الله تعالى " القادر " و"المقتدر" ، وقد ارتبطت القوة في التراث العربي بالذكورة ولازمته في الواقع واللسان ، ذلك أنّ المجتمع العربيّ ذكوريّ في جميع مظاهره ، ولا مكان للأنوثة إلاّ في مساحة منحسرة جدًّا لا تكاد تُجاوز الفراش والإنجاب ، وهو واقع امتدّ إلى اللسان حتى وصفوا الشاعر المجيد بالفحل تشبيها لتمكنه من البيان بهيمنة الفحل على القطيع ، والدلالة الضمنية هي أنّ مَنْ دونه فحولة ، وإن لم يكونوا إناثا ، فهم الأقرب إلى الأنوثة ؛ وهي المنزلة الدنيا ، وسمّوا : الأدب ، والشعر ، والنثر ، والبيت ، والبحر ، والوزن ، والسبب ، والوتد ، و التصريح ، و السجع ، والجناس ، و البيان ، واللسان.... إلخ ، وكلُّها أسماء مذكّرة لا يكاد المؤنث يذكر إزاءها .

¹ - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 158/4 .

لذلك فإنَّ المذكر هو الوجه الآخر للقوة وبه تعرف ، وفي الخطاب القرآني آيات نجد فيها عدولا إلى المذكر وهي متعلقة بموضوع التذليل على القدرة الإلهية ، من ذلك :

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ

جَثْمِينَ ﴿٦٧﴾ هود الآية 67 ؛ حيث عبر عن "الصيحة " وهي لفظ مؤنث بالفعل المذكر " أخذ " والآية موضوعها اقتدار الله تعالى على الظالمين .

وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ^١ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ المزملة الآية 18 ؛ حيث قال "منفطر" على تأويل السماء بـ "السقف" ، أو "البنيان"¹ والآية تصويرٌ لأهوال يوم القيامة وفيه تتجلى قدرة الله تعالى .

وقوله جل ذكره : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا

وَنُصِّقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ الفرقان الآيتان 48 ، 49 ،

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا^٢

كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ﴿١١﴾ الزخرف الآية 11 ، حيث وصفت البلدة وهي لفظ

مؤنثٌ بالوصف المذكر "ميتاً " الذي وإن استوى فيه المذكر والمؤنث كما ذكر

الزجاج² إلا أنَّ اختيار المذكر يتناسب مع القوة في قدرة الله تعالى على إحياء الأرض وإخراج النبات بالماء .

¹ - علي النجدي ناصف ؛ بين "مرضعة" و "منفطر" في القرآن الكريم ، ص 36 .

² - ابن منظور ؛ اللسان : م . و . ت .

وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي
 الْفُلِّ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ
 مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَخْرَجْنَا
 مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ يونس الآية 22 ؛ حيث وصفت
 "الريح" وهي لفظ مؤنث - إلا عند بني أسد¹ - بالوصف المذكر ، وما في ذلك
 من تناسب مع هول البحر وأخطاره المحدقة بالمجرمين....

وفي كل ذلك تساقق بين الإيماء إلى قدرة الله المطلقة التي لم يؤمن بها
 المشركون وما في الذكورة من مفهوم القوة التي لا زالوا يعتبرونها مثار اعتزازهم
 ؛ وهو السياق الاجتماعي الثقافي الذي استندت إليه الظاهرة اللغوية واستجابت له
 أملاً في استجابة المخاطبين إلى رسالة الدين الجديد.

¹ - ينظر: الفراء ؛ المذكر والمؤنث ، ص : 39 .

الختمة

الخاتمة

الحقيقة أنّ لمعايشة النصّ القرآني - مهما كانت المدة - متعة لا توصف ، وسلطانا لا يُنكر ؛ ومن تبعات هذا السلطان استشعار التقصير كلّما لاحت النهاية ، فلا يكاد الباحث يتمّ ما رسمه لنفسه حتى تلوح له زاوية لم تُعط حقّها من الدرس ؛ فيرى في الخاتمة خنقاً لأنفاس البحث واستعجالاً لأجله ، ولكنّ طائفة الظروف الأكاديمية توجب علينا التوقف عند هذه النهاية والأمل يحدونا أن نظفر بفرصة أخرى نروي فيها ظمأنا إلى نفائس لغة القرآن .

أما فيما يتعلق بما انتهت إليه الدراسة من ملاحظات ونتائج فإنّ أوّل نتيجة قيّدها البحث هي أنّ العدول الصرفي جوهريّ في اللغة الفنّيّة في عمومها لا غناء لها عنه ، وأنّه تناولته الدرس البلاغي والأسلوبي تحت مصطلحات كثيرة أقواها دلالة مصطلح "العدول" لبنيته الصّرفية ، ولأصالته في الدرس اللغوي والبلاغي ، وأنّه يكون في الصيغ الاسمية ، والصيغ الفعلية ، وبين الأسماء والأفعال ، وأنّ أهمّ أبعاده البعدُ الفنيّ (الإيقاعي) ، والبعد المعنوي ، والبعد التداولي .

البعد الإيقاعي: على الرغم من أنّ الدراسة اكتفت ببحث الإيقاع المرتبط بالفاصلة فإنّه كان كافياً للوقوف على أهميّة العدول الصرفي في تحقيق جزء من موسيقى النصّ بما هو آلية لغوية كفيلة بتطويع الأبنية اللغوية للحاجة الإيقاعيّة ، وتقديم المعاني البليغة الجميلة في الألفاظ المؤنسة الرائقة لتستوي العبارة شكلاً ومضموناً ، بل إنّ العدول الصرفي كثيراً ما يكون الضامن لقبول المعاني المتردّد في قبولها ، بما يُلبسها من حُلّة إيقاعية تُسوِّغ قبولها ، ومن أهمّ الملاحظات الإيقاعية التي توصل إليها البحث:

- أنّ العدول الصرفي يمكن أن تكون له غاية إيقاعية محضة ؛ وذلك حين ينعدم الفرق الدلالي بين اللفظ المعدول إليه واللفظ المعدول عنه ، ويمكن أن يجمع بين المعنى والإيقاع ؛ وهي الحالة الأفضى.

- أنّ العدول الصرفي آليّةٌ لسانيةٌ تُمكن من حفظ إيقاع الفاصلة بما يوفر من بدائل تحفظ المعنى وتفي بالحاجة الإيقاعية ؛ وهو في ذلك أشبه بالاشتقاق في الصرف ، أو الترادف في المعجم ؛ إذ يمكن اعتبار الآليات الثلاث كالخزّان اللغوي الذي يُنفق منه مستعمل اللغة ، ويعود إليه كلما ضاق به خناق الوزن.

- وأنّه يخدم الانسجامَ المقطعيّ بين الفواصل المتوالية ضمّانا للإيقاع المطلوب ، وذلك حين يتوفر اللفظ المعدول إليه على المقاطع المشابهة لمقاطع الرتل الموسيقيّ الذي تشكّله مجموعة الفواصل المتجاورة .

- كما أنّه يشكّل أداة إجرائية لحفظ ارتباط تغير المعنى بتغير الإيقاع في الفواصل ؛ وذلك عند انتهاء الكلام في موضوع وابتدائه في موضوع آخر، فيتّخذ من العدول أداةً لحفظ الإيقاع بما يُحقّقه اللفظ المختار من توافق صوتي في الفواصل ذات الموضوع الواحد ، أو الفاصلة التي تشكّل معلّم البداية أو النهاية.

البعد المعنوي: من النتائج التي أفضى إليها البحث في هذا البعد مايلي:

- أنّ العدول الصرفي أسلوبٌ من أساليب إنتاج الدلالة وإثرائها ، وهو فتحٌ للصيغة على تعدد الدلالة ، وبخاصة في العدول إلى المصادر حيث تجعل العبارة تقبل أكثر من قراءة انطلاقاً من تعدد المعنى في المصدر ، وكونه أصل الدلالة وجرثومتها الأولى التي تنشق عنها سائر الدلالات والمعاني.

- كثيرا ما يكون العدول طلبا للمبالغة والتأكيد ، وبخاصة في العدول إلى المصادر التي تأخذ وظيفة المفعول المطلق ، أو نائبه ؛ ولا يخفى أن استعمال المفعول المطلق هو أسلوب من أساليب التوكيد ، أو العدول العددي المفضي إلى تكثير الأفعال والفاعلين كما في قوله تعالى: ﴿ أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ق الآية 24 .

- يُعدل إلى الصيغ الاسمية طلبا للثبات ، ويعدل إلى الصيغ الفعلية طلبا للحركة والتجدد ، ويُعدل عن الماضي إلى المضارع استحضارا للحدث ، أو تحديًا للمتلقي كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران الآية 59 ، ويُعدل إليه عن الأمر تجنبًا للاستعلاء ، أو للدلالة على أن الأمر مما تجب المسارعة إليه ؛ كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ البقرة الآية 233 ، ويُعدل عن المضارع إلى الأمر طلبا للاستعلاء وتحجيما للمتلقي كما في قول هود: ﴿...قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي ، بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، ويُعدل عن المضارع إلى الماضي تأكيدا للحدث وإدراجا له ضمن الحوادث المنتهية إقناعًا للمتلقي وحسبًا لتردده ، و كثيرا ما يرتبط ذلك بالأحداث العظيمة ومنها أهوال يوم القيامة.

- من دلالات العدول الصرفي الاقتصاد اللغوي وتكثيف الدلالة في المبنى الواحد كما في العدول إلى المفرد في قوله تعالى: ﴿ فُكُلْنَا يَتَّعَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ

وَلَزَوَّجَكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ ﴿ طه ، الآية 117 ، أو إلى الجمع ؛ كما في قول المحتضر: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١٦﴾ ﴿ المؤمنون الآية 99 .

- من دلالاته تعظيم شأن المتلقي والرفع من مكانته إغاضة للآخر ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِلَّمَّ يَسْتَحْيِبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴿ هود الآية 14 ، أو قوله : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْأَفْضَلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴿ النور الآية 22 .

- من دلالاته مسابرة السياق بالعدول إلى المؤنث في ما سياقه الرقة واللفظ ، وإلى المذكر في ما شأنه الغلظة والترهيب كما في قوله تعالى هو: ﴿ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ ﴿ يونس الآية 22.

- ويمكن أن يشير إلى معنى التلبس بالحدث كما في " مُرْضِعَةٍ " من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^ط الحج الآية 2 ؛ فيخرج علامة التأنيث (التاء) عن وظيفتها الصرفية المتمثلة في كونها دالة عن جنس المؤنث إلى وظيفة دلالية أخرى هي اتصاف المرضع بصفة الإرضاع عند رؤية العذاب .

البعد التداولي:

من أهم النتائج في هذا الجانب أنَّ العدول قد يفرضه اعتبار علاقة اللغة بأطراف الخطاب ؛ فلا يُعدل عن لفظ إلى آخر طلبا لمعنى يغيب في حال التزام الأصل ، أو لداعي الإيقاع - كما تقدم - وإنما يُعدل عن لفظ إلى آخر مراعاة لحال المخاطب أو المتلقي ، أو لإيجاد وضعٍ خطابيٍّ يجب أن يكون ضمنه المقال بما يكفل التواصل الصحيح ، أو يكون استجابة للحالة النفسية للمخاطب نفسه ؛ فيقدم عليه تحت تأثير الضغوطات النفسية المهيمنة عليه عند الخطاب .

- و أنَّ العدول وسيلةٌ لحفظ مقامات المتلقين بتكييف الخطاب بحسب أصنافهم ومكاناتهم ، وبه تحفظ كذاك مكانة المخاطب بما يقوي حُجَّتَه أمام خصمه ؛ كما في قوله تعالى : ﴿...وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾^ط النساء الآية 64 ، أو

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^ط الأنفال الآية 01.

- وأنه يُمثل أسلوبًا حجاجيًا ، وأداةً منطقيةً للإقناع ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس الآية 22 ، ويمكن من مواجهة الخصم وإفحامه كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ مريم الآية 88 .

- شكّلت الحروف المقطّعة في مطالع السور عدولا جذريًا عن واقع اللغة وقوانينها واستوقفت اللغويّ مخاطبًا ومتلقّيًا إلى الحد الذي فرّق كلمة المفسرين بالمأثور والمعقول - على السواء - فلم يجدوا فيها قولًا فصلا.

وبالجملة فإنّ "العدول الصرفي في القرآن الكريم " أداة لتطويع اللغة بما يكفل قبول حملتها الدلالية المتمثلة في رسالة الإسلام ، ومهما تكشف لنا من بعض أسرارها فإنّ ما جهلناه أضعاف ما علمناه ؛ لذلك فإننا نفارق الموضوع وفي النفس إثارة من تعلق به وبقية من حنينٍ إليه سائلين الله - تعالى - أن يتجاوز عمّا بدر منا في حقّ كلامه المحكم المعجز ، وأن يهدينا سواء السبيل ، لائذين بجنابه الكريم من أن نقع تحت قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الكهف الآيتان 103 ، 104 .

سائلًا أساتذتي الكرام التفضل بالتوجيه والنصح من أجل تقويم هذا العمل الغضّ وأن يدفعوا بالحسنة السيئة ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا، ولهم مني كلُّ التقدير والتوقير والعهد بالسمع والالتزام ، والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

-أ-

1 - آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : محمود نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 2002 م .

2- الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر : عبد الحميد جيدة ، مؤسسة نوفل ، 1980 م

3 - الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، تقديم ومراجعة محمد شريف سكر ومصطفى القصاص ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ودار إحياء العلوم ، بيروت ، ط1 ، 1407هـ - 1987م.

4 - أدب الكاتب : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحقيق علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط1 ، 1408هـ - 1988م.

5 - أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره : محمد مصطفى ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 2009 م .

6- أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ، تحقيق وليد الزكري ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1424هـ - 2004 م .

7 - استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية : عبد الهادي الشهيري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ط1 ، 2004 م .

- 8 - أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمد رشيد رضا ، مطبعة محمد علي ، مصر، ط6 ، 1959 م .
- 9 - أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط3 ، 1995 م .
- 10 - الأسلوبية والأسلوب : عبد السلام المسدي ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ودار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ط5 ، 2006 م .
- 11- اشتقاق أسماء الله الحسنى: الزجاج ، تحقيق عبد المحسن المبارك مؤسسة الرسالة ، بيروت ، د.ط ، 1986 م .
- 12 - أشعار العامريين الجاهليين: جمع وتوثيق عبد الكريم يعقوب ، دار الحوار ، سوريا ، ط1 ، 1982 .
- 13 - الأصوات اللغوية : إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ط1 ، 1979م.
- 14 - الأصول - دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، 2000م
- 15 - الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني: مازن موفق صديق الخير ، مكتبة دار البيان ، دمشق ط1 ، 2010 م .
- 16 - الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن : محمد الأمين الخضري ، مطبعة الحسين الإسلامية ط1 ، القاهرة ، 1993م .

- 17 - الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : أحمد يوسف هنداوي ، المكتبة
العصرية ، بيروت ، 2002م.
- 18 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1424هـ - 2003م.
- 19 - الإعجاز القرآني في أسلوب العدول عن النظام التركيبي النحوي والبلاغي
: حسن منديل حسن العكيلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2009م .
- 20- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم : أبو عبد الله الحسين بن أحمد
بن خالويه ، تحقيق محمد سليمان حسن ، شركة القدس للنشر والتوزيع ،
القاهرة ، 2009 م .
- 21 - الانزياح في التراث النقدي والبلاغي : أحمد محمد ويس ، اتحاد الكتاب
العرب ، دمشق ، 2002م.
- 22 - الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : أحمد محمد ويس المؤسسة
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 2005م.
- 23 - إيضاح التلخيص : الخطيب القزويني ، شرح محمد خفاجي ، الشركة
العالمية للكتاب ، بيروت ، ط3 ، 1989 م .
- 24 - الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني ، تحقيق محمد عبد المنعم
خفاجي ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ط3 ، 1391 هـ - 1971 م .
- 25 - الإيقاع في الشعر العربي : محمود المسعدي ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد
الله ، مطبعة كويتيبي ، تونس 1996 م .

ب -

- 26 - البحر المحيط : أبو حيان ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، 1328 هـ .
- 27 - البرهان في علوم القرآن : محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، 1425|1426هـ - 2005 م .
- 28 - بلاغة الخطاب وعلم النص : صلاح فضل ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 م .
- 29 - بلاغة القرآن الكريم - دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل : ظافر بن غرمان العمري ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1 ، 1429هـ - 2008 م .
- 30 - البنية الصرفية وأثرها في تغيير الدلالة - دراسة تطبيقية على قراءة عاصم : محروس محمد محروس ، دار البصائر ، مصر ، 2007 م .
- 31 - البيان في روائع القرآن : تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط2 ، 2000م
- 32 - البيان في روائع القرآن : تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2002 م .

ت -

- 33 - تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، تحقيق أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، ط1 ، 1954 م .
- 34 - تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، تحقيق أحمد صقر ، دار التراث ، مصر ، ط2 ، 1394 هـ - 1973 م .
- 35 - التحرير والتنوير : الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، د.ت .
- 36 - تحليل الخطاب الشعري : محمد مفتاح ، دار التنوير للطباعة والنشر ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1985 م .
- 37 - تصريف الأسماء : عبد المنعم أحمد هريدي ، دار أبو المجد للطباعة بالهرم ، مصر ، 1988 م .
- 38 - التصوير الفني في القرآن الكريم : سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، د.ط ، د.ت .
- 39 - التعبير الفني في القرآن : بكري شيخ أمين ، دار الشروق ، القاهرة ، ط4 ، 1980 م .
- 40 - تفسير البغوي (معالم التنزيل) : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1423هـ - 2002م .
- 41 - التفسير البياني للقرآن الكريم : عائشة بنت الشاطئ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1990 م .

- 42 - تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ،دار الحديث ، القاهرة ، ط1 ، د.ت .
- 43 - تفسير الطبري : محمد بن جرير الطبري ، دار الفكر، بيروت ،1405 هـ
- 44 - تفسير القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط2 ، 1372 هـ .
- 45 - تفسير ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، دار الفكر ، بيروت ، د.ط ، 1401 هـ .
- 46 - تفسير النسفي (مدارك التنزيل وخصائص التأويل) : أبو البركات عبد الله النسفي ، دار الفكر ، د.ط ، د.ت .
- 47 - التيسير في القراءات السبع : أبو عمر عثمان بن سعيد الداني ، تحقيق محمد بيومي ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، ط1 ، 1427 هـ -2006 م .
- ج-
- 48 - جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني : صالح ملا عزيز ، دار الزمان ، دمشق ، ط1 ، 2010 م .
- 49 - جمالية التلقي في القرآن الكريم - أدبية الإيقاع الإعجازي أنموذجاً : شارف مزارى ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2009 م
- 50 - الجُمَل : الزجاج ، تحقيق ابن الشنب ، باريس ، د.ط ، د.ت .

- ح -

- 51 - حاشية ابن التمجيد : ابن الرومي الحنفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1422هـ .
- 52 - حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : الشهاب الخفاجي ، طبعة بولاق ، القاهرة ، 1283 هـ .
- 53 - حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي ، تحقيق عبد الله محمود عمر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1422 هـ .

- خ -

- 54 - الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ط ، د.ت .
- 55 - خصائص التراكيب - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني : محمد محمد أبو موسى دار التضامن ، ط2 ، 1980 م .
- 56 - خصائص الحروف العربية ومعانيها: حسن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1998 م .

- د -

- 57 - دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة :أين ليلاي؟ : عبد الملك مرتاض ، د.م.ج ، الجزائر ، 1992 م .

- 58 - دراسة في علوم القرآن : نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ،
الدار البيضاء ، المغرب ، 1987 م .
- 59 - دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمد التنجي ، دار الكتاب
، بيروت ط1 ، 1995 م .
- 60 - دلالة الألفاظ : إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط6 ، 1991 م .
- 61 - دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمن ، ترجمة كمال بشر ، مكتبة الشباب ،
القاهرة ، د.ط ، 1988 م .
- 62 - ديوان الأعشى: شرح وتعليق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، ط7 ، 1983 .
- 63 - ديوان جرير: شرح محمد بن حبيب ، تحقيق نعمان محمد أمين طه ، دار
المعارف ، القاهرة ، ط3 ، 2009 .
- 64 - ديوان حاتم الطائي وأخباره : طبعة لندن ، 1872 م .
- 65 - ديوان الحطيئة: شرح أبي سعيد السكري ، دار صادر ، بيروت ،
1401 هـ - 1981 م .
- 66 - ديوان الخنساء: دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر، د.ط ، 2002 م .
- 67 - ديوان عمر بن أبي ربيعة : تحقيق محمد الزهري الغمراوي ، البابي
الخطبي ، مصر ، د.ط ، 1311هـ .
- 68 - ديوان النابغة: شرح وتقديم عباس عبد الساتر ، دارالكتب العلمية ، بيروت
، ط3 ، 1996 م .

- ر -

- 69 - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني : شهاب الدين السيد محمود الألوسي إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي .

- س -

- 70 - سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد : عودة الله منيع القيسي ، دار البشير ، مؤسسة الرسالة ، الأردن ، ط1 ، 1996 م .
- 71 - سر صناعة الإعراب : ابن جني ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، مصطفى البابي الحلبي ، ط1 ، 1954 م .
- 72 - سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ، تحقيق عبد العالي الصعيدي ، مكتبة الصبيح ، القاهرة ، 1953 م .
- 73 - سنن البيهقي الكبرى : أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي ، تحقيق عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، 1414هـ - 1994 م .
- 74 - سنن الترمذي: الترمذي ، تحقيق محمد شاکر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ط ، د . ت .
- 75 - سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط9، 1413هـ.

-ش-

- 76 - الشافية: جمال الدين أبو عثمان الدويني ، تحقيق حسن أحمد العثمان ، المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1995 م .
- 77 - شذى العرف في فن الصرف : أحمد الحملوي ، تحقيق يوسف الشيخ محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004 م .
- 78 - شرح الشافية: رضي الدين الأستربادي ، تحقيق محمد الحسن ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1395هـ - 1975 م .
- 79 - شرح الشوملي على ألفية ابن معطي: علي موسى الشوملي ، مكتبة الخريجي ، الرياض ، السعودية ، ط1 ، 1985 م
- 80 - شرح الكافية: رضي الدين الأستربادي ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 1420 هـ - 2002 م .
- 81 - شرح مختصر التصريف العزّي في فن الصرف: مسعود بن عمر سعد الدين التفتزاني ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط8 ، 1417 هـ - 1997 م .
- 82 - شرح المعلقات السبع: أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1425هـ ، 2004 م .
- 83 - شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ، د . ط ، د . ت ، عالم الكتب ، بيروت ، ومكتبة المنتبي ، القاهرة .
- 84 - شرح المفصل : موفق الدين بن يعيش ، الطبعة المصرية

85- **شعب الإيمان** : أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق السعيد بسيوني
زغول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1410 هـ .

- ص -

86 - **صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا
، دار ابن كثير، بيروت ط3 ، 1407 هـ - 1987 م .

87 - **صحيح ابن حبان** : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي ، تحقيق
شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1414 هـ - 1993 م .

88 - **صحيح مسلم** : مسام بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد
الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

89 - **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف**: أحمد ياسوف ، دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا ، ط2 ، 2006 م .

90 - **صيغة فعيل واستعمالاتها في القرآن الكريم** : علي أحمد طلب ، مكتبة
الأمانة ، مصر ، ط11407 هـ - 1987 م .

- ط -

91 - **الطرز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**: يحيى بن حمزة
العلوي ، تحقيق محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
1995 م .

- ع -

- 92 - علم الاشتقاق نظريا وتطبيقيا : محمد حسن حسن جبل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط2 ، 2009 م .
- 93 - علم الدلالة السيمانتكية والبراغماتية في اللغة العربية : لحسن شاهر ، دار الفكر ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2001 .
- 94 - علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية: علي القاسمي ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ط1 ، 2008 م .
- 95 - العمدة : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجبل ، بيروت ، ط5 ، 1401 هـ - 1981 م .

- ف -

- 96 - فتح الباري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، 1397 هـ .
- 97 - الفروق : أبو هلال العسكري ، تحقيق أحمد سليم الحمصي ، جروس بيسرس ، لبنان ، ط1 ، 1994 م .
- 98 - الفروق : أبو هلال العسكري ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت .
- 99 - الفعل زمانه وأبنيته : إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط3 ، 1403 هـ - 1983 م .

- 100 - **فقه اللغة المقارن** : إبراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، 1978 م .
- 101 - **فقه اللغة وسر العربية** : الثعالبي ، تحقيق فائز محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط1 ، 1427 هـ - 2006 م .
- 102 - **فواصل الآيات القرآنية - دراسة بلاغية** - : سيد خضر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط2 ، 1420 هـ - 2000 م .
- 103 - **الفونولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم**: محمد رزق شعير ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1429 هـ - 2008 م .
- 104 - **في البراغميات - الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة** : علي محمود حجي الصراف ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1431 هـ - 2010 م .
- 105 - **في اللسانيات التداولية** : خليفة بوجادي ، بيت الحكمة ، العلة ، الجزائر ، ط2 ، 2012 م .
- 106 - **في النحو العربي - نقد وتوجيه** : مهدي المخزومي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1964 م .
- 107 - **في نحو اللغة العربية وتراكيبها - منهج وتطبيق** : خليل عمايرة ، عالم المعرفة ، جدة ، السعودية ، ط1 ، 1404 هـ - 1984 م .
- 108 - **في النقد الأدبي** : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة المصرية ، ط2 ، 1972 م .

- ق -

- 109 - قراءة جديدة لتراثنا النقدي : عز الدين إسماعيل ، النادي الثقافي ، جدة ، السعودية ، 1990 م .
- 110 - قضايا الشعر العربي المعاصر: نازك الملائكة ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 1962 م .
- 111 - قطر الندى وبلّ الصدى : ابن هشام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط11 ، 1383 هـ - 1963 م .
- 112 - القول الشعري - منظورات معاصرة : رجاء عيد ، منشأة المعارف ، مصر ، 1995 م .
- 113 - القياس في النحو : منى إلياس ، دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع ، دمشق ، ط1 ، 1985 م .

- ك -

- 114 - كتاب البديع : عبد الله بن المعتز ، دار الحكمة ، دمشق ، د.ت ، د.ط .
- 115 - الكتاب : سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1408 هـ - 1998 م .

116- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :أبو القاسم
جار الله محود بن عمر الزمخشري ، شرحه وضبطه يوسف الحمادي ،
مكتبة مصر ، الفجالة ، مصر ، 2000 م .

- ل -

117- اللباب في علل البناء والإعراب : أبو البقاء محب الدين عبد الله ، تحقيق
غازي مختار طليمات ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1995 م .

118 - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي
العربي ، المغرب ، ط3 ، 2012 م .

119 - لطائف قرآنية : صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط 2 ،
1998 م .

120 - اللغة والإبداع - مبادئ علم الأسلوب العربي : شكري عياد ، طبعة
انترناشيونال ، القاهرة ، 1988 م .

121 - اللغة الشاعرة : العقاد ، دار غريب ، القاهرة ، د.ط ، د.ت .

122 - لمسات بيانية في نصوص التنزيل : فاضل صالح السامرائي ، دار عمار
للنشر ، عمان ، الأردن ، ط 4 ، 1428هـ - 2007 م .

- م -

- 123 - **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** : أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995م .
- 124 - **مجمع الزوائد** : علي بن أبي بكر الهيثمي ، دارالريّان للتراث ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، بيروت ، 1407هـ .
- 125- **المحتسب** : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق علي النجدي ناصف ورفيقه ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1386هـ .
- 126- **المحتسب** : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1419هـ .
- 127- **مختار الصحاح** : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، تحقيق محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، 1415هـ - 1995 م .
- 128- **مختصر تفسير الطبري** : ابن صمادح الأندلسي ، مجمع البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر ، مصر ، د.ت .
- 129- **المدارس اللسانية المعاصرة** : نعمان بوقرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 2004 م .
- 130- **المذكر والمؤنث** : ابن التستري ، تحقيق عبد المجيد هريدي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1 ، 1983 م .
- 131 - **المذكر والمؤنث** : أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق رمضان عبد التواب ، دار التراث ، القاهرة ، ط1 ، 1989 م .

- 132 - **المذكر والمؤنث: الأنباري** ، تحقيق طارق الجنابي ، القاهرة ، د.ط ، 1983 م .
- 133 - **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** : جلال الدين السيوطي ، تحقيق فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 1998 م .
- 134 - **مسائل فلسفة الفن المعاصرة** : جان ماري جويو ، ترجمة سامي الدروبي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1984 م .
- 135 - **المستدرك على الصحيحين**: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1 ، 1411 هـ - 1990 م .
- 136 - **مسند أبي يعلى** : أحمد بن علي الموصلي أبو يعلى ، تحقيق إرشاد الحق الأثري ، إدارة العلوم الأثرية ، فيصل آباد ، ط1 ، 1407هـ .
- 137 - **مسند أحمد** : أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، د.ط ، د.ت .
- 138 - **المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية** : سيف الدين طه الفقراء ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 1425هـ - 2004 م .
- 139 - **المصطلحات الأدبية الحديثة** : محمد عناني ، الشركة المصرية العالمية ، القاهرة ، د.ط ، 1996 م .
- 140 - **معاني الأبنية في العربية**: فاضل السامرائي ، جامعة الكويت ، ط1 ، 1981 م .
- 141- **معاني القرآن** : أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب ، د.ط ، 1374هـ - 1955 م .

- 142 - المعنى الجديد في علم الصرف : محمد خير حلواني ، دار الشرق العربي ، بيروت د.ط ، د.ت .
- 143- مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية : صابر الحباشة ، دار صفحات للدراسة والنشر ، دمشق ، ط1 ، 2011 م.
- 144 - معني اللبيب : ابن هشام الأنصاري ، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، ط6 ، 1985 م.
- 145 - المفارقة القرآنية : محمد العبد ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 2006 م .
- 146 - مفتاح العلوم : السكاكي ، تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1987 م .
- 147 - المفتاح في التصريف : الجرجاني ، تحقيق محمد بن سالم العميري الهذلي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، د.ط ، د.ت .
- 148 - مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن : نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 1987 م .
- 149 - الممتع في التصريف : ابن عصفور الإشبيلي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، الدار العربية للكتاب ، الجماهيرية العربية الليبية ، ط5 ، 1983 م .
- 150 - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : محمد أمين الخضري ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، د.ت .
- 151- منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب ابن خوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1966 م .

152 - الموافقات في أصول الشريعة : الشاطبي ، دار المعرفة ، بيروت ،
1994 م .

- ن -

153 - النصُّ والسياق - استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي:
فان ديك ، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، د. ط ،
2000 م .

154 - نظرية أفعال الكلام العامة - كيف ننجز الأشياء بالكلام : جون لانكشو
أوستين ، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط2 ،
2008 م .

155 - نظرية الإيقاع في الشعر العربي : محمد العياشي ، المطبعة العصرية ،
تونس ، 1976 م .

156 - نظرية البنائية في النقد الأدبي : صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية
العامة ، بغداد ، ط3 ، 1987 م .

157 - نظرية اللغة الأدبية : إيفانوكس خوسي ماريا ، ترجمة حامد أبو حامد ،
مكتبة غريب ، القاهرة ، 1992 م .

158 - نقعة الصديان في ما جاء على الفعلان : الحسن بن حيدر بن علي
القريشي ، تحقيق علي حسن البواب ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط1 ،
1982 م .

159 - النكت في إعجاز القرآن : الرماني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد
زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1976 م .

المعاجم

- 160 - **التعريفات** : علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العلمي ، بيروت ، ط1 ، 1405 هـ .
- 161- **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط1، د.ت .
- 162 - **القاموس المحيط** : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ت .
- 163- **المصباح المنير**: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .
- 164 - **المعجم المفصل في علوم البلاغة** : إنعام فوال عكاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، ، 1417هـ - 1966 م .
- 165 - **المعجم الوافي في النحو العربي** : علي الحمد ويوسف الزعبي ، دار الجماهيرية للنشر الجماهيرية الليبية ، دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، ط1 ، 1992 م .

الدوريات والرسائل الجامعية

- 166- تحول البنى النحوية بين التذكير والتأنيث في الآيات المتشابهة في القرآن الكريم : مذكرة ماجستير ، الطالب : أرياف غازي جمال خليفة ، كلية الآداب ، جامعة الشرق الأوسط ، 2010 م .
- 167 - العدول الصرفي في القرآن الكريم - دراسة دلالية - : أطروحة دكتوراه ، الطالب: هلال علي محمود الجحيشي ، جامعة الموصل ، العراق ، 2005 م .
- 168- العدول عن الأصول في الصرف العربي : أطروحة دكتوراه ، الطالب: مقبل عايد السالم ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك ، 2006 م .
- 169 - مجلة التراث العربي : العدد 25،26 ، 1987/1986 م .
- 170- مجلة مجمع اللغة العربية الملكي سابقا : القاهرة ، جمادى الآخرة ، 1400هـ - ماي 1980 م .
- 171- مجلة فصول : العدد 04 ، مج 1 ، جويلية ، 1981 م .
- 172- مجلة فصول : العدد 57 ،
- 173- مجلة فصول : عدد 1985 م ، مج 05 .

المراجع الأجنبية

174- L'énonciation de subjectivité dans la langage : C.k
orechioni , Armand colin Edition , paris , 1980.

175 - La pragmatique d'austin à Goffman : Philippe
blanchet , paris Bertrand la Coste , 1995 .

176- Le style et ces techniques: Marsel cresso, ed , P.U.F
7eme ed , 1971 .

177 Problèmes et méthodes de la linguistique : Wartburg et Ulman , paris , p.u.f ,3 ed ,
1969 .

مُلخَص

يرصد هذا البحث ظاهرة "العدول الصرفي" في الخطاب القرآني من خلال تأصيلها مفهومًا لسانيًا وبلاغيًا يشكّل قطب الرحي في الدراسات البلاغية والنقدية بشكل عام ، والدراسات البلاغية القرآنية بشكل خاص ، وذلك انطلاقًا من أنّ "العدول الصرفي" مظهرٌ من مظاهر العدول الذي يطال اللغة في جميع مستوياتها و يُعدُّ علمَ الإبداع ، وفيصل ما بين اللغة الأدبية ولغة التواصل.

وقد استهدفت الدراسة حصر مظاهر العدول الصرفي أولًا ، ثمّ البحث في أبعاده المعنوية والفنيّة .

أمّا مظاهره فهي ثلاثة ؛ العدول في الصيغ الاسمية ؛ من جهة العدد ، والجنس ، والتعريف ، والاشتقاق ، والضمائر، والعدول في الصيغ الفعلية واقتصرت دراسته على زمن الفعل ؛ فعالجت العدول بين الأزمنة الثلاثة ، والعدول بين الصيغ الاسميّة والصيغ الفعلية ، حيث تمّ بحث دلالات العدول عن الأفعال إلى الأسماء ، ودلالات العدول عن الأسماء إلى الأفعال .

وأمّا غاياته وأبعاده فقد أظهرت الدراسة أنّ له ثلاث غايات رئيسة ينتهي إليها ؛ هي: الغاية الفنيّة (الجمالية) المتمثلة في الإيقاع ؛ اكتفينا فيه ببحث إيقاع الفاصلة تمثيلًا لباقي الإيقاع ، والغاية المعنوية التي يعكسها اتساع الحيز الدلالي أو انحساره بين اللفظ المعدول عنه واللفظ المعدول إليه ، والغاية التداولية حيث ثبت أنّ للعدول الصرفي أثرًا يتجاوز الدلالة إلى الجانب التداولي للغة يظهر في ضبط

العلاقة بين طرفي الخطاب من خلال تضمين الألفاظ المعدول إليها تلويحا بمكانة المخاطب وما تقتضيه من المتلقي ، أو النصّ على مكانة المتلقي وما توجهه على المخاطب ، أو عليه هو نفسه ، أو الإلماع إلى مراعاة السياق و ضرورة فهم العبارة في هديه ، ولكل ذلك أثرٌ مباشرٌ على تلقّي الرسالة والاستجابة لها ؛ ومن ثم كان رافداً مكمّلاً للدراسة الدلالية يُعدُّ إغفاله تغييباً لجانب مهمّ من دلالة النصّ.

وتتوسل الدراسة في كل ما سبق بجملة مناهج في مقدمتها المنهج المقارن الذي يضع اللفظ المعدول إليه بإزاء اللفظ - أو الألفاظ - المعدول عنه لتتكشف المساحة الدلالية والفنية التي يغطيها هذا ويقصرّ دونها الآخر بما يبررُّ أحقيّة اللفظ الحاضر بمكانه في النصّ وحاجة النصّ إليه دون بدائله .

ولمّا كان العدول الصرفي مساحة لتقاطع علوم كثيرة فقد أفاد البحث كثيراً من معطيات علم الأصوات ، وعلم الصرف ، وعلم الدلالة ، والبلاغة ، والتفسير والأسلوبية ، والتداولية ، وأثبت بذلك تعانق مستويات اللّغة وعلومها وأنّ استهداف الدلالة لا يمانع من الاستجداء بأكثر من منهج وأكثر من علم .

Résumé :

La présente recherche s'intéresse à *l'écart morphologique* dans le discours coranique, et ce, en tant que notion linguistique et rhétorique fondamentale au sein des études rhétoriques et critiques notamment celles liées à la rhétorique coranique.

Dans ce cadre, l'écart morphologique est traité en tant qu'une manifestation particulière de l'écart-critère définitoire de l'usage esthétique -qui touche la langue dans tous ses niveaux . En effet, l'objectif ultime de cette étude est de délimiter les types de l'écart morphologique et ses aspects sémantiques et esthétiques.

En fait, les types de l'écart sont trois : l'écart dans les noms (le nombre, le genre, le déterminant, la dérivation, le pronom), l'écart dans les verbes (précisément le temps du verbe) et l'écart entre les noms et les verbes.

Notre étude dévoile trois aspects fondamentaux de l'écart morphologique à savoir : l'aspect esthétique qui se traduit par le rythme phonétique au niveau de la clause du verset coranique ; l'aspect sémantique qui représente le glissement sémantique entre le mot utilisé et ses substitués ; l'aspect pragmatique qui met l'accent sur la relation Emetteur/récepteur et le contexte de l'énonciation qui est décisif en matière de l'interprétation.

Cette étude s'appuie sur une approche plurielle fondée notamment sur la phonétique, la morphologie, la sémantique, la rhétorique, l'interprétation, la stylistique, la pragmatique et la méthode comparative abordant la distance sémantique et esthétique entre le mot utilisé et ses substitués. En un mot, la pluralité de notre approche vient de la richesse de notre objet d'étude.

فهرس الموضوعات

أ - ز	مقدمة:
14	تمهيد:
16	مدخل:
21	مفهوم العدول:
27	العدول الصرفي عند القدامى:
30	العدول الصرفي عند المحدثين:
36	غايات العدول وأبعاده:
37	البعد المعنوي:
40	البعد الفني (الإيقاعي):
44	البعد التداولي:
130 – 47	الفصل الأول: أنواع العدول الصرفي.
49	المبحث الأول: العدول الاسمي.
50	العدول في العدد:
63	العدول في الجنس:
70	العدول بين المعرفة والنكرة:
75	العدول بين الضمائر:

90.....	العدول بين المشتقات:
112.....	المبحث الثاني: العدول الفعلي.
114.....	العدول عن الماضي إلى المستقبل:
117.....	العدول عن المضارع إلى الماضي:
120.....	العدول بين المضارع و الأمر:
123.....	المبحث الثالث: العدول بين الاسم والفعل.
123.....	العدول عن الفعل إلى الاسم:
128.....	العدول عن الاسم إلى الفعل:
220 - 133.....	الفصل الثاني: الدلالة الإيقاعية للعدول:
148.....	المبحث الأول: العدول الصرفي ذو الأثر الإيقاعي المحض:
169.....	المبحث الثاني : العدول الصرفي الذي يجمع بين المعنى والإيقاع:
210.....	المبحث الثالث: ارتباط المعنى بإيقاع الفاصلة:
315 - 221.....	الفصل الثالث: الدلالة المعنوية للعدول.
225.....	المبحث الأول: العدول الاسمي.
225.....	العدول في العدد:
240.....	العدول في الجنس:
249.....	العدول بين الضمائر:

259.....	العدول بين المشتقات:
266.....	المبحث الثاني : العدول الفعلي
266.....	العدول عن الماضي إلى المستقبل :
276.....	العدول عن المستقبل إلى الماضي:
284.....	العدول عن الأمر إلى المضارع :
288.....	العدول عن المضارع إلى الأمر:
290.....	المبحث الثالث: العدول بين الاسم والفعل
291.....	العدول عن الفعل إلى الاسم:
308.....	العدول عن الاسم إلى الفعل:
384 - 316.....	الفصل الرابع: الدلالة التداولية للعدول الصرفي:
322.....	المبحث الأول: المخاطب
326.....	مكانة المخاطب:
339.....	الأفعال الكلامية الإنجازية:
352.....	المبحث الثاني: المتلقي
356.....	خطاب الملاطفة والترفق:
364.....	خطاب المواجهة:
372.....	المبحث الثالث: السياق

385.....	الخاتمة:
391.....	المصادر والمراجع:
413.....	الملخص بالعربية :
415.....	الملخص باللغة الأجنبية :
416.....	فهرس الموضوعات: